الجمهورية الجزائرية الدّيمقراطية الشّعبية
وزارة التّعليم العالي والبحث العلمي
جامعة مصطفى اسطمبولي – معسكر
كلية الآداب واللغات
قسم اللغة والأدب العربي

أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدّكتوراه طور الثالث في اللغة والأدب العربي

تخصص: مناهج النقد الأدبي المعاصرة

الأسلوبية في المدونة النقدية العربية المعاصرة:
عبد السلام المسدي أنموذجا

إعداد الطالبة:
زوليخة عالم

إشراف:
أ.د. بن قويدر المختار

– أعضاء لجنة المناقشة –

الاسم واللقب	الرتبة	الجامـعة	الصفة
لوسرة محمد	أستاذ محاضر أ	جامعة معسكر	رئيسا
بن قويدر المختار	أستاذ	جامعة معسكر	مشرفا ومقررا
بوسكين مجاهد	أستاذ	جامعة معسكر	مناقشا
شريط سنوسي	أستاذ	جامعة معسكر	مناقشا
جرادي نور الدين	أستاذ	جامعة وهران 1	مناقشا
رشيد بن يمينة	أستاذ	جامعة تيارت	مناقشا

السنة الجامعية: 2024– 2025

بسم الله الرحمن الرحيم

شكر وعرفان

الحمد لله بنعمته تتمّ الصالحات، وتنال الدرجات. الحمد لله الذي وفقني لإتمام هذا العمل بعد مشاقه، فله بالغ الشّكر والثّناء. ثمّ الشّكر الجزيل لمدير الأطروحة أستاذي: **أ.د. بن قويدر المختار** على تواضعه وتوجيهاته القيمة. كما أتوجّه بأخلص الشّكر إلى الأساتذة من أعضاء لجنة المناقشة على قبول تقييم العمل.

والشّكر موصول إلى جميع أساتذة قسم الأدب واللغة العربية بجامعة معسكر.

وإلى كلّ من بسط لي يدّ من العون والمساعدة، أو أسعفني بكلمات تشجيع أو دعوات طيبة.

إهـــــــــــداء

أهدي هذا العمل أولا إلى أعزّ روح طيبة، وأنبل نفس زكية ، شاء المولى بقدره وقضائه أن ترحل عنا تزامنا مع إنهاء الأطروحة؛ **روح والدي الغالي**، رحمه الله بواسع رحمته، وأسكنه قصرا وبيتا من رحاب وفسيح جناته .

والأطروحة مهداة كذلك ، إلى **الوالدة الكريمة**، حفظها الله وأمدها بوافر الصحة والعافية، وإلى **جميع الأهل إخوتي وأخواتي**، وكلّ من يستحق الإهداء، وإلى كلّ من آمن بقدراتي وشجعني على إكمال هذا المسار العلمي .

زوليخة عالم

ملخص الدّراسة

ملخص:

تهدف الدراسة إلى التعريف بجهود الناقد التونسي عبد السلام المسدي الأسلوبية على مستوى التنظير والتطبيق، وهذا نتيجة مؤلفاته وأبحاثه الكثيرة في هذا المجال، والتي لا شك أنها جديرة بالاهتمام والدراسة، خاصة لارتباط الأسلوبية عنده بالبلاغة والنقد واللسانيات، وهو ما زاد من أهمية الموضوع. فمن خلال ما سبق بيانه، أمكننا طرح التساؤل الجوهري الآتي: ما السمات التنظيرية وآليات القراءة التطبيقية للمنهج الأسلوبي في جهود الناقد عبد السلام المسدي؟

وللإجابة على التساؤل الجوهري المطروح، وتحقيق أهداف الدراسة، أقمنا مسحا نقديا في ضوء نظرية نقد النقد في كتابين من مؤلفات الدكتور؛ الأول نظري، وهو "الأسلوب والأسلوبية"، الثاني تطبيقي، وهو "قراءات مع الشابي والمتنبي والجاحظ وابن خلدون". وقد جاء هذا المسح بين منهجي الوصف والإحصاء، وضمن ثلاثة فصول؛ فصل نظري تعريفي بالأسلوب والأسلوبية، وفصلان تطبيقيان لكتابي المسدي على الترتيب. وقد خلصنا في نتائج الدراسة، أنّ الأستاذ يعدّ علما نقديا فذّا، ومرجعا أسلوبيا، أفاد الدرس العربي بمقاربات دقيقة في فهم خصائص الأسلوب وتطبيقات الأسلوبية، ونقد كثير من النصوص والخطابات، خاصة بعد أوضح الصلة بين الأسلوبية واللسانيات الغربية الحديثة والبلاغة العربية القديمة، وبعد أن طبق الأسلوبية مع شعر الشابي والمتنبي، ونثر الجاحظ وابن خلدون.

الكلمات المفتاحية: نقد؛ نقد النقد؛ أسلوب؛ أسلوبية؛ عبد السلام المسدي.

Abstract

Abstract

The current study aimed to introduce the stylistic efforts of the Tunisian critic Abdel Salam Al-Masadi, at the theorizing and practical levels. This is because of his several works and research in this realm, which undoubtedly deserve attention, examination, and consideration, especially for the link of stylistics with rhetoric, criticism, and linguistics. Indeed, this is what makes the topic more important. Based on the previous explanation, we can ask the following core question: How do the theorizing vision and practical perspective of stylistics appear in the works of the critic Abdel Salam Al-Masadi?

To answer this essential question and achieve the study's objectives, we carried out a critical survey based on the theory of meta-criticism in two of the doctor's books. The first book is theoretical, and it is entitled Style and Stylistics. The second one is applied under the title Readings with Al-Chaabi, Al-Mutanabbi, Al-Jahiz, and Ibn Khaldun. This survey was between the descriptive and statistical approaches within three chapters: a theoretical chapter defining style and stylistics, and two practical chapters for Al-Masadi's first and second works, respectively. The results showed that Dr. Al-Masadi is an outstanding critical scholar and a stylistic reference that contributes to Arabic insights with clarifications and precise approaches to understanding the features of style and the applications of stylistics in critiquing different texts and discourses. This is especially after he linked them with modern Western linguistics and ancient Arabic rhetoric and applied them to the poetry of Al-Chaabi and Al-Mutanabbi, the prose of Al-Jahiz and Ibn Khaldun.

Keywords: Criticism; meta-criticism; style; stylistics; Abdel Salam Al-Masadi

مقـــدمـــة

المقدمـــــــة:

تعدّ الأسلوبية من أثرى المناهج اللسانية فكرا، ومن أوضحها منهجا على مستوى التطبيق رغم ما يعتريها من غموض في جانب تنظيرها، وربما هذا نتيجة شموليتها من جهة، وامتدادها التاريخي من جهة ثانية؛ إذ ترتبط في نشأتها مع التراث في بلاغته القديمة العربية منها والغربية، وترتبط مع نشأة اللسانيات والمدروسة البنيوية الحديثة التي اهتمت ببنية اللغة وأنساقها، وحتى الفلسفة والمنطق، لهذا كان التحليل الأسلوبي للخطابات والنصوص تحليلا فضفاضا يترامى إلى أكثر من مستوى، ويعالج جوانب كثيرة من النص، خاصة النصوص ذات البعد الفني والجمالي، من الشعر والنثر والرواية، وغيرها من الأصناف والأجناس.

والأسلوبية كغيرها من المناهج اللسانية التي استمد منها النقد الأدبية مادة وأدوات إجرائية في تحليل النصوص الأدبية على اختلاف أجناسها، فتجمع الأسلوبية بذلك بين موروث النقد التراثي العربي البلاغي والنحوي، وبين الدرس الغربي الوافد ترجمة وتعريبا مع الثورة اللسانية في أوروبا وأمريكا. وعلى هذا الأساس، كان اهتمام النقاد واللغويين العرب بها بالغا؛ فألفوا في ماهيتها ومباحثها، ووظفوا أسسها في التحليل النقدي، وكتبوا في شرح أصولها بين الغرب المحدثين والعرب القدامى. ومن ممن ذاع صيتهم في هذا المجال، الناقد التونسي عبد السلام المسدي، والذي تشهد له كتاباته ومؤلفاته بالريادة في هذا الحقل المعرفي. وهذا ما سنعمده بالدراسة في أطروحتنا الموسومة: "الأسلوبية في المدونة النقدية العربية المعاصرة: عبد السلام المسدي أنموذجا".

وإذا كان النقد العربي عموما يعيش فوضى في مصطلحاته، وغموضا في آلياته الإجرائية، فإن عبد السلام المسدي من أولئك النقاد والباحثين العرب الذين اجتهدوا في التوفيق بين الجانب النظري للنقد الأسلوبي وبين الجانب التطبيقي له، وهذا من خلال مؤلفاته الكثيرة. في هذا السياق البحثي، يتأسس الموضوع من استقصاء الأسلوبية عند الدكتور من خلال تحليل

كتابين من مجموع مدوناته الأسلوبية؛ الأول: "الأسلوب والأسلوبية"، والثاني "قراءات مع الشابي والمتنبي والجاحظ وابن خلدون".

ومنه يتسنى لنا طرح الإشكالية الجوهرية: ما السمات التنظيرية وآليات القراءة التطبيقية للمنهج الأسلوبي في جهود وكتابات الناقد عبد السلام المسدي؟ وتتفرع من هذه الإشكالية التساؤلات الفرعية الآتية:

- ما مفهوم الأسلوب وما خصائصه؟
- ما مفهوم علم الأسلوبية؟ وما ملامح نشأتها بين الغرب والتراث الغربي؟
- ما علاقة الأسلوبية بالعلوم الأخرى؟
- ما أهم أسس وآليات القراءة النقدية الأسلوبية للأدب؟
- ما الإضافات التنظيرية التي قدمها عبد السلام المسدي للأسلوبية من خلال كتابه "الأسلوب والأسلوبية"؟
- ما الإجراءات التطبيقية التي وظفها عبد السلام المسدي في تطبيقاته الأسلوبية من خلال كتابه "قراءات مع الشابي والمتنبي والجاحظ وابن خلدون".

وبخصوص أسباب اختيار هذا الموضوع: فهي تتراوح بين الذاتية المتعلقة بميولات الباحثة والعلمية المتعلقة بالموضوع، ونذكرها كالآتي دون الفصل بينهما:

- البحث في الدرس النقدي الأسلوبي، نظرا لما يعتري على الدرس من مشكلات منهجية وغموض على مستوى التطبيق.
- البحث في الدرس النقدي الأسلوبي لما له من علاقة بالتراث العربي تبعا لعلاقة الأسلوبية بالنحو والبلاغة.
- اختيار نموذج عبد السلام المسدي نتيجة تميزه في هذا الجانب النقدي، خاصة مع ربطه لهذا المنهج باللسانيات.

– اختيار البحث في مجال الأسلوبية؛ لأنه حقل واسع من تداخل العلوم والمناهج، وهو موضوع بيني "تجمع بين أكثر من تخصص واحد (اللسانيات، النقد، الإحصاء)".

ويهدف هذا البحث كغيره من البحوث النقدية العربية إلى محاولة التعريف بأعلام النقد العربي في ظل استفحال نظرة أن النقد العربي يعيش اضطرابا لا يظهر له فيه أعلاما ورواداً، ولا تتضح فيه رؤية دقيقة ولا توجها. وإذا كان لهذا شيئا من الصواب، فهو بالمقابل لا يحجب جهود بعض الأعلام الذين تشهد مؤلفاتهم بحرصهم على شرح ما أمكن من الأسس النظرية الأسلوبية، وإلحاقها بمحاولات تطبيقية وإجرائية. ومن هنا كان اختيارنا لنموذج عبد السلام المسدي بناء على جهوده في المجال الأسلوبي النقدي على مستوى التنظير والتطبيق.

أما عن منهج الدراسة، فقد جمع بين الوصفي والتحليلي، وإن غلب عليه التحليل في كثير من مباحثه، ذلك أن طبيعة الدراسة هي تحليل للجهود الأسلوبية عند الناقد. وقد جاء الوصف قرينا بالفصل الأول في شرح الأسلوب والأسلوبية كممارسة خطابية، وكعلم يهتم بهذا المجال، ومن ذلك تعريفه ثم الخوض في نشأته ومراحله، ثم علاقته ببعض العلوم ذات الصلة كاللسانيات والنقد والبلاغة، وأخيرا تعريفا ببعض الجهود العربية في المجال الأسلوبي، ومنها على وجه الخصوص النقاد الجزائريين، أو حضور الأسلوبية في الدرس النقدي الجزائري.

وبخصوص منهج الفصل الثاني، فقد جاء منهجا تحليليا في غالبه، تتبعنا فيه جهود الناقد الأسلوبية؛ حيث تطرقنا فيه إلى قراءة كتاب الأسلوب والأسلوبية عند عبد السلام المسدي، وذلك تبعا لفصوله وأقسامه التي جاءت شارحة للمفاهيم والأصول، وقضية المصطلح، وكذلك علاقة هذا العلم بالموروث القديم من المنطق اليوناني عند أرسطو وأفلاطون، ثمّ المنطق البلاغي العربي إلى اللسانيات الحديثة، ثم تطرقنا إلى شرح ما ذهب إليه الأستاذ من أسس تصنيف الأسلوب والأسلوبية في قراءة النصوص والمنتجات العلمية والأدبية بين الجانب النظري والممارسة الإجرائية.

ثم انتهينا إلى الفصل الثالث، والذي جاء بمنهج تحليلي في تتبع آليات القراءة التطبيقية الأسلوبية عند الناقد من خلال نماذج من أعلام الأدب والفكر العربي؛ الشابي، المتنبي، الجاحظ، ابن خلدون. وجاء الفصل شارحا لآليات استنباط المنهج على مختلف أنماط الخطاب. وكأن الدكتور أراد أن يثبت بناء على التأسيس النظري شمولية المنهج الأسلوبي وكفاءته في قراءة أكثر من نمط خطابي واحد، وهذا عكس الكثير من الدراسات الأخرى لهذا المجال.

وبخصوص الدّراسات السّابقة، فقد عثرنا على الدراسات الآتية في هذا الموضوع:

في المجال الأسلوبي عامة، كانت أجدر دراسة بالذكر دراسة "السمات الأسلوبية في الخطاب الشعري" للباحث الجزائري لمحمد بن يحي، والتي جاءت أولا في أطروحة دكتوراه ثم في كتاب. بدأ الباحث مدونته بمقدمة مبينا فيها المنهج المتبع والهدف من الدراسة وموضوعها، ثمّ قدم الباحث نقدا للدراسات السابقة للأسلوبية ورأى فيها عيوبا. والغاية المتوخاة من مدونته هي البحث عن تلك البذور، وتلك السمات الأسلوبية خاصة مع قصور الدراسات التطبيقية.

ثم قدّم في الجانب التطبيقي تحليلا لقصيدة مالك بن الريب راثيا نفسه وهو على مشارف الموت. وطبق من خلالها منهج الأسلوبية الإحصائية وفق ما استوجبه النص. وكان مما خلص إليه، أنّ الدراسات الأسلوبية العربية على الرغم مما قطعته من أشواط على مستوى النظري، إلا أنها لا تزال تعاني قصورا في المستوى التطبيقي.

وتخصيصا عند المسدي، جاءت دراسة الباحث مرابطي نسيم "مسار النظرية النقدية عند عبد السلام المسدي"، وهي في مذكرة لنيل شهادة الماجستير. كانت الدراسة ضمن ما يسمي بنقد النقد. وسم الباحث الفصل التطبيقي فيها ب"القراءات الشعرية عند المسدي"، مبينا كيف أن القراءة النقدية تتحول إلى نظرية تأسيسية، معتمداً على آراء الناقد. وكانت الدراسة قيمة،

لكنها ركزت على الجوانب الشعرية، علما أن مدونة المسدي جاءت شارحة لأكثر من صنف خطابي ومنه النثر العلمي، كما هو الحال مع الجاحظ وابن خلدون.

كذلك عثرنا على مجموعة من المقالات العلمية في المجلات الوطنية الجزائرية. وهي متاحة على روابطها الإلكترونية في المنصة. ونكتفي بذكر ثلاثة منها:

- مقال الخطاب النقدي لدى عبد السلام المسدي. الباحث يوسف نغماري، 2017، مجلة التعليمية جامعة جيلالي اليابس سيدي بلعباس.
- النقد الأسلوبي عند عبد السلام المسدي. الباحثة زياني لينة. 2022، مجلة نتائج الفكر.

وجاءت بعض الدراسات الأخرى في الموضوع، وإن كانت في شكل مذكرات للماستر، لكنها عالجت الأسلوبية عند المسدي. ومنها نذكر:

- الجهود النقدية لعبد السلام المسدي الأدب وخطاب النقد أنموذجا: شيكوش، كنزة، جامعة المسيلة 2017. عالجت الدراسة كتاب الناقد، وهي دراسة في جوانب نقدية عرضها المسدي.
- التجربة النقدية عند عبد السلام المسدي: رويبح عدرة، جميلي فاتح، جامعة العربي بن مهيدي أم البواقي 2013. لم تحدد المذكرة أي مدونة للدراسة.

يبدو أنّ الدراسات التي تناولت هذا الموضوع ليست قليلة، لكنها لم تفصل هذه الإحاطة من الجوانب النظرية والتطبيقية في الكتابين كما عالجته دراستنا هذه.

أما بخصوص صعوبات الدّراسة، فقد واجهت الباحثة بعض الصعوبات الموضوعية، وهي كالآتي:

- صعوبة اللغة التي ينسج بها الدكتور عبد السلام المسدي كتاباته الأسلوبية؛ وهذا نظرا لزاده الوافر، وحسّه النقدي، وتمكنه الفكري في هذا المجال.

- دقة المباحث الأسلوبية نظرا لتداخلها مع اللسانيات والنقد والبلاغة، وغيرها من العلوم.
- صعوبة التّعامل مع الجانب الاصطلاحي لهذا الفرع اللساني والنقدي؛ نظرا لتشعب مباحثه، وخاصّة أنّ للمصطلح وظيفة منهجية وعلمية بالغة الأهمية في شرح وتوضيح المفاهيم.

ولكن بفضل الله وكرمه، ثمّ الجهود المشكورة لأستاذي المشرف، وتوجيهاته القيمة، خرجت الأطروحة في قالبها النهائي، راجين من المولى أن نكون قد وفقنا فيها.

الفصل الأول

الأسلوب والأسلوبية: مفاهيم وأسس عامة

تمهيد الفصل:

تمهيدا وتأسيسا منهجيا ونظريا للموضوع العام للأطروحة، قدمنا هذا الفصل للإحاطة بمفاهيم الأسلوب والأسلوبية؛ فالأسلوب كظاهرة لغوية شغلت الباحثين من تخصصات كثيرة، والأسلوبية كعلم جاء فهما لقضاياه، وشرحا لما يتعلق به، وبتحليله داخل الخطابات والنصوص المختلفة. ولما كان الأسلوب كلّ خطاب لغوي منجز، مشافهة وكتابة، ولما كانت الأسلوبية علم يتوسط بين البلاغة واللسانيات، جاء الفصل شاملا لكل ما يتيح شرحهما نظريا.

عالج الفصل ضمن عنوانه العام "الأسلوب والأسلوبية: مفاهيم وأسس نظرية" ثلاثة محاور أساسية؛ الأسلوب، الأسلوبية، الممارسات العربية المعاصرة للأسلوبية في النقد الأدبي. أما الأسلوب فمن حيث تعريفه لغة ثمّ اصطلاحا، إضافة إلى خصائصه، ومنها خاصية النظم والانتظام، وخاصية المنوال والقالب، والخاصية المطاطية والتّحول، وخاصية الاختيار (انتقاء). وغيرها من الخصائص التي استشفها واستنطقها العلماء منه، والتي تمكن الأسلوب من تأدية وظائف لغوية كثيرة.

أما الأسلوبية، فمن حيث مفهومها وتحديدها الاصطلاحي، ثم نشأتها وعلاقتها بالعلوم الأخرى كالبلاغة القديمة، والنقد، وكذلك اللسانيات، ثم أيضا ذكر أنواع الأسلوبية وأبرز وأشهر اتجاهاتها وأنواعها؛ الأسلوبية التّعبيرية (أسلوبية بالي)، الأسلوبية النفسية (الفردية)، الأسلوبية الإحصائية.

وأخيرا في محور الممارسات العربية المعاصرة للأسلوبية في النقد الأدبي، تطرق الفصل إلى المحاولات والجهود العربية في مجال النقد الأسلوبي. وإن كانت كثيرة وغير يسير الإحاطة بها، إلا أنّنا أخذنا منها عينات ونماذج فقط على سبيل إثبات توجه وطبيعة هذه الجهود، وكذلك تمهيدا لما هو عليه جهود الناقد عبد السلام المسدي الذي لا شكّ أنه من أشهر رواد وأعلام ورموز الأسلوبية العربية.

أولا- الأسلوب:

1- تعريف الأسلوب:

1-1- الأسلوب لغة:

بداية يعترف الدّارسون أنّ مصطلح الأسلوب لا يمكن أن يُعرف بكيفية مرضية[1]؛ فالأسلوب لفظ مشتق من أصل لاتيني ومعناه القلم. وهذا من حيث الدلالة الأولى للفظ[2]. ومن خلال ما سبق نرى صعوبة تحديد المفهوم الخاص بالأسلوب، وهذا رغم الاجتهادات، وما عرف به الأسلوب حديثا وقديما من مفهوم، وما حظي به من نظر.

وردت لفظة الأسلوب عند بطرس البستاني في قاموسه محيط المحيط بأنّها من: «سلبه يسلبه سلب سلبا، اختلسه»[3]. وورد عن ابن منظور كذلك، الأسلوب هو الطريق والمذهب، وهو من "سلبَ: سَلَبَهُ الشيء يسلبه سلْباً وسَلَباً واستلبه إيّاه،... والاستلابُ: الاختلاسُ، والسّلَبُ: ما يُسْلَبُ ... ويقال للسّطر من النخيل، أسلوبٌ وكلّ طريق ممتدٍّ فهو أسلوبٌ قال: الأسلوبُ: الطريق، والوجهُ، والمذهبُ، يقالُ: أنتم في أسلوب سوءٍ، ويُجمعَ أساليبَ والأسلوبُ: الطريق تأخذُ فيه، والأسلوبُ، بالضمّ: الفنُّ، يقالُ: أخذ فلانٌ في أساليبَ من القول؛ أيّ أفانين منه"[4]. جاء في هذا التعريف اللغوي معاني كثيرة للأسلوب؛ ومنها السلب والأخذ، وكذلك السبيل والطريق، وكذلك الوجه والتوجه والمذهب، وأيضا الفنّ؛ وربما

---

[1]- ينظر: يوسف أبو العدوس، البلاغة والأسلوبية، مقدمات عامة، دار الأهلية، الأردن، 1999، ط1، ص161.

[2]- ينظر: محمد أبي بكر بن عبد القادر الرازي، مختار الصّحاح، المؤسسة الحديثة للكتاب، طرابلس، لبنان، د (س، ط)، باب السّين (س ل أ)، ص266.

[3]- بطرس البستاني، محيط المحيط، دار الكتاب الجديد المتحدة، دار أويا للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 2006، ص291.

[4]- أبو الفضل جمال الدين، محمد بن مكرم بن منظور، لسان العرب، تح: يوسف البقاعي وآخرون، دار المتوسطية للنشر، الجمهورية التونسية، 2005، ط1، ج2، ص1859- 1860.

الأخير ينم على دهاء وفطنة العرب في وصفهم للفن والإبداع، وأنّ النظم من الشعر والخطابة وغيرها، من سبيل الأسلوب والتميز.

رأى الزّمخشري أنّ الأسلوب من "أسلوب فلان: طريقته وكلامه على أساليب حسنه، ومن المجاز: سلبُه فؤاده وعقله واستلبه، وهو مستلب العقل، وشجرةٌ سليبٌ: أخذ ورقها وثمرها، شجرٌ سلبٌ، وناقةٌ سلوبٌ: أخذوا ولدها، ونوقٌ سلائبٌ ويقال للمتكبّر: أنفه في أسلوب، إذا لم يلتفت يمنة ولا يسرة"[1]. ما نستشفه من المعاني السابقة للأسلوب، هو معنى الطريق، وربما جاء هذا المعنى في وصف طريقة ونسق الكلام. أما معنى الاستلاب، فقد ورد عاما عند ابن منظور، ثمّ خصّصه الزمخشري بالجانب المجازي أنّه سلب للفؤاد والعقل، ومنه لفت النظر والانتباه والتّشويق، وهذا كذلك من معاني الأسلوب، ومن ميزاته.

من خلال مقارنتنا بين التعريفين، نجدها تتفق مع اختلاف طفيف، ألا وهو إضافة بعض المعاني، مثل: الأسلوب هو الطريق والمذهب والوجه، وأخذ دلالة أخرى، وهي الفن والتأثير. ومنه يمكننا التأسيس لتعريف الأسلوب اصطلاحا من خلال ما ورد في كلام العرب ومعاجم اللغة من تحديدات وخصائص للأسلوب. خاصة أننا لا نكاد نرى في التعريفات الاصطلاحية أيّة معاني إضافية بغض النظر عن الميزات والاهتمامات النقدية الحديثة للأسلوب في جانبه الإجرائي.

وحين نتساءل عن ورود كلمة القلم في التعريفات السابقة للأسلوب، نجدها مفسرة عند الباحث يوسف وغليسي بأنّ القلم جاء وصفا للأسلوب من ثقافة أجنبية؛ فيقال الأسلوب (style) أو (stilus)، وهي "مثقب معدني يستخدم في الكتابة على الألواح المشمعة

[1]– محمود بن عمر جار الله الزمخشري، أساس البلاغة، تح: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، 1998، ط1، ج1، (سلأ– سلع)، ص468.

(المدهونة)"[1]، وهو شبيه بالقلم (stylo). وهذا يدل على كذلك على ارتباط الأسلوب بالكتابة، وإنما نتيجة المماثلة في الوسيلة. كما يشير إلى الترابط بين الحضارة العربية والغربية، ونهل العرب من الحضارات السابقة في هذا المجال اللغوي والفلسفي الذي يتعلق بالنظم والفنّ، وأصول النقد عموما.

وخلاصة فهمنا لمعنى الأسلوب في اللغة، أن يطلق على كلّ ما له علاقة بالتنظيم شكلا، والانتظام، ومنها الاتساق والانسجام. وأن يطلق كذلك على السطور وما يميزها من تتابع وتماثل وتشابه. وكون من معانيه القلم وغيرها، فربما هذا دلّ على جوانب الظهور في كلامنا أو تشكيلاتنا الفنية، خاصة أن من وظيفة الكتابة إظهار الأسلوب بالخط والقلم.

1-2- الأسلوب اصطلاحا:

إذا كان التعريف اللغوي للأسلوب قدم ملامح جلية عن الأسلوب، وأوضح مفاهيم وخصائص كثيرة، إلا أنّ المفهوم الاصطلاحي من لدن أهل الاختصاص عرف تذبذبا كبيرا، لا على مستوى تحديد هذه الظاهرة فحسب، وإنما على مستوى انتقاء الأنسب من التعاريف من مجموع وخلاصة ما اهتم به البلاغيون والفلاسفة قديما، وما اهتم به النقاد المعاصرون حديثا؛ ذلك أنّ الأسلوب حظي بتعريفات كثيرة.

تعريف الأسلوب بداية ليس حكرا على الأدب والنقد، بل شمل كل مناحي الحياة من مأكل ونمط معيشة؛ "فالأسلوب سمة عامة لكل شيء في الحياة، ولكل جماعة أسلوبها الخاص، ولكل فرد أسلوبه الخاص، ولكل نوع من أنواع الأدب المختلفة أسلوبه الخاص"[2]. فهذا تعريف عام وملمح شامل، يرى أنّ لكل شيء في الحياة أسلوبا وطريقة، ونظما وتميزا؛ فالأسلوب يشمل اللباس، نمط الأكل. كما أن مفهومه يمتد ويتسع، والأكل

[1]- يوسف وغليسي، إشكالية المصطلح في الخطاب النقدي العربي الجديد، الدار العربية للعلوم ناشرون (منشورات الاختلاف)، بيروت، لبنان، 2008، ط1، ص175.

[2]- يوسف أبو العدوس، الأسلوبية الرؤية والتطبيق، دار الميسرة، ط1، 2007، ص07.

والمعاش، والمسكن وترتيب أثاث البيت، وهلّم جرا، وكلها طرق وأساليب تختلف في قليل أو كثير من شخص إلى آخر، ومن بيئة إلى أخرى، وكلها أيضا طرق تعبّر عن ذات أصحابها وعن سلوكهم، وتمتسح بمسحة ثقافتهم وحضارتهم وعصرهم"[1]. فقد توسع صاحب التعريف أكثر، وجعل الأسلوب شاملا للحضارة وللثقافة والمجتمع.

ومصطلح الأسلوب هو ترجمة للمقابل الأجنبي style، وفيه معاني ومحددات كثيرة، وله تعريفات كثيرة، ومنها ما نقله بسام قطوس من تعريف اللألسوني شال بالي له بأنّه "التعبير عن وقائع حسية شعورية من خلال اللغة"[2]. وهذا التعريف ينظر إلى الأسلوب من زاوية اللغة، وربما نابغ من التّوجه اللغوي لصاحبه، لكن ارتباط الأسلوب المحتوى العاطفي في التعريف، قد يكون إشارة للفنّية التي يحملها الأسلوب في الأدب، وربّما إشارة إلى أنّ الأسلوب من يتيح كشف العواطف والملامح النفسية لصاحبه.

أما ميكائيل ريفاتير، فيعرّف الأسلوب بأنّه "كل شكل مكتوب فردي ذي مقصدية فردية"[3]، وهنا يقرّ بصفة الفردية للأسلوب، ومن هذا تسمية بعض اللغويين والنقاد الأسلوب بالرجل، وأنّ لكلّ إنسان طريقته في القول والكلام وحتى الكتابة.

ومن التعاريف الغربية كذلك للأسلوب، ما نجده عند الباحث بوفون buffon، والذي يرى: "الأسلوب هو الشخص نفسه"[4]. وهو تعريف معروف قد تداوله النقاد بالأسلوب هو الرجل. فالأسلوب تعبير عن شخصية صاحبة؛ بل هو انعكاس لها. كما أنّ الأسلوب

---

[1]– مختار حبّار، شعر أبي مدين التلمساني، (الرؤيا والتشكيل)، دراسة اتحاد كتاب العرب، دمشق، (د ط)، 2002، ص121.

[2]– بسام قطوس، مدخل إلى مناهج النقد المعاصر، دار الوفاء لدنيا الطباعة، الإسكندرية، مصر، ط1، 2004، ص109.

[3]– ميكائيل ريفاتير، معايير تحليل الأسلوب، تر: حميد لحميداني، دار النجاح، دار البيضاء، المغرب، ط1، 1993، ص19.

[4]– فيلي ساندرس، نحو نظرية أسلوبية لسانية، تر: خالد محمود جمعة، دار الفكر، دمشق، ط1، 2003، ص29.

معرف بالشخص، وهو من شهرة الإنسان، ولهذا نجد أنّ كثيرا من المبدعين رغم أنهم ماتوا منذ آلاف السنين إلا أن إبداعاتهم وأساليبهم لا تزال شاهدة عليهم. فالمبدع لا يموت، مادام سيبقى خالدا بأسلوبه.

أما أعلامنا العرب، فلا يختلف منظورهم عما سبق ذكره، فيعرف عبد الرحمان الحاج صالح رحمه الله الأسلوب بأنّه: "كيفية خاصة في استعمال اللغة وليس هو اللغة، وقولنا لغة الكاتب الفلاني هو مجرد مجاز"[1]. من هنا يظهر الفرق بين اللغة والأسلوب، وتحديد كل منهما ومعرفة مجاله؛ فاللغة تتّسم وتختص بعموم الإنتاج اللغوي. أما الأسلوب، فهو مجموع ما يميّز متكلما عن متكلم آخر أو كاتبا عن كاتب آخر من خلال استخدام خصائص لغوية قد لا نجدها عند غيره ولو نسبيا.

وفي تحديد الأسلوب، يميط عبد الملك مرتاض رحمه الله اللثام عن جدلية معنى الأسلوب، وهل هو طريقة ونمط الكتابة كما يرى بعض النقاد واللغويين؟ أم هو السمة الجمالية فيها؟ وحسب مرتاض هو "المظهر الجمالي الذي يمتد إلى اللغة في إفرادها"[2].

ثم يشرح هذا مفرقا بين اللغة والأسلوب: "فأما أحدهما فبحكم ماديته، وما فيه من قدرة عجيبة على التبليغ، أما الأخر، فبحكم طبيعة تركيبه، وما فيه من طاقة جمالية بديعة لا تنفذ"[3]. ثم يؤكد الناقد مرتاض صفة الخصوصية من سمات الأسلوب، ومدى ملازمة ذلك أيّ أسلوب مهما كان، بل أوجز التعريف فيه: "الأسلوب هو الطريقة التي يكتب الكاتب بها

---

[1]– عبد الرحمان حاج صالح، السماع اللغوي العلمي عند العرب ومفهوم الفصاحة، دار موفم للنشر، الجزائر، ط1، 2012، ص208.

[2]– عبد الملك مرتاض، الكتابة من موقع العدم، دار الغرب للنشر، الجزائر، دط، 2003، ص89 – 90.

[3]– المرجع نفسه، ص161.

الأدب"[1]. وعادة ما نسمي طريقة، تلك الاختيارات التي تشترك في ثبوت صفة خاصّة ومميزة.

والأسلوب عند بعض الباحثين ومنهم المسدي، هو انعكاس مباشر لفكر صاحبه، وأول ما يطلعنا في اعتماد التفكير الأسلوبي على المخاطب تعريف الأسلوب بأنه قِوام الكشف لنمط التفكير عند صاحبه. فارتباط الأسلوب بالفكر، يجعله أكثر ارتباطا بالإنسان، عكس اللغة التي قد تؤدي بعضها الآلة، أو تتصف الطبيعة وبعض الكائنات بشيء من التماثل والتشابه مع صوتها؛ لذلك كان الأسلوب خاصية بشرية بحته، تتجاوز البنية اللسانية إلى نمط تفكير[2].

وقد أشار المسدي خلال شرحه لمراحل نسج الأسلوب، أنّه في جوهره معان مرتبة قبل أن يكون ألفاظا منبثقة، وهو يتكون في العقل قبل أن يجري به اللسان، أو يجري به القلم، واللسان دليل المشافهة، والقلم دليل الكتابة والرّقن والخط، ومن ذلك كانت خاصية التسطير ملازمة لكل أسلوب. ويوافق هذا ما جاء عن بيفون (Buffon) في منظوره للأسلوب بأن المعاني وحدها هي المجسمة لجوهر الأسلوب، وهو ما نضفي على أفكارنا من نسق وحركة[3].

وتتأسّس فلسفة الأسلوب من هذا الجانب على أنّه تمثيل للذّات، وتجسيد لحضورها وكيانها، وإظهار لكلّ ما يميزها عن غيرها، ويصنع انتماءها. كما أنه له صفات ثلاث لا يخرج منها أيّ أسلوب مهما كانت وظيفته وأيّ كان مجاله، وهي تأثير ولفت الانتباه، وإقناع تؤديه العملية الحجاجية، وإمتاع تؤديه الوظيفة.

---

[1]– المرجع نفسه، ص164.

2– ينظر: أحمد الشايب، الأسلوب: دراسة بلاغية تحليلية لأصول الأساليب الأدبية، الجزائر، ط6، 1966، ص46.

3– المرجع نفسه، ص65.

وتصبّ جميع التعريفات في توجه واحد في المنظور للأسلوب، ويضيف لها الباحث دحو مامة سمّة الانزياح والعدول؛ فالأسلوب عنده "انحراف عن المعيار المألوف في نظم الكلام الإبداعي"[1]. ولا ريب أنّ هذا ما يصنع التميز عند المتكلم أو الكاتب.

تأسيسا من التعاريفات المقدّمة، نخلص إلى أنّ الأسلوب شكل من أشكال التعبير، وطريقة خاصة لإيصال المعارف والمشاعر والأحاسيس للمتلقي أو القارئ، بصورة تثير الانتباه من خلال الكتابة اللغوية. وهو يتصف بالظهور، والثبات، والخصوصية لكل فرد، سواء كان كاتبا أم متكلما، أم غير ذلك. غير أن مفاهيم الأسلوب السابقة، توحي باتساع خصائص هذه الظاهرة الأسلوبية. ونظرا لعلاقة هذه الخصائص بتيسير الاشتغال النقدي على أساليب النصوص والخطابات، وأفانين القول فيها، يجدر بنا وحريّ في هذا الموضوع، أن نقدّم مبحثا يشرح خصائص الأسلوب، وربما هذا على سبيل التوسعة في فهمه مع اختلاف الباحثين والنقاد فيه، لا على سبيل الإحاطة به.

2- خصائص الأسلوب:

هذه الخصائص التي سنقدمها للأسلوب، ستكون استنتاجا وخلاصة من التعاريف السابقة للأسلوب. وهي كما أشرنا كثيرة ومتشعبة، ومنها ما أشارت له الدراسات العربية القديمة، اللغوية منها والنقدية، ومنها ما أشارت له الدراسات الحديثة في جانبها النقدي واللساني كذلك. وقد كانت هذه الخصائص مدعاة للاهتمام بالأسلوب، وبعلمه الخاص المتجسد في الأسلوبية. ولا شك أنّ تشعب الأسلوب واتصافه بهذا الوصف، جاء نتيجة فيض الدراسات الكثيرة في مجاله، واستخراجها لمميزاته، وجاء كذلك نتيجة فرض الأسلوب كموضوع في الساحة النقدية والأدبية على السواء.

1- دحو مامة، الأسلوب والأسلوبية مفاهيم واتجاهات، مجلة النقد والدراسات الأدبية واللغوية، الجزائر، ع2، 2015، ص5.

ومن خصائص الأسلوب الكثيرة، سنختار ثمانية خاصية، نستشف كلّ خاصية منها من المنطلقات النظرية السابقة، كما يمكن استنتاج خصائص أخرى تضاف لها من خلال الملاحظة، خاصة أنّ الأسلوب يندرج ضمن اللغة المجسدة فعلا في الكلام، وهذا ما يجعل منه ظاهرة قابلة للوصف، عكس اللغة في جانبها الذهني المجرد.

2-1- الأسلوب وخاصية النظم والانتظام:

لا شكّ أنّ الأسلوب يتّسم بخاصية الانتظام أو ما يسمى ب "النظم". وقد جاء بهذا المفهوم الجاحظ، وقد قصد به حسن اختيار الكلمات وتناسقها مع بعضها البعض، وكذا الميزة الخاصة والمختلفة لكل تركيب، وأيضا الأثر الذي تتركه؛ بذلك "كان الجاحظ أول من أثار في كتابه (البيان والتبيين) فكرة تباين مستويات الأداء اللغوي؛ إذ يرجع هذا التباين إلى تفاضل الناس أنفسهم في طبقات... من الكلام الجزل والسخيف والمليح والحسن، والقبيح والسمّج، والخفيف والثقيل[1].

وبرزت فكرة النظم عند الجاحظ بمعنى النسق الخاص في التعبير، والطريقة المميزة في التراكيب؛ فلكل شخص أسلوبه وطريقته في الكلام، مع وجود تفاضل واختلاف بين الناس؛ فللشاب طريقة في الكلام، وللشيخ طريقة، وللمرأة طريقة، وللرجل طريقة وأسلوب. لقد "تحدث عن النظم بمعنى حسن اختيار اللفظة المفردة اختيارا موسيقيا يقوم على سلامة جرسها، واختيارا معجميا يقوم على ألفتها، واختيارا إيحائيا يقوم على الظلال التي يمكن أن يتركها استعمال الكلمة في النفس، وكذلك حسن التناسق بين الكلمات المتجاورة تآلفا وتناسقا"[2].

ويكون هذا الانتقاء حسب المقام، فلكل مقام مقال، حيث "تتشكل اللغة- أيّة لغة- من عدد هائل من المفردات والتّعابير والصيغ، إذا أراد شخص ما أن يعبر عن رأي أو موقف

[1]- ينظر: يوسف أبو العدوس، الأسلوبية الرؤية والتطبيق، ص11.

[2]- ينظر: المرجع نفسه، ص11.

أو شعور، فإنّه- لابد – سيختار أنسب المفردات في أنسب التّعابير ... وبهذا فالذي يحسن اختيار عباراته يكون ذا أسلوب"[1].

وقد عرفت هذه الخاصية كذلك بعد الجاحظ عند أعلام البلاغة، ومنهم عبد القاهر الجرجاني الذي أرجع الإعجاز في القرآن الكريم إلى النظم في أسلوبه، وطريقة تأليف الكلام، وهذا معروف في نظريات البلاغة العربية. وكذلك الأمر مع البيان العربي في شعره ونثره، لذلك اتخذ النقد المعاصر هذه الميزة تحت مسميات ومصطلحات أخرى ومنها مثلا الشعرية، والتي كانت تسمى قديما الصناعة في معايير النقد. بذلك يمكن الخلوص إلى أنّ أهم خاصية في الأسلوب هي في كونه نظما وانتظاما.

2-2- الأسلوب وخاصية المنوال والقالب:

سمى ابن خلدون الأسلوب بالمنوال أو القالب مبينا: "... إنّه عبارة عن المنوال الذي ينسج فيه التراكيب، أو القالب الذي يفرغ فيه"[2]. ويربط البعض هذا المنوال في الأسلوب بالإبداع؛ حيث "يتمثل الأسلوب في طريقة الكتابة الإبداعية باستخدام كفاءة إنشائية (Poétique) وأخرى ألسنية (Linguistique) وفق أسلوب كلّ كاتب"[3]. وهذه السّمة في الأسلوب تكسبه طابع الجمال والتنميق والزينة؛ أيّ "المظهر الجمالي الذي يمتد إلى اللغة في إفرادها، والكتابة في تركيبها، ليتولاهما بالزّينة والتّنميق والتّفريد والتّخصيص"[4].

وعلى هذا الرأي، تبلور تعريف الناقد الجزائري – عبد الملك مرتاض- للأسلوب؛ إذ يرى بانفراد كل شخص بأسلوب خاص، لكنه يضيف أنّه طريقة المبدع في الكتابة،

[1]- البكاري أخذاري، قراءة أسلوبية في قضى بعينيك للخنساء، رسالة ماجستير، ص13.

[2]- خلدون مقدمة العلامة ابن خلدون، دار إحياء التراث، بيروت، ط4، ص570 – 571.

[3]- عبد الملك مرتاض، الألغاز الشعبية الجزائرية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983، ص157.

[4]- عبد الملك مرتاض، في نظرية النقد، دار هومة، الجزائر، 2005، دط، ص161.

فالأسلوب في مفهومه، هو الطريقة، طريقة في الكتابة، ومذهب في التعبير عن الأفكار والمشاعر، ووجه من أوجه إفصاح الكاتب عن شخصيته المتميزة[1].

وبهذا يكون الأسلوب انعكاسا لشخصية المبدع المتميزة عن سواها، لذلك تختلف التعاريف لهذا المصطلح وتتباين. وقد اختزله بيفون تبعا لهذه الخاصية، الأسلوب هو الرّجل. ولعلّ هذه الصيغة التعميمية التي ينطوي عليها الأسلوب هي سبب شيوعه[2]. فالأسلوب هو طريقة وكيفية في الكتابة لكاتب ما أو لمجموعة كتاب وتتقارب التعاريف فيما بينها.

2-3- الأسلوب وخاصية الرّؤية أو الفكر:

يتعلق الأسلوب بجوانب نفسية وأخرى اجتماعية... ولا يتعلق فقط باللغة؛ بل جمع الأسلوب بين الجانب اللغوي والجانب النفسي؛ لأن هناك سبب نفسي لوجوده، وبين الجانب الاجتماعي، وذلك لتأثيره في المجتمع. كما أن المجتمع أحيانا هو سبب إيجاده، ويتعلق كل ذلك بالقصدية ونية المبدع.

كما قد جمعت مجموعة من تعاريف النقاد للأسلوب تحت قسمين بالاعتماد على رؤية الكاتب؛ ففي؛ القسم الأول "يكون الأسلوب فيه سمة أصليّة من سمات الفكر الفردي"[3]. وبهذا يثبت عياشي تأثره بمقولة بوفون. وممّن عرّفوا الأسلوب هناك شوبنهاور الذي قد قال عنه: "مظهر الفكر"[4]، بمعنى أن الأسلوب يعكس فكر وشخصية الإنسان؛ فمن خلال أسلوبه نعرفه؛ فالأسلوب انعكاس للروح؛ أي الأسلوب يعكس ما هو داخلي ومجهول.

---

[1]- مختار حبّار، شعر أبي مدين التلمساني، الرؤية والتشكيل، ص121.

[2]- منذر عياشي، الأسلوبية وتحليل الخطاب، مركز الإنماء الحضاري، دار المحبة، دمشق، دط، 2009، ص33.

[3]- المرجع السابق، ص34.

[4]- المرجع نفسه، ص34.

لقد رأى أصحاب هذا الاتجاه أن الأسلوب هو وسيلة لإيصال الأفكار. وهذه الرؤية قديمة عند البلاغيين. ومن هؤلاء نجد ستندال، فلوبير...، إنّ الأوّل (ستندال) "يضيف إلى فكرة ما الظروف الملائمة لإنتاج أثر من المفروض أن تحدثه هذه الفكرة"[1]. ارتبط الأسلوب حسب ستندال بـــدوافع الإبداع، وكذلك الأثر الذي يتركه الأسلوب في القارئ أو السامع، وكذلك الأثر الذي يتركه في القارئ.

عرف الأسلوب إذن، بأنه انعكاس لفكر صاحبه، وذلك بالاعتماد على ثلاث فرضيات: مصادرة المخاطِب؛ بمعنى أن المخاطَب يكيف نصه وأسلوبه حسب القارئ (المخاطِب)، مصادرة الخطاب، بمعنى الأسلوب موجود في ذاته (النص)، مصادرة (المخاطَب). وهذا التعريف موجود عند الناقد المسدي.

2-4- الأسلوب وخاصية الاختيار والانتقاء:

يرى بعض الباحثين أنّ الأسلوب اختيار (choice) أو انتقاء (selection). وبناءً عليه تقوم الدراسة الأسلوبية بتتبع طبيعة الاختيارات الخاصة بمنشئ معيّن لملاحظة أسلوبه الذي يمتاز به عن غيره من المنشئين[2]؛ فلكل واحد منا أسلوب معين يمتاز به عن غيره، وهو يتكون من مجموعة الاختيارات من اللغة.

وإذا أراد التأثير؛ فعليه بالانتقاء والاختيار، وهو "اختيار لغوي من بين بدائل متعدّدة؛ إذ أن الاختيار سرعان ما يحمل طابع صاحبه، ويشي بشخصيته، ويشير إلى خواصه"[3]؛ فالأسلوب اختيار ووسيلة أو أداة المبدع لا غير، إلا أنه كاشف لمبدعه. ومن التعاريف المتداولة للأسلوب عند النقاد العرب: "نعرّف الأسلوب بأنه الطريقة التي يستعملها الكاتب

[1]- المرجع نفسه، ص34.

[2]- يوسف أبو العدوس، الأسلوبية الرؤية والتطبيق، ص374.

[3]- جميل حمداوي، اتجاهات الأسلوبية، الألوكة، 2015، ط1، ص7.

في التعبير عن موقفه، والإبانة عن شخصيته الأدبيّة المتميّزة عن سواها، إذ يختار المفردات، ويصوغ العبارات، ويأتي بالمجاز والإيقاع المناسبين"[1].

ويرتبط الأسلوب عند الاختيار أساسا بالمقام؛ فلكل مقال مقام، "... وفي كتب البلاغة اليونانية القديمة، كان الأسلوب يعدُّ إحدى وسائل إقناع الجماهير، وكان يندرج تحت علم الخطابة وخاصّة الجزء الخاصّ باختيار الكلمات المناسبة لمقتضى الحال"[2]. ولازال الأسلوب أداة إقناع، حيث يظهر عند السياسي في الانتخابات، وعند الإمام في المنبر أثناء خطبة الجمعة مثلا لا لغرض إلا الإقناع، ويراعى في ذلك المقام.

يذهب الدارسون في تعريف الأسلوب بأنّ اختياره هو في حدّ ذاته إشكالية تأسيس له. "وقد توسع الباحثون في مناقشة هذا التعريف الذي يبدو إشكاليا في كثير من الأحيان، كما في تعريفات الأسلوب الأخرى من كونه انحرافا، وانزياحا... أو الأسلوب هو الرجل على حد قول بيفون"[3]. وبهذا يوجه وكما هو معروف، فقد اتفقت جلّ تعاريف الأسلوب في ربطه بالاختيار؛ إذ "ترى بعض المناهج الأسلوبية أنّ الأسلوب هو اختيار لغوي أو انتقاء لغوي يقوم به الكاتب لسمات وعناصر لغوية معينة بغرض التعبير عن موقف معين، وهو انتقاء نحوي؛ أيّ اختيار للغة بقواعدها الصوتية، والصرفية، والنحوية، والدلالية، ونظم الجمل لأداء موقف فكري معين"[4].

والأسلوب انتقاء يفرضه المقام كعملية مقنّنة تعتمد على قواعد النحو والبلاغة والصوتيات، ويظهر الاختيار على مستوى الأداة والكلمة. ومن هذا التأليف ينشأ الأسلوب "غير أن الاختيار يظهر تحققه في العنصرين الأوليين، وهما الأداة والكلمة، ويتضح

---

[1]- صلاح فضل، مناهج النقد المعاصر أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2002م، ص89.

[2]- المرجع نفسه، ص35.

3- يوسف أبو العدوس، الأسلوبية الرؤية والتطبيق، ص35.

4- موسى ربابعة، الأسلوبية، مفاهيمها وتجلياتها، دار الكندي، 2003، ط1، إلأردن، ص26.

[4]- صالح عطية، صالح مطر، في التطبيقات الأسلوبية، دار الكتب، دط، ص14.

التأليف ويظهر على مستوى الجملة"[1]. فهذا الانتقاء لا يكون عشوائيا، بل من صنع السياق والظروف، لأن أسلوب وطريقة الكلام مع الصديق تختلف عن طريقة الكلام مع المدير مثلا.

2-5- الأسلوب وخاصية التّضمن والتضمن:

معنى ذلك أن "كلمة الأسلوب كلمة مطاطية، يمكننا استعمالها عندما نتحدث عن عبارة قصيرة، أو عن قطعة كاملة، أو عن مجموع شعر الشاعر أو نثر الكاتب، ويمكن أن نشير إلى الألفاظ وطريقة ترتيبها (أسلوب سهل أو معقّد)..."[2]. يمكن أن نسمي عبارة أسلوبا كما يطلق على النص أو عمل أدبي كامل.

وثمة رؤية أخرى ترى أنّ في الأسلوب مفارقة departure أو انحرافا/ انزياحا عن نموذج آخر من القول"[3]. وإذا كان الأسلوب انحرافا، فمعنى ذلك أنه يشمل التعابير المجازية فقط، أما ما كان حقيقيا فهو ليس أسلوبا، فكيف يسمى يا ترى؟ لقد عرّج المسدي على تعريف الانزياح بالاعتماد على نقاد أمثال سبيتزر، تودوروف يعرف الثاني الانزياح على أنه "لحن مبرر"[4].

وهناك من يرى أنّ الأسلوب تضمن connotation، فكلّ سمة لغوية تتضمن في ذاتها قيمة أسلوبية معيّنة. وهذه القيمة قابلة للتغيّر بتغير البيئة التي توجد فيها، والموقف الذي تعبر عنه. وينشأ عن هذا القول عدم الاعتراف بوجود تعبير محايد وتعبير متأسلب؛ إذ كل سمة لغوية هي سمة أسلوبية"[5]، وهو رأي مناقض لمن قال بوجود تعبيرين (واحد متأسلب

1- أحمد درويش، دراسة الأسلوب بين المعاصرة والتراث، ص127.

2- يوسف أبو العدوس، البلاغة والأسلوبية، مقدمات عامة، ص167.

2- يوسف أبو العدوس، الأسلوبية الرؤية والتطبيق، ص37.

4- المرجع نفسه، ص102.

5- الأسلوب دراسة لغوية إحصائية، الدراسة الإحصائية للأسلوب: بحث في المفهوم والإجراء والوظيفة، ص106-107.

وآخر غير متأسلب). وهم يرون أن كل التعابير تحمل سمة أسلوبية؛ أيّ أن كل تعبير يتضمن أسلوبا معينا تتحكم فيه البيئة. وبهذا يمكن أن نقول: إنّ لكل مقام مقال وأسلوب خاص.

2-6- الأسلوب وخاصّية الإضافة والتّجديد:

لا شكّ أنّ هذه السّمة من أشهر خصائص الأسلوب، ذلك أنّها ترتبط بجانب التّجديد والفنّية والإبداع لكلّ نمط من المشافهة أو جنس من الكتابة. فالتجديد لا يحتاج منا كخاصية أن نشير له بمرجع أو بدراسات وأبحاث؛ فهو بديهي يتجدد مع تجدد الحياة، وشؤونها، خاصة أنّ الأسلوب يرتبط بتقلبات الحياة ومجالاتها، وهذا لكون الخطاب هو اللسان المعبر عنها، وعن حجاجيتها، وفنياتها، وكلّ ما له صلة كذلك بالإعلام والإخبار ومجالات الدعوة.

2-7- الأسلوب وخاصية الفن والبيان:

تميز هذه الخاصية الأسلوب وتلازمه في جانبه الإبداعي والأدبي خاصة. فإذا من اختصاصاتها ووظائفه الإبداع والإمتاع ولفت الانتباه موازاة مع الإقناع، فإنّ الفنية والبيان هي الخاصية الكفيلة والمسئولة في كل أسلوب على صناعة هذا الجانب. بل كثيرا من وظائف الأسلوب تتحدد من خلال وجودهما فيه؛ فلا يمكن أن تكون قصيدة شعرية بلا فنية في أسلوبها، يصنعها إيقاعها، وتنجسها ألفاظها وأبنيتها، وغير ذلك من صور الإبداع. ولا يمكن أيضا أن تكون خطابة تؤثر بالحجج بعيدا عن فنيات أسلوب الإلقاء، وما يرافقه من نبر وتنغيم، وسجع وجناس وغيرهما من صور البين، وهكذا الحال مع كل أسلوب.

ثانيا: الأسلوبية:

1- مفهوم الأسلوبية:

قدمت تعاريف كثيرة للأسلوبية، تتقارب حيناً، وتختلف أحياناً أخرى. فقد اختلفت التسميات والمسمىّ واحد. ومنها الأسلوبية، علم الأسلوب، الأسلوبيات... وهنا تطرح إشكالية المصطلح وهي إشكالية وجدت في الدراسات الغربية والعربية على حدّ سواء. فكلّ اتخذّ مبرراً لاتجاهه واختياره للتسمية، أو بالأحرى الاختيار الاصطلاحي. وربما تعددت المسميات لهذا العلم في كونه علما جديدا، وتخصّصا حديثا.

وقد ترجم المصطلح إلى الأسلوبية. ويرى سعد مصلوح أنّ ترجمة مصطلح stylistique هي الأسلوبيات، وتبرير هذا الاختيار هو أن لفظة الأسلوبيات "أوجز وأطوع في التصريف، كما أنه جاء في سنة السلف في صك المصطلحات الشبيهة بالرياضيات والطبيعيات؛ ولأنها تتسق بهذا المبنى مع مصطلح اللسانيات والصوتيات[1]. غير أن التقارب في المصطلح لا يؤدي إلى غموض منهجي ما دام المفهوم فيها واضحا.

أما مفهوم ومعنى الأسلوبية، فبداية لا نحتاج إلى تعريف لغوي؛ ذلك أنّ من البديهي أنها تتصل بالأسلوب، وهي امتداد له، وهي علم كما أشرنا سابقا لكل ما يتعلق به، ولكل ما يتصف به الأسلوب من ميزات وخصائص. لذلك فلسنا على صواب منهجي أو منطقي إذا قلنا بأن الأسلوبية تحتاج كمفهوم ومصطلح إلى تأسيس تعريفي لغوي ما دامها مشتقة من الأسلوب، وقد عرفنا معانيه اللغوية مع المبحث الأول.

وقد اختلفت مفاهيم الأسلوبية وتنوعت بتنوّع ينابيعها؛ فهي علم من خلاصة منابع عديدة من البلاغة واللسانيات خاصة. وقد تضاربت آراء النقاد في تحديد ماهيتها وحصر اتجاهاتها، لذا يصعب تقديم مفهوم دقيق؛ لأنها كما توصف «عملية محسوسة تظهر في

1- ينظر: سعد مصلوح، مشكل العلاقة بين البلاغة العربية والأسلوبيات اللسانية، كتاب النادي الثقافي، جدة السعودية، 1990، ع59، ص868،821.

كامل أشكال الممارسة»[1]؛ فلا يمكن أن يخلو مجال من مجالات الحياة من النمط والأسلوب والتّميز.

وهي في أبسط رؤية لها: «علم لغوي حديث يبحث في الوسائل اللغوية التي تكسب الخطاب العادي أو الأدبي خصائصه التعبيرية والشعرية فتميزه عن غيره»[2]. فإذا كان الأسلوب خاصية في الكلام، فإنّ الأسلوبية علم يهتم باكتشاف مواطن هذا الخاصية، لذلك كان الاشتغال المصطلحي في النقد من خلال مصطلح الأسلوبية. يرى عبد السلام المسدي بأنّها" علم لساني يعنى بدراسة مجال التصرف في حدود القواعد البنيوية لانتظام جهاز اللغة"[3]. ونفس الشيء بالنسبة للتعريف السابق، غير أنّ عبد السلام المسدي رغم أنّ له جهودا نقدية كثيرة، إلا أنّه يعترف للسانيات بفضل الأسلوبية فيعرفها علم لساني قبل أن تكون منهجا نقديا، ووظيفتها انتظام اللغة، والمقصود بها هنا اللغة المنتجة في الكلام والكتابة، وليس التعريف الذهني للغة.

والأسلوبية حسب الناقد الجزائري يوسف وغليسي، هي "تطبيق المعرفة الألسنية lingustic Knowledge في دراسة الأسلوب"[4]. فهذا التعريف يعرف الأسلوبية في جانبها الإجرائي؛ وكأنها علم تطبيقي محض يخلو من جوانب نظرية، إذ كلمة تطبيق تؤسس لفكرة أن الأسلوبية تنقل الجوانب الأسلوبية من جانبها اللساني إلى استثمارها في تحليل الخطابات والنصوص.

[1]– جوزيف ميشال شريم، دليل الدراسات الأسلوبية، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، لبنان، ط2، 1867، ص37.

[2]– عدنان بن ذريل، اللغة والأسلوب، منشورات اتحاد الكتاب العربي، دمشق، ط1، 1980، ص140.

[3]– عبد السلام المسدي، الأسلوب والأسلوبية، الدار العربية للكتاب، ليبيا، تونس، ط3، دس، ص56.

[4]– يوسف وغليسي، إشكالية المصطلح في الخطاب النقدي العربي الجديد، ص175.

ومن تعريفات الأسلوبية عنده كذلك: "هي دراسة الأسلوب في مختلف تجلياته الصوتية، والمقطعية، والدلالية، والتركيبية والتداولية"[1]. وهذا التحديد أقرب إلى شمولية الأسلوبية، واعتبارها علما. ومعنى ذلك أنّ الدراسة الأسلوبية تشمل جميع الجوانب والمستويات (نحوي، صوتي، صرفي، دلالي. فهي من اهتمامات المبدعين، ومن موضوعات النصوص الإبداعية. وبهذا تتم عملية الغربلة.

كما يعرفها محمد عبد المطلب: "الأسلوبية تعنى بالجانب العاطفي في الظاهرة اللغوية، أو ما يسميه ج كوهين J. Cohen بالانتهاك"[2]. وهذا التعريف وإن كان آخذا بتيمة من الناقد جون كوهين في النظر للأسلوبية، إلا أنه حصر الأسلوبية في مجال الاشتغال على الجوانب العاطفية الوجدانية في الأسلوب، بعيدا عن أيّ سياقات ومقاربات أخرى. وبهذا يمكن القول إنّ الأسلوبية قد تدور في مجال يحوي اللغة التلقائية من لغة الخطاب اليومي، ولغة الإبداع. كما أشار النقاد الغرب إلى قضية أسلوبية هامة، وهي (المفاجأة الأسلوبية) معرفا إياها جاكبسون بقوله: "تولد اللامنتظر من خلال المنتظر"[3]. وهو ما يعرف- في نظرنا- بالخروج عن المألوف.

وإذا كان تعريف الأسلوب في محصلته "هيئة تحصل عن التأليفات المعنوية، والنظم:هيئة تحصل عن التأليفات اللفظية"[4]، فإنّ تعريف الأسلوبية من جهتها هي "طريقة نوعية لدراسة الأعمال الأدبية من حيث أسلوبها؛ أي النموذج الخاص الذي تصاغ فيه اللغة وتستخدم"[5]. فالأول كائن في ذاته من حيث النشأة من المتكلم، أما الثانية، فهي علم

---

[1]- المرجع نفسه، ص07.

2- محمد عبد المطلب، البلاغة والأسلوبية، ص201.

3- عبد السلام المسدي، الأسلوبية والأسلوب، ص86.

[4]- عبد العزيز أبو سريع ياسين، دراسة الأسلوب في التراث البلاغي، مطبعة السعادة، ط1،1991، ص11.

[5] - رامي علي أبو عايشة، اتجاهات الدرس الأسلوبي، مجلة فصول، (1980،2005)، دار ابن الجوزي، عمان، 2010، ط1، ص57.

وبحث ودراسة وتنقيب، لذا فهي أحق أن تكون منهجا يبحث في مبررات وجماليات اختيار الأول.

ومهما تأرجحت التعريفات بين المنظور اللغوي اللساني كما رأينا وبين المنظور النقدي والأدبي، إلا أنّ وظيفة الأسلوبية ومكانتها تحددت أكثر في المجال الأدبي والخطاب النقدي؛ فهي كما يراها عامر رضا «علم يهتم بتشكيل جمالية الخطابات الأدبية بوصفها حدثا لغويا هاما يظهر في شكل الكلام وصياغته»[1]. وفي هذا التعريف، ربط للأسلوبية بالجانب الجمالي والفني من الكلام.

2- نشأة وميلاد الأسلوبية:

أما عن نشأة الأسلوبية؛ فقد أجمع النقاد والدارسون بأنّ مصطلح الأسلوبية ليس بمصطلح جديد، فله جذور تمتد للحضارة اليونانية، هذه الحضارة التي تطرقت له وأرست فيه أسسا وقواعدا، فالأسلوبية «ولدت في اليونان وكانت عبارة عن فن يستخدم لتأليف خطاب يلقى على الخشبة أو على المنبر»[2]. ولفظة أسلوب مشتقة من الكلمة اللاتينية (Stilus). وهي تطلق بمعنى ما يستخدم في الكتابة قديما والنقش والرسم، ثمّ انتقل معناها مجازا إلى كلّ ما يتعلّق بطريقة الكتابة[3].

من مؤكد القول، - ولا خلاف في هذا بين الباحثين- أنّ (شارل بالي-1865) charle bally (1947 هو مؤسّس الأسلوبية. وهو أول من بحث فيها ضمن علم الأسلوب في فرنسا. وبهذا كان هذا العلم الفتي ابن البيئة الفرنسية. و"يقصد بالأسلوبية (stylistique)

[1]- عامر رضا، المناهج النقدية المعاصرة ومشكلاتها، مجلة البحوث والدراسات الإنسانية، جامعة سكيكدة، الجزائر، مج1، ع14، ص46.

[2]- بيير جيرو، الأسلوبية، تر: منذر عياشي، دار الحاسوب للطباعة، الإسكندرية، دط، 1994، ص18.

[3]- ينظر: محمد عزام، الأسلوبية منهجيا نقديا، منشورات وزارة الثقافة، مصر، ط1، 1989، ص145.

دراسة الأسلوب دراسة علميّة في مختلف تمثلاته اللسانية، والبنيوية، والسيمائية، والهيرمونيطيقيّة"[1].

وخلال الحديث عن الإرهاصات الأولى، وجدلية التأسيس للأسلوبية، من النقاد من رأى أنّ الأسلوبية نشأت بعد موت البلاغة التقليدية، والتي كانت معيارية تعتمد على قواعد صارمة؛ إذ ظهرت الأسلوبية – تاريخياً – في أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، وهذا على أنقاض البلاغة التقليدية التي استنفدت إمكانياتها التعليمية؛ فتحجّرت مقاييسها المعيارية، ثمّ أصبحت آفاقها المستقبلية مسدودة، لذلك أعلن كثير من الدارسين موتها، كما فعل مؤخراً الناقد السعودي عبد الله الغذامي[2]. وقد تحدث عن هذا في مؤلفه الموسوم "النقد الثقافي: قراءة على الأنساق الثقافية الغربية". وفيه تناول جانب موت البلاغة التقليدية، وميلاد بلاغة علمية جديدة (الأسلوبية).

أماّ عن المدة التي تمتد بين ظهور مصطلح الأسلوب le style والأسلوبية stylistique، فهي تعادل الخمس سنوات، وهذا ما تصرّح به القواميس التاريخية الفرنسية؛ إذ " تصعّد بالأول منهما إلى بداية القرن الخامس عشر وبالثاني منهما بداية القرن العشرين"[3]. يجمع الدارسون: "أن مصطلح (الأسلوبية) لم يظهر إلاّ في بداية القرن العشرين مع ظهور الدراسات اللغوية الحديثة، التي يذكر منها ما قدّمته مدرسة عالم اللغة السويسري (فرديناند دو سوسيور) التي ضمت مجموعة من اللغويين الفرنسيين ..."[4].

كما رأت المدرسة الديسوسيرية أنّ اللغة من صنع الإنسان، وليست مادة جامدة، بهذا الأسلوب هو الشخص ذاته؛ إذ يتكون نتيجة ظروف نفسية واجتماعية"، فرفضت بذلك

1- جميل حمداوي، اتجاهات الأسلوبية، ص06.

2- محمد عبد المنعم خفاجي وآخرون، الأسلوبية والبيان العربي، ص8.

3- أحمد درويش، الأسلوب والأسلوبية، ص84.

4- محمد عبد المنعم خفاجي وآخرون، الأسلوبية والبيان العربي، ص12-13.

المدرسة اعتبار اللغة جوهرا ماديا خاضعا لقوانين العالم الطبيعي الثابتة، لأنها خلق إنساني، ونتاج للروح البشري، تتميّز بدورها كأداة للتواصل، ونظام من الرموز المخصصة لنقل الفكر، فهي مادة صوتية، لكنها ذات أصل نفسي واجتماعي"[1].

إذن كان ميلاد هذا المنهج كعلم على يدّ تلميذ دو سوسير شال بالي الذي يعدّ "المؤسس الأول لعلم الأسلوبية في العصر الحديث"[2]. فقد أجمع النقاد الغربيون على أن بالي هو من فتح الطريق لولوج الأسلوبية عالم النقد، فاسحا بذلك المجال للكثير من الدّراسات والأبحاث النقدية التي عملت على تمهيد الطريق لأكثر المناهج النسقية غموضا واشتباكا.

وبناء على هذا الوافد الجديد، يرى بعض الدارسين أن علم الأسلوب نوعان: علم أسلوب التعبير، وعلم الأسلوب الفردي. والفرق طفيف بينهما؛ فالأول يدرس اللغة في ذاتها، أما الثاني فيربطها بعلاقة مع المتحدث. وعلم أسلوب التعبير لا يخرج عن نطاق اللغة ولا يتعدّى وقائعها في حدّ ذاتها، أماّ علم الأسلوب الفردي، فهو يدرس نفس هذا التعبير في علاقته بالأشخاص المتحدّثين به الأول، ويعتد بالأبنية اللغوية ووظائفها داخل النظام اللغوي؛ أي أنه وصفي بحت، والثاني يحدد بواعثها وأسبابها، أيّ توليدي يهتم بالنتائج، ويتوقف على علم الدلالة ودراسة المعاني في ذاتها، والثاني يعني بالمقاصد ويرتبط بالنقد الأدبي"[3]. وهو ربما إجابة عن سؤال طرحناه على أنفسنا سابقا! وهو تمحور الأسلوبية حول الأسلوب الإبداعيّ.

ثمّ ترعرعت الأسلوبية باعتبارها بلاغة علمية جديدة في أحضان الشكلانية الروسية، والنقد الجديد؛ فاستلهمت تصوّرات الشعرية (poétique)، ثمّ تمثلت مفاهيم اللسانيات بمختلف مدارسها، ثمّ استفادت مؤخرا من النظريات التداولية، ثم انتشرت في مختلف

[1]– صلاح فضل، علم الأسلوب، ص10.

[2]– منذر عياشي، الأسلوبية وتحليل الخطاب، مركز الإنماء الحضاري، حلب، سوريا، ط1، 2002، ص29.

[3]– صلاح فضل، علم الأسلوب، ص12.

الدول الغربية، كفرنسا، وروسيا، وألمانيا، وإيطاليا، وبريطانيا، وحتى الولايات المتحدة الأمريكية.

وقد شهد الغرب أربع أسلوبيات من المؤلف إلى النص (النسق)، ثمّ أسلوبية القارئ إلى أسلوبية السياق، ومن يتبّع تاريخ الأسلوبية الغربية، فسيجدها قد مرّت بمراحل عدّة: مرحلة أسلوبية المؤلف أو الكاتب، مصداقاً لما قاله بيفون: (الأسلوب هو الرجل نفسه)، ومرحلة أسلوبية النص التي تبلورت مع الأسلوبية البنيوية والسيمائية، ومرحلة أسلوبية القارئ مع ميشيل ريفاتير (M.rifaterre) واليوم يمكن الحديث عن أسلوبية السّياق والمقام مع نظرية أفعال الكلام وتصوّرات التداولية. وكانت تهتم الأسلوبية في بدايتها بالمبدع، ثمّ انتقلت إلى النسق، ثم اهتمت بالقارئ، ثم بالسياق، إذ يمكن تمييز مراحل جاءت بها الأسلوبية في الغرب، وهي: مرحلة المؤلف، ومرحلة النصّ، ومرحلة القارئ، ومرحلة السياق التداولي[1].

وبهذا انتقلت الأسلوبية من كونها نسقية إلى سياقية. غير أن هذا الكلام نسبي على مستوى التطبيق؛ فلا يمكن تصنيف هذا المنهج والمقاربة التي تشتغل على داخلية النص بأنها ضمن الاهتمامات النقدية لما هو خارج عنها.

أما عن جهود العرب في تأسيس هذا العلم، فلم يمرّ علم الأسلوب تاريخا دون أثر لهم فيه؛ بل كان من العلوم المتداولة عندهم، وخاض في غماره نقادنا القدامى، ودرسوه وألفوا العديد من الكتب فـــي موضوعه، ف" علم الأسلوب ذو نسب عريق عندنا لأنّ أصوله ترجع إلى علوم البلاغة"[2]. ويرتبط هذا العلم عربيا بالبلاغة وما حققته من كشف واكتشاف لفنون الخطاب وطريقة انتظامه ونسجه. خاصة أنهما يشتركان في الجوانب الفنية للنص، فالبلاغة والأسلوبية سيان في هذا الجانب.

---

[1]– جميل حمداوي، اتجاهات الأسلوبية، ص8.

[2]– يوسف أبو العدوس، الأسلوبية الرؤية والتطبيق، دار المسيرة، ط1، عمان، الأردن، 2007، ص62.

لذلك انتقلت الأسلوبية بعد هذا الشوط إلى الدول العربية. وهذا من خلال ممارسة الترجمة والمثاقفة والدّرس الجامعي. وإن كان للعرب القدامى في الحقيقة أسلوبية متميزة أصلية سبقت بقرون كثيرة الأسلوبية الغربية، إلاّ أنّ الأسلوبية العربية الحديثة والمعاصرة تتسم بالنزعة التوفيقية بين الأسلوبية التراثية والأسلوبية الغربية المعاصرة[1]. لكن البلاغة العربية كانت متميزة عمّا عرفت به الأسلوبية الغربية في بعض جوانبها.

وبفضل أعمال وجهود مجموعة من نقاد المشرق والمغرب، اتسعت مساحة الأسلوبية تنظيرا وتطبيقا، ومنهم على سبيل التوضيح ما ذكرهم يوسف وغليسي في حديثه عن أعلامها في الوطن العربي: "عبد السلام المسدي وشكري عياد وجوزيف ميشال شريم، وعدنان بن ذريل ولطفي عبد البديع وصلاح فضل ومحمد عبد المطلب ومنذر عياشي، وبسام بركة، وعبد الملك مرتاض وحميد الحميداني وبعض الأسماء الجزائرية الصاعدة.. نور الدين السد، عبد الحميد بوزينة وعلي ملاحي، ورابح بوحوش"[2]. وغيرها العديد من الدراسات التي اهتمت بدراسة الأسلوب والأسلوبية وتبيان علاقاتها مع كل من اللسانيات والبلاغة.

3- علاقة الأسلوبية بالعلوم اللغوية الأخرى:

3-1- علاقة الأسلوبية بالبلاغة القديمة:

نعمد في هذا المبحث المختصر بيان علاقة ثلاثة علوم من خلاصة العلوم اللغوية بالأسلوبية؛ وهي اللسانيات والبلاغة، وقد أدرك كل دارس لها التقارب بين هاته العلوم، وقد بينا في مبحث نشأة الأسلوبية شيئا من هذا، ولكن ما نضيفه هنا، هو لتوضيح مجال اشتغال المنهج الأسلوبي بإجراءاته داخل النص.

[1]- جميل حمداوي، اتجاهات الأسلوبية، ص09.

[2] – ينظر: يوسف وغليسي، مناهج النقد الأدبي، ص82.

بداية الفارق بين الأسلوبية والبلاغة القديمة، أنّ الأولى "تهتمّ بوصف الأسلوب بنية ودلالة ومقصديّة؛ ويعني هذا أنها تختلف عن البلاغة الكلاسيكية ذات الطابع المعياري التعليمي، والتي كانت تهتم بالكتابة والخلق والإبداع، وتجويد الأسلوب بياناً ودلالة وسياقا وزخرفة، وتقدّم للكاتب الناشئ مجموعة من الوصفات الجاهزة في عملية الكتابة، تنميق الأسلوب بلاغة وفصاحة وتأثيراً"[1]. فما ميز البلاغة عن الأسلوبية أن الأولى تتضمن قواعد جاهزة على المبدع أن يطبقها، وهي بمثابة تقنين للغة. كما أن للأسلوبية أهداف واهتمامات تجاوزت الكثير من طرح البلاغة الفني.

وإذا كانت البلاغة تركز على النص فقط؛ فالأسلوبية تركز على الإبداع زيادة عليها، ف"تهتمُّ باستكشاف خصائص الأسلوب الأدبي وغير الأدبي مع تبيان آثار كل ذلك في المتلقي أو القارئ ذهنياً ووجدانياً، ويعني هذا كلّه أنّ الأسلوبية تهتمُّ بالأجناس الأدبية وصيغ تأليف النصوص والتركيز على الأساليب اللغوية الخاصة لدى مبدع ما"[2].

بهذا التصور، يهتم الناقد الأسلوبي بأسلوب المبدع وباللغة الأدبية، "كما تهتم الأسلوبية باللغة الأدبية وتعني بعطائها التعبيري"[3]. فتولي الأسلوبية اهتماما للنصوص الإبداعية والأجناس، كما تحاول التمييز بين الأساليب الحقيقية والمجازية، وكذا التمييز بين ما هو أدبي وما كان عكس ذلك. كما تسعى إلى معرفة مدى انعكاس شخصية المبدع وظروفه في نظمه. وأيضا تهتم بنسق النص، ولكن دون إبعاد الجانب النفسي والاجتماعي. ومن هنا يمكن التساؤل هل الأسلوبية تهتم فقط بالنصوص الإبداعية كما تبحث البلاغة أم بجميعها خلافا لذلك؟

---

[1]– جميل حمداوي، اتجاهات أسلوبية، ص6–7.

[2]– المرجع نفسه، ص07.

[3]– بير غيرو، الأسلوبية، تر: منذر عياشي، مركز الإنماء الحضاري، حلب، سوريا، ص17.

وموضوع الأسلوبية هو الأسلوب، ولكن تغفل قضايا بلاغية أخرى كان للبلاغة تركيز عليها، ومنها قضية الانزياح، الإيحاء، ثنائية اللفظ والمعنى، وهي قضايا جوهرية في كل نص. وقد يتساءل الدارس عن أهم قضية يهتم بها الأسلوبي؛ فهو يُعْنَى بأثر الأسلوب في القارئ (المتلقي)؛ لأنّ "الأسلوبية ركّزت بشكل أساسي على الأثر الذي تتركه اللغة في الملتقي"[1]، وسعت إلى دراسة النص في ذاته بمعنى التركيز على نسق النص فقط. وهي تشبه اللسانيات وتستمد منها في دراسة النص كبنية مغلقة؛ فقد "ارتبط الأسلوب ارتباطاً وثيقاً بالدراسات اللغوية التي قامت على يد العالم اللغوي دوسوسير من خلال التفريق بين اللغة langue والكلام parole فالبلاغة"[2].

أشار عبد السلام المسدي إلى علاقة البلاغة بالأسلوبية على شكل طرح فلسفي، "أما الأسلوبية والبلاغة كمتصورين فكريين فتمثلان شحنتين متنافرتين متصادمتين لا يستقيم لهما تواجد آني. وإذا تبنينا مسلمات الباحثين والمنظرين وجدناها تقرر أن الأسلوبية وليدة البلاغة ووريثها الشرعي"[3]. وليثبت صحة رأيه، استدل بأقوال النقاد الغرب، ثم يقول: "فالأسلوبية امتداد للبلاغة ونفي لها في نفس الوقت، هي لها بمثابة حبل التواصل وخط القطيعة في نفس الوقت أيضا"[4]. إن الأسلوبية "كانت وثيقة الصلة بالبلاغة حتى ظن أنها بديلها والوريث الشرعي لها، وقد وضعت البلاغة وسائلها وأدواتها تحت تصرف الأسلوبية وطوع أوامرها"[5].

أما عن وجه الاختلاف بين البلاغة والأسلوبية، فقد لخصها في نقاط، مبينا هدف كل منهما، وأنّ البلاغة علم "معياري يرسل الأحكام التقييمية ويرمي إلى (تعليم) مادته

1- موسى ربابعة، الأسلوبية مفاهيمها وتجلياتها، ص07.

2- المرجع نفسه، ص9.

3- عبد السلام المسدي، الأسلوبية والأسلوب، ص42.

4- المرجع نفسه، ص51.

5- رابح بن خوية، مقدمة في الأسلوبية، ص85.

وموضوعه: بلاغة البيان، بينما تنفي الأسلوبية عن نفسها كل معيارية وتعزف عن إرسال الأحكام التقييمية بالمدح أو التهجين ولا تسعى إلى غاية تعليمية البتة"[1]. ويرى بسام قطوس أن الأسلوبية لا تقوم مقام البلاغة. أما المسدي فله رأي مخالف-بين هذا وذاك- فهو جمع بين الرأيين السابقين: "الأسلوبية امتداد للبلاغة ونفي لها في نفس الوقت"[2].

يبدو من خلال ما سبق، أنّ العلمان يشتركان في كون الأسلوبية وريثة للبلاغة، لكن لهما ثغرة وانتقاد تم توجيهه نحوهما، وهو السياق وقصور نظرهما إليه، وضعف اهتمامهما به؛ فتركيز الأسلوبية على نسق النص مثلما صرحت به أطروحاتها النظرية، وهذا يبين ابتعادها عن الاهتمام بالسياق. أما البلاغة؛ فلم يكن إهمالها له كليا، وذلك في بعض تأسيساتها النظرية، ومنها ملاءمة الكلام مقتضى الحال.

3-2- علاقة الأسلوبية باللسانيات الحديثة:

عرج الباحث رابح بوحوش في مقاله الموسوم "الخطاب والخطاب الأدبي وثورته اللغوية على ضوء اللسانيات وعلم النص" إلى علاقة اللسانيات بالأسلوبية. معرّفا كل علم على حدا؛ فاللسانيات هي "العلم الصارم الذي يدرس اللغة دراسة علمية، والقصد هو علم اللغة أو دراسة اللغة في مستوياتها النحوية والصرفية والعروضية"[3]. وغيرها من المجالات. أما الأسلوبية، "فيوحي استخدامه باصطناع منهجية صارمة في دراسة الظاهرة الأدبية وعدم خضوع النص الأدبي عموما، والخطاب خصوصا، للأحكام المعيارية والذوقية، وهو يهدف إلى دراسة علمية واقتحام عالم الذوق، وكشف سر ضروب الانفعال

1- عبد السلام المسدي، الأسلوبية والأسلوب، ص52- 53.

2- بسام قطوس، المدخل إلى مناهج النقد المعاصر، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، ط1، 2006.

3- عبد القادر شرشار، النص الأدبي بين الأسلوبية والخطاب النقدي الحديث، الملتقى العلمي الأول لدراسة إشكالية المنهج في النقد الأدبي الجزائري الحديث ديسمبر 1999، المركز الجامعي بسعيدة، دائرة اللغة والأدب العربي، ص89،

التي يخلقها الأثر الأدبي في متقليه، غير أن القصد لا يعدو أن يكون إلا بلاغة أو دراسة للأسلوب الفردي"[1]. وهنا يشير إلى أنّ اللسانيات لها مزية إذكاء النقد بالمنهجية.

وأشار الناقد نور الدين السد في كتابه إلى علاقة اتصال وترابط تجمع بين هذين العلمين، فالأسلوبية استفادت من اللسانيات في "تحديد قدرة المتكلم على استعمال الأصوات للدلالة العادية أو للدلالة الفنية"[2]، والأسلوبية تشارك اللسانيات موضوعها في معرفة طبيعة النظم الخاصة بالقوانين التي تشكل اللغات الطبيعية، واكتشاف النقاط التي يفترق بها القوانين من غيرها في قوانين النظم الأخرى.

والأسلوبية تشترك مع اللسانيات في جعل اللغة محور الدراسة اللغوية؛ فهي" ترتبط باللسانيات ارتباطا وثيقا، فإنها لا تتميز بمناهج تخصها، فالحديث عن المناهج الأسلوبية هو الوقت نفسه حديث عن المناهج اللسانية"[3]. وإذا كانت هذه الصلة للأسلوبية متينة مع اللسانيات، وإذا كان هذا المنظور يجعلها بداية توجها لسانيا واسعا، فإنّه بالمقابل، لا ينفي كونها منهجا نقديا قويما.

يمكن أن يكون النقد هو المجال والميدان التطبيقي الذي أظهر علاقة اللسانيات بالأسلوبية؛ فحين يأخذ الناقد في قراءته الأسلوبية أدوات لسانية كالثنائيات وعلاقة الدال بالمدلول، والعلاقات التركيبية والاستبدالية، والتركيز على بنية اللغة عموما. كل هذه الأدوات اللسانية التي يوظفها النقد اللساني. وعن هذه العلاقة يصف أحمد درويش أنّ

---

[1]– المرجع نفسه، ص90.

[2]– رابح بوحوش، الخطاب والخطاب الأدبي وثورته اللغوية على ضوء اللسانيات وعلم النص، مجلة معهد اللغة العربية وآدابها، جامعة الجزائر،1997، ص170.

3– نور الدين السد، الأسلوبية وتحليل الخطاب، دار هومة، الجزائر، دط، ج1، دس، ص11.

"الأسلوبية في نتاج تلاقح بين علم اللسان والنقد الأدبي، مشيراً إلى انفصالها عنه (أي علم اللسان) واستقلالها في مناهج النقد بوصفها علماً قائماً بذاته"[1].

3-3 – علاقة الأسلوبية بالنقد الأدبي:

للأسلوبية فضل في إثراء الممارسة النقدية، لأنّها نتاج تداخل معرفي كبير؛ فهي "أحد مجالات نقد الأدب اعتمادا على بنيته اللغوية دون ما عداها من مؤثرات اجتماعية أو سياسية أو فكرية"[2]. وهي كذلك من العلوم التي ترتبط في دراستها إلى حدّ كبير باللسانيات، هذه الأخيرة التي أحدثت ثورة في اللغة والأدب، وانبثقت من كيانها مناهج تهتم بالبنية النّصية، وكان للأسلوبية نصيبا وافرا من ذلك.

وللأسلوبية فضل كذلك فيما تشترك فيه المناهج النسقية من فضل إخراج النقد من دائرة الذوق والانطباع والاقتصار على مؤثرات السياق الخارجي إلى المعيارية والعلمية؛ لذلك جعلت الأسلوبية مهمتها كما يرى محمد أشليم "البحث الدائم عما يتميز به الخطاب الأدبي عن غيره من أصناف الخطابات الأخرى"[3]؛ فتلك هي وظيفة الأسلوبية النسقية التي تفيد بها النقد ويستند إليها الناقد في تحديد معالم القراءة الأسلوبية للأدب.

والمنهج الأسلوبي النسقي ينظر إلى النص الأدبي على أنه إبداع وتخييل، وجميع النقاد الأسلوبين يبحثون عن خاصية مدى اتساق وانسجام النص، وهذا يشير إلى نسقيته لا إلى سياقيته في اعتباره وفيما يميّزه، فلا يعقل أن يكون مؤشرا تمييزا للنص يستند إليه النقد أكثر من أماراته الأسلوبية الدالة، والتي ينظر النقد الأسلوبي في سماتها ويشتغل على ميزاتها.

1- أحمد درويش، الأسلوب والأسلوبية، مدخل في المصطلح وحقول البحث ومناهجه، مجلة فصول، مج5، ع1، 1984، ص60.

2- فتح الله أحمد سليمان، الأسلوبية مدخل نظري ودراسة تطبيقية، مكتبة الآداب للنشر، القاهرة، دط، 2004، ص7.

3- محمد أشليم، الملامح التداولية في الدراسات الأسلوبية، مجلة جسور المعرفة، الجزائر، ع12، 2017، ص182.

وقد نالت الأسلوبية حظوتها من السّيطرة على السّاحة النقدية المعاصرة، وأدت دورا قويا في قراءة النص الأدبي؛ لأنّها لا ترتبط بمجال أدبي أو فني واحد؛ وإنّما قد تكون "في الموضة، الفن والموسيقى، تدبير الحياة وفي المائدة والسياسة .... وإلخ"[1]. وهذا ما يجعلها كفيلة بتحقيق الأهداف النقدية من منطلق أنّ مجالات الأدب كثيرة ومتشعبة.

4- أبرز اتجاهات وأنواع الأسلوبية:

تختلف الأسلوبية في جانب التفرعات عن علوم لسانية أخرى وفي التوجهات وكثرتها؛ حيث تتفرع إلى اتجاهات كثيرة، وربما هذا يعود إلى كون الأسلوب يتميز بالتشعب والاتصال بعلوم كثيرة. ومن هذا الجانب، تكون الأسلوبية غير أسلوبية واحدة. ومن ذلك نذكر منها من خلال ما صنفه النقاد فيها.

4-1- الأسلوبية التّعبيرية (أسلوبية بالي):

زعيم هذه الأسلوبية هو شارل بالي مؤسس الأسلوبية في بدايتها. ويرى بالي أن الأسلوبية التعبيرية هي "العلم الذي يدرس وقائع التعبير اللغوي من ناحية محتواها العاطفي، أيّ التعبير عن واقع الحساسية الشعورية من خلال اللغة"[2]. فهذه الأسلوبية هي من أوسع وأشمل جوانب الأسلوب، فهي تتأسس من خلال اعتبار وظيفة الأسلوب الرئيسة والأساسية، والنظر إليه على أساس أنّه أداة تعبير وتواصل، وكشف عما يختلج في النفس.

وعرّفت هذه المدرسة كذلك على أنّها: "دراسة لقيم تعبيرية وانطباعية خاصة بمختلف وسائل التعبير التي في حوزة اللغة، وترتبط هذه القيم بوجود متغيرات أسلوبية؛ أي ترتبط

---

[1]- هنرش بليت، البلاغة والأسلوبية ـــ نحو نموذج سيميائي لتحليل النص ـ، تر: محمد العامري، أفريقيا الشرق، بيروت، لبنان، دط، 1999، ص51.

2- رشيد غنّام، شعر أبي حسن الحصري دراسة أسلوبية، أطروحة دكتوراه، جامعة الحاج لخضر، 2012، ص7.
صلاح فضل علم الأسلوب مبادئه و إجراءاته، دار الشروق، ط 1، 1419، 1998، ص18.

بوجود أشكال مختلفة للتعبير عن فكرة واحدة"[1]. يشمل هذا التحديد مدى انعكاس العاطفة في الأسلوب، وهذا ما وجد عند مؤسس هذه التوجه، وذلك حين تجاوز أستاذه دو سوسير، وهذا من خلال تركيزه الجوهري والأساسي على العناصر الوجدانية للغة، وهو تركيز تلقفه عالم الأسلوب الألماني seilder الذي نفى أن يكون الجانب العقلاني في اللغة يحمل بين ثناياه أيّ بعد أسلوبي، وإنماّ ركّز على الجانب التأثيري والعاطفي في اللغة، وجعل ذلك يشكل جوهر الأسلوب ومحتواه[2].

وتقوم أسلوبية بالي على مبادئ لسانية وأخرى نقدية. فإذا كانت وظيفتها النظر في النصوص، فإنّها صالحة وخصبة للنظر في جميع النصوص العامة دون أن تختص في الجوانب الإبداعية. وقد ذكر النقاد أسس أسلوبية بالي واهتماماتها أمثال الناقد العربي: "حدّد بالي حقل الأسلوبية بظواهر تعبير الكلام وفعل ظواهر الكلام على الحساسية، فمعدن الأسلوبية حسب بالي ما يقوم في اللغة من وسائل تعبيرية تبرز المفارقات العاطفية والإدارية والجمالية؛ بل حتى الاجتماعية والنفسية[3].

لذلك فإنّ هذه الشمولية أو العموم الذي اتسمت به أسلوبية التعبير لا يقتصر على جانب أنّها تعالج عموم اللغة في وظيفة التعبير؛ بل تعالج الجوانب المرافقة للنص، من جمالية ونفسية واجتماعية. ولا شكّ أنّ هذا نتيجة اتصاف اللغة بذلك بحكم أنّها ظاهرة ترتبط بالنفس البشرية. فقط يمكن أن يظلّ التّساؤل، هل ميل بالي نحو هذا النوع أو التّصنيف في الأسلوبية جاء نتيجة أنّها نابعة من ارتباط وصلة بالي باللسانيات أو محاضرات سوسير البنيوية في جانبها الموضوعي وعدم المفاضلة بين اللغات المعيارية واللهجات المحكية،

1- صلاح فضل، علم الأسلوب مبادئه وإجراءاته، دار الشروق، ط1، 1998، ص20.

2- ينظر: عبد السلام المسدّي، مساهمة الألسنية في تحديد الأسلوب الأدبي ضمن كتاب قضايا الأدب العربي، مركز الدراسات والأبحاث الاقتصادي، تونس، 1978، ص480.

3- ينظر: حمادي صمود، التفكير البلاغي عند العرب أسسه وتطوره إلى القرن السادس، منشورات الجامعية التونسية، تونس، 1981، ص52.

واشتراك جميعها في وظيفة التّعبير؟ أم جاء نتيجة إدراكه بحاجة النقد الأدبي لهذه الشمولية؟

4-2- الأسلوبية النّفسية:

تسمى الأسلوبية النفسية أو الأسلوبية الفردية. وقد قامت على أنقاض الأسلوبية التعبيرية. يقول أحد الدارسين: "سرعان ما فجّر استئصال اللغة الأدبية من ميدان الدراسة الأسلوبية معارضة بعض الدارسين الذين اهتمّوا باللغة الأدبية للدراسة الأسلوبية. كما كان لإيثار اللغة الجماعية على اللغة الفردية الأثر الفاعل في استحداث الأسلوبية الفردية"[1]. وقد يكون هذا الفارق بين الأسلوبية التعبيرية والنفسية، أنّ السابقة تعاملت مع اللغة أكثر. أما الثانية، فتعاملت مع الفوارق الذاتية للمتكلم في أسلوبه، ومنها وجدانه وعاطفته، ومنها التوغل للعمل الأدبي نقدا ودراسة، فحصا وتمحيصا. وكان أول دافع لبزوغ هذا الاتجاه وهو إبعاد اللغة الأدبية عن الدراسات الأسلوبية في بدايات ظهور هذه المقاربة؛ فهي تختص في مدى انعكاس شخصية ونفسية المبدع في أسلوبه.

ورغم هذا الفارق، إلا أنّ هناك رأي آخر يثبت أنّ أسلوبية ليوشبيتزر هي تعبيرية في أساسها: "لقد كان من أبرز أصحاب الأسلوبية التعبيرية ليوشبيتزر الذي نشأ في فيينا وتأثر مبكراً بفرويد، ثمّ تأثر بنظرة بندتوكروتشه وكارل فوسلر إلى اللغة بوصفها تعبيراً فنيا خلاقاً عن الذات"[2]. وطبعا هذا الاعتبار مرده إلى أنّ مصدر الأسلوب هو نفسية المبدع، والنظر فيه يحتاج لا إلى التعبير أولا؛ بل في كوامنه ودوافعه، وهذا ما جعل بعض النقاد يرون بالصلة بين الأسلوبيتين، وبعضهم يرى بخلاف ذلك؛ أيّ بالفوارق

[1]- إبراهيم عبد الله أحمد عبد الجواد، الاتجاهات الأسلوبية في النقد العربي الحديث، إشراف إبراهيم السعافين، أطروحة دكتوراه، عمان، الجامعة الأردنية، 1994، ص22.

[2]- حسن ناظم، البنى الأسلوبية، دراسة في أنشودة المطر للسياب، ص34.

والفواصل البينة بينهما. أما من جانب التكامل المعرفي وتطور النظريات، فهو مدعاة أساسية ورئيسية لهذا النوع من التواشجات بين الاختصاصات.

اهتمت أسلوبية ليوشبيتزر إذن بالكاتب، كما أطلق عليها اسم (الدائرة الفيلولوجية) أو (الدائرة اللغوية)، وهذا وصفا لمنهج شبيتزر. فالدائرة الفيلولوجية "تتصل منهجية هذه الدائرة في ملاحظة الدارس أو الناقد لجزئية لغوية في العمل الأدبي توحي له بفرضية معيّنة، ثمّ ينطلق من هذه الجزئية إلى لبّ العمل ومركزه الأساسي، ليرتدّ بعد ذلك من مركز العمل إلى الخارج بحثا عن جزئيات وتفصيلات أخرى تعزّز حدسه أو فرضيته السابقة. ويمكن أن تتكرّر هذه العملية كلما كان ذلك ضروريا حتى يتوصل إلى معالم محدّدة في فهم العمل الأدبيّ"[1].

وهذه الفكرة النّقدية جديرة بالاهتمام والدّراسة، وهي في ظاهرها عبارة عن النّظر والتّأمل في السمة البارزة في النص، وهذا معروف منذ الدراسات البلاغية والنقدية الحديثة والقديمة، ولكن الجديد فيها هو لماذا كانت دائرة؟ والمقصود بالدائرة هنا، هو أن يظل الناقد محللا يعود ويرجع لتلك السمة البارزة التي استشفها من النص، حتى يؤسس منها تبريرا لكل نمط لغوي في النص أيّ كانت تلك الظاهرة الأسلوبية. فكأن الدائرة بمثابة قبلة الناقد في النص، أو بمثابة الموجه والمعيار، وربما الميزان الذي يوازن بين النمط اللغوي والاختيار الأسلوبي، وكذلك الجانب الوجداني والسياقي في النص.

ويمكن تلخيص أسس الأسلوبية النفسية في نقاط خمس:

- مبادرة الأسلوبية من النص.
- تحليل النص يكشف عن شخصية مؤلفه.
- التفاهم مع النص قصد فهم عوالمه الضمنية.

[1]- إبراهيم عبد الله أحمد عبد الجواد، الاتجاهات الأسلوبية في النقد العربي الحديث، ص23.

- إقامة التحليل الأسلوبي على تحليل أحد ملامح اللغة في النص الأدبي.
- تفريغ أسلوبي فردي، أو هي طريقة خاصة في الكلام تنزاح عن الكلام العادي[1].

وهذه الأسس جعلت النقاد يعتدون بأسلوبية شبيتزر؛ فهي تفصح عن خطورتها من الناحية التطبيقية، فقد كان الناقد مطبقا أكثر مما كان مؤسسا للتنظير، وهو بذلك ناقد أسلوبي مميّز[2]. خاصة أنّ نجاعة العلوم وقوة تأثيرها، تتصل حتما بمدى قدرتها التطبيقية، وبمدى التناسب بين النظري والتطبيقي.

كما يرى البعض كذلك، اتصال هذه الأسلوبية بجانب الفنّ ونظريات تفسيره والاشتغال عليه. وربما كان هذا نتيجة اشتراك الأسلوبية النفسية مع بعض مبادئ سيمون فرويد عالم النفس المشهور، والذي قدّم للعمل الأدبي زادا نظريا نفسيا كبيرا، وأثراه بما قد يتأصل منه الإبداع والأدب، وحتى نقيضه من العنف والانتقاد وغيرها من صور التأليف والتعبير. لذلك رأى الباحثون بتأثر اللغوي النمساوي ليوسبتزر (1807- 1960م) بأفكار الفيلسوف النفسي سيمون فرويد، وتحليلاته النفسانية للغة، وبذلك أقرّ بتحليل اللغة تحليلاً فنياً ينطلق من الذات للبحث في روح المؤلف من خلال اللغة. ومن هنا اتسم هذا المنهج بالمزج بين ما هو نفسي وما هو لساني[3]. ليبحث هذا المنهج في لغة المبدع وأسلوبه وصولا إلى نفسيته وروحه.

---

[1]- ينظر: محمد بن يحي، السّمات الأسلوبية في الخطاب الشعري، ص16.

[2]- ينظر: جورج مولينيه، الأسلوبية، تر: بسام بركة، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط2، 2006، ص74.

[3]- محمد الأمين شيخة، الترجمة العربية للمصطلح في النقد الأسلوبي، مشاكل وحلول، مجلة علوم اللغة العربية وآدابها، جامعة الوادي، ع4، 2012، ص54- 55.

4-3- الأسلوبية الإحصائية:

تعتمد على جانب الإحصاء والكم والمعادلات الرياضية، "وينطلق هذا الاتجاه من إمكان تحديد الملامح الأسلوبية عن طريق الإحصاء (الكم)، ولهذا يحفل هذا الاتجاه بقيم الأعداد، ويبعد الحدس"[1]. وهذا يوافق منزع العلوم اللغوية واللسانية منزع العلمية والتقنية، والمنهج الرياضي خاصة. ف"تعتمد الأسلوبية الإحصائية على الإحصاء الرياضي في محاولة الكشف عن خصائص الأسلوب الأدبي في عمل أدبي معين، ويرى أصحابها أن اعتماد الإحصاء وسيلة علمية موضوعية تجنب الباحث مغبّة الوقوع في الذاتية"[2].

ومن أصحاب هذا الاتجاه الأسلوبي "زمب "Zemb" ذاك"، والذي جاء بمصطلح "المقياس الأسلوبي الذي يقوم على إحصاء كلمات النص وتصنيفها حسب نوع الكلمة، ووضع متوسط تلك الكلمات في شكل نجمة، وهكذا تنتج أشكال ونماذج متنوعة يمكن مقارنة بعضها ببعض"[3]. ويدل هذا على نضج هذا الاتجاه، وذلك حين أدى إلى تخصيص مصطلحات دقيقة به، ومنها هذا المقياس الأسلوبي.

ويتأسس هذا التوجه من إحصاء عدد الكلمات والأساليب في النص، والتي تنتمي إلى النوع الأول أو النوع الثاني، ثمّ إيجاد حاصل قسمة المجموعة الأولى على المجموعة الثانية. في شبه معرفة النسبة المئوية لكل صنف أسلوبي. وبهذا يبتعد الأسلوبي عن الذاتية. ومن خلال ذلك يحكم على أدبية النص، فارتفاع حاصل القسمة يُعد مؤشرا على أدبيته، وانخفاضه يقربه من العملية"[4].

---

[1]- زين كامل الخويسكي، في الأسلوبيات، ص19.

[2]- محمد بن يحي، السّمات الأسلوبية في الخطاب الشعري، ص21.

[3]- نور الدين السد، الأسلوبية وتحليل الخطاب، ج1، ص97 – 98.

[4]- سعد مصلوح، الأسلوب دراسة لغوية إحصائية، عالم الكتب، ط3، 2002، ص74.

لاقت الأسلوبية الإحصائية نقدا على يد نقاد أمثال محمد عبد المطلب؛ إذ يقول: "ربما لقي المنهج الإحصائي ما لم يلقه غيره من نقد وتجريح، لأننا عندما نعمد إلى الإحصاء في دراسة الأساليب نحيل اللغة الأدبية إلى شيء بلا لون ولا طعم"[1]. يرى الناقد أن النص يفقد جمالته، ويفقد النقد إبداعيته إذا تعامل بكل هاته الصرامة المنهجية الدقيقة، فتنتفي عنه الغموض والتميز أحيانا.

كما أن هناك من قسّم الأسلوبية إلى اتجاهين فقط، ومنهم **"جيرو"**؛ حيث "يقسم بير جيرو الأسلوبية المعاصرة إلى اتجاهين كبيرين متعارضين"[2]. أسلوبية تقليدية وأخرى جديدة؛ الأسلوبية التقليدية ورائدها بالي، والأسلوبية الجديدة التي تبعث من البنيوية عن طريق جاكسون. وكلاهما يعرّف الأسلوب بأنه الشكل المميز للنص، 'وهو- في نظرنا- تقسيم ثنائي يسهل للقارئ والباحث الطريق.

والخلاصة في هذا المبحث، أنّ الاتجاهات كثيرة ولا تقتصر على هذا الذي ذكرناه، "ونحسب أنّ تحديد اتجاهات الأسلوبية إنما يخضع لمعايير محدّدة، فبينما نجد أسلوبية لغوية مقابل أخرى أدبية، نجد أسلوبية وصفية مقابل أسلوبية إنشائية أو نفسية وأخرى اجتماعية أو تأصيلية وأخرى تعبيرية، أو تقليدية وأخرى جديدة، وهلّم جرا، مماّ يجعلنا أكثر حيرة، وأقرب إلى المزالق"[3].

وقد وجد النقاد لهذه الدوامة أعذار الرأي المشترك الذي يؤسسه البحث في التصنيفات الحالية للأسلوبية؛ إذ نكون مع علم جديد يتميز بالحداثة والتطور، رغم أنه لا يزال غير محدد ولا منظّم، فهناك محاولات جادة يشوبها من هذا العلم جانبه الاصطلاحي[4]. وهنا

[1]- محمد عبد المطلب، البلاغة والأسلوبية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1984، ص139.

[2]- فتح الله أحمد سليمان، الأسلوبية مدخل نظري ودراسة تطبيقية، ص40.

[3]- البكاري أخضاري، تحليل الخطاب الشعر، قراءة أسلوبية في قضى بعينيك للخنساء، ص15.

[4]- ينظر: شكري محمد عياد، اتجاهات البحث الأسلوبي، أصدقاء الكتاب، مصر، ط2، 1996، ص120.

يشير الناقد إلى الإشكالية التي تواجه عالم النقد وهي إشكالية المصطلح لأنه مازال علما فتيا. فكلما ظهرت تصنيفات جديدة للأسلوبية، ألزمنا البحث عن الدّقة المصطلحية، والعكس كذلك. كلما ظهرت مصطلحات جديدة، كلّما اتّخذها البعض مجالا وذريعة لتصنيف جديد قد لا ينتهي.

5- آليات وإجراءات المنهج الأسلوبي في الممارسة النقدية:

من بين الآليات التي أشار إليها النقاد البحث في الظواهر اللغوية كالتكرار، سواء تكرار كلمة أو عبارة، وكذلك الاستفهام والتعجب والأمر والنداء الذي يندرج تحت المستوى النحوي، أو المستوى البلاغي الذي يضم مفاهيم مثل الاستعارة والتشبيه. والتكرار هو "الملمح الأسلوبي الأكثر بروزا لتلاحم النص؛ فهو يدخل في نسيجه لحمة ... ويشد أطرافه بعضها إلى بعض ويعطي شكله نوعا من الحركة، يدور فيها الكلام على نفسه ويتكرر دون أن يعيد معناه"[1]. وهو مي يسمى بالتوكيد بنوعيه "اللفظي والمعنوي"، وهو يندرج ضمن المستوى النحوي.

ومن الظواهر النحوية الأسلوبية، نجد الاستفهام، التعجب، الأمر، النداء؛ إذ يقول الكوفحي: "تمثل الظواهر اللغوية النحوية في النص الأدبي مظهرا من المظاهر الأسلوبية التي تشد من نسيج النص، وتجعله لحمة واحدة ترتبط بها جميع مكونات المنجز الأدبي"[2]. ونجد كذلك النداء ضمن المستوى النحوي، وهو "طلب إقبال المدعو إلى الدّاعي بأحد حروف مخصوصة"[3]. أما المستوى البلاغي، فمنه الاستعارة هي مبحث من علم البيان.

[1]- يوسف محمد الكوفحي، اللغة الإبداعية؛ دراسة أسلوبية لأعمال جبران خليل جبران العربية، ص15.

[2]- المرجع نفسه، ص53.

[3]- عبد العزيز عتيق، علم المعاني، بيروت، دار النهضة، 1974، ص125.

يقول الكوفحي: "إن الاستعارة كما عرفها البلاغيون هي تشبيه فقد أحد طرفيه"[1]. وهي أضرب ومما عرف كثيرا واشتهر (الاستعارة التصريحية والاستعارة المكنية).

وعموما يتعامل الناقد الأسلوبي في دراسته مع ثلاثة جوانب أو عناصر يسعى للكشف عنها دون الإغفال عن جانب منها؛ "فالتحليل الأسلوبي يتعامل مع ثلاثة عناصر: العنصر اللغوي: إذ يعالج نصوصاً قامت اللغة بوضع رموزها ،العنصر النفعي: الذي يؤدي إلى أن ندخل في حسابنا مقولات غير لغوية مثل: المؤلف، القارئ، و الموقف التاريخي، و هدف الرسالة و غيرها ،العنصر الجمالي الأدبي: و يكشف عن تأثير النصّ على القارئ و التفسير والتقييم الأدبي له"[2]، معنى هذا أن الناقد الأسلوبي يدرس النص من جميع الجوانب، السياق والنسق والأثر الذي يتركه الأسلوب.

فالمنهج الأسلوبي من المناهج النسقية؛ حيث يهتم بدراسة النص الأدبي دراسة عميقة وشاملة. كما يمثل علامة من علامات تطور الدرس اللساني البلاغي الذي انبثق من أحضانه، فعن طريق المنهج الأسلوبي انتقل النص الأدبي من مرحلة الدراسات الجزئية (شكلية) التي تهتم بالحيثيات وما يطفو فوق النص إلى مرحلة التغلغل في أغواره كاشفة عن خباياه الإبداعية ومكنوناته الجمالية. وهنا يشير إلى القارئ؛ لأن "النص كلا وعالما وإبداعا مستقلا وحمال معنى يسائله القارئ الناقد، وهو مزود بكل ما يعرفه وبكل ما يمثله وجوده، وعلى هذا، لا يوجد منهج معجز صالح للنصوص كلها؛ بل ولا منهج يمكن تطبيقه آليا على النصوص كلها، ولا شك في أن كون تحليل الجزئيات يكون أسلوبيا..."[3].

و"إنّ مهمة الأسلوبيات هي معرفة رد فعل القارئ عند اصطدامه بالنص، والكشف عن منبع ردود الأفعال في النص. والأسلوبي هو قارئ متعدد يمثل أوجه القراء. ومعنى ذلك

---

[1]– فضل عبّاس، البلاغة، فنونها وأفنانها (علم البيان والبديع)، دار الفرقان للنشر والتوزيع،2004، ص63.

[2]– ينظر: عبد المنعم خفاجي وآخرون، الأسلوبية والبيان العربي، ص100.

[3]– إليزابيت غافو غالو، مناهج النقد الأدبي، تر: يونس لشهب، عالم الكتب الحديث، إربد، ط1، 2013، ص155.

أنه يعطي الثقافة القصوى (القراءة النقدية، والمعجمية، وغيرها) لاكتشاف الوحدات التي نسج المؤلف خيوطها في النص"[1].

يرى محمد عبد المطلب أن على الأسلوبي في تحليله اعتماد ثلاث قراءات؛ (قراءة جمالية تستند على الإحصاء، قراءة تأويلية، قراءة استرجاعية) "القراءة الجمالية التي تتكئ على التعامل مع البنى التركيبية، وقياس مدى تخلصها من الطابع العام، والارتقاء إلى مستوى الأدبية. ويلاحظ هنا أهمية الاعتماد على الأدوات البلاغية – التي جددت نفسها– وما قدرتها على الكشف عن ظواهر العدول والخروج عن المألوف ومدى قدرتها على الرصد الكمي لظواهر التردد اللافتة جزئيا وكليا ومدى قدرتها على رصد مناطق البريق والتوهج التي تشد المتلقي إليها وتشغله بعلاقاتها المتداخلة. ويتدخل هنا المنهج الإحصائي لضبط خطوات القراءة"[2].

أما القراءة التي تنطلق من المفردة داخل المعجم؛ فهي "القراءة التي تبدأ عملها من منطقة المفردات المعجمية وردها إلى مرموزها المباشر أو غير المباشر وبخاصة أن الخطاب الشعري الحديث أصبح مثقلا بالرموز والأساطير، ومشحونا بالإسقاطات مما يتيح للدوال أن تتخلص من دلالتها المعجمية والامتلاء بدلالات جديدة تناسب التجربة الحديثة وما تتميز به من عمق وثراء"[3].

وتقوم الظاهرة الأسلوبية عند "ليوسبيتزر" على ثلاث قنوات: "إن ثلاث قنوات تؤدي إلى حصر الظاهرة الأسلوبية؛ هي: قناة المتكلم؛ حيث الأسلوب يكشف عن فكر وقدرة لغوية ومستوى خطابي وتعبيري، قناة المخاطب، وتتمثل في التأثير والإقناع، وهما أبرز

[1]– رابح بوحوش، الأسلوبيات وتحليل الخطاب، منشورات باجي مختار، عنابة، دط، ص07.

[2]– إبراهيم عبد العزيز السمري، اتجاهات النقد الأدبي العربي في القرن العشرين، دار الآفاق العربية، القاهرة،2011، ص261.

[3]– المرجع السابق، ص261.

ما ركز عليه الأدباء في عملية التواصل والكتابة، قناة الخطاب، وقد حصر شارل بالي مدلوله في تفجير طاقات تعبيرية كامنة في اللغة والأسلوب"[1].

ثالثا: الأسلوبية في المنجز النقدي العربي المعاصر:

كان ظهور علم الأسلوب أو الأسلوبية في عالمنا العربي للساحة النقدية العربية عن طريق الترجمة كسائر المناهج، وأولها ترجمة كتاب الدكتور كراهام هاف للغة العربية سنة 1985، ثمّ بالتأليف، وذلك حين ألف المسدي كتاب الأسلوب والأسلوبية عام 1977، ثمّ ترجمة الناقد منذر عياشي لكتاب بيير جيرو، "الأسلوبية"، وكان ولوجها متأخرا فانتقال الأسلوبية إلى الخطاب النقدي العربي قد تأخر إلى سنوات السبعينات من القرن الماضي[2].

وبفضل أعمال وجهود مجموعة من نقاد المشرق والمغرب، اتسعت مساحة الأسلوبية تنظيرا وتطبيقا، ومنهم على سبيل التوضيح ما ذكرهم يوسف وغليسي في حديثه عن أعلامها في الوطن العربي: "عبد السلام المسدي وشكري عياد وجوزيف ميشال شريم، وعدنان بن ذريل ولطفي عبد البديع وصلاح فضل ومحمد عبد المطلب ومنذر عياشي، وبسام بركة، وعبد الملك مرتاض، وحميد الحميداني، وبعض الأسماء الجزائرية الصاعدة؛ نور الدين السد، عبد الحميد بوزينة وعلي ملاحي، ورابح بوحوش"[3]. وغيرها العديد من الدراسات التي اهتمت بدراسة الأسلوب والأسلوبية وتبيان علاقاتها مع كل من اللسانيات والبلاغة.

ولعلّ ما يجب علينا وينبغي في نقدنا المعاصر، أن نستثمر هذا المجال الرحب الذي ميّز الأسلوبية من الامتداد التاريخي في البلاغة اليونانية ثمّ الإرث العربي الفسيح وكذلك الاتصال بعلم اللسانيات الذي تتصل فروعه باللسانيات النفسية والاجتماعية، أن نستثمر

---

[1]– ينظر: عماد علي سليم الخطيب، في الأدب الحديث ونقده، دار المسيرة، الأردن، ط1، 2009، ص267.

[2]– ينظر: يوسف وغليسي، مناهج النقد الأدبي، ص82.

[3] – المرجع نفسه، ص83.

ذلك كلّه في ضبط معايير نقدية معيارية، خاصة أنّ الأسلوبية قابلة للمنهج الرّياضي، خاصّة في الجانب الإحصائي منها.

ومن غير المنصف أن نتطرق للقضايا النقدية الأسلوبية في المدونات العربية دونما أن نعدد البعض من هذه المدونات، نحو: "دراسة الأسلوب بين المعاصرة التراث " لأحمد درويش، "الأسلوبية وتحليل الخطاب" نور الدين السد، "الأسلوبية والأسلوب"، وكذلك "قراءات مع الشابي والمتنبي والجاحظ وابن خلدون"، و"النقد والحداثة" لعبد السلام المسدي، فهؤلاء النقاد يحق فيهم وصف الجاحظ "كانوا مصابيح الظلام، وقادة هذا الأنام، وملح الأرض، وحلي الدنيا، والنجوم التي لا يضل معها الساري"[1].

وفي ثنايا هذا المنهج قدم النقاد العديد من الدراسات أمثال عبد الملك مرتاض الذي لا يخلو أي منهج من لمسته النقدية الأسلوبية، وكذلك علي ملاحي في كتابه ــ المجرى الأسلوبي للمدلول الشعري ــ ورابح بوحوش ونور الدين السدّ في كتابهـــــما ــ "الأسلوبية وتحليل الخطاب دراسة في النقد العربي الحديث". وغيرهم من نقاد الأسلوبية على اختلاف مشاربها وتطبيقاتها. ولكن سنقتصر على ذكر بعض الأعلام فقط.

1- الجهود الأسلوبية للناقد نور الدين السد:

أول الجهود مدونة "الأسلوبية وتحليل الخطاب"، وهي مدونة نقدية الهدف منها "دراسة ظاهرة انتشار الأسلوبية في النقد العربي الحديث، ومحاولة الإجابة عن أسباب هذا الانتشار. ويرجح البحث أنّ السبب الأساسي هو الرّغبة الملحة في تأسيس منهج علمي كفيل بدارسة الظاهرة الأدبية[2].

[1]- أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، البيان والتبيين، تح: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1998، ط7، ج2، ص20.

[2]- نور الدين السد، الأسلوبية وتحليل الخطاب الشعري والسردي، دار هومة، الجزائر، ج2، ص232.

نوّه فيها الناقد إلى نماذج مصطلحات من النقد العربي الحديث، وأكثرها انتشارا في الدراسات النقدية العربية: الوحدة العضوية، الخيال، الشكل والمضمون، العاطفة، المعاني، العبارة. وفي آخر المدونة أشار إلى طموح يودّ تحقيقه، وهو منهج جديد: "إن القناعة التي انتهينا إليها من هذا البحث تتجلى في مطمحنا إلى تأسيس منهج نراه أقدر من سواه على تحليل جميع أصناف الخطابات ومنها الخطاب الأدبي، وهو المنهج: "السيوسيو أسلوبي"، وهو يجمع بين السيميائية والأسلوبية"[1].

وعرض يوسف وغليسي في مدونته النقدية التنظيرية "مناهج النقد الأدبي: مفاهيمها وأسسها، تاريخها وروادها، وتطبيقاتها العربية" قضايا تداولتها مدونات نقدية كثيرة مرّت بنا؛ نحو: تعريف الأسلوب والأسلوبية، ميلادها، اتجاهاتها، الإعلان عن موتها عند البعض، انتقالها إلى الخطاب النقدي العربي، امتدادها إلى أسلوبية القدامى (البلاغة)، وغيرها من التنظير الأسلوبي[2].

كما تعرّض وغليسي إلى القضية التي أثارها "نور الدين السدّ" في "الأسلوبية وتحليل الخطاب"، وهي: الأسلوبية التركيبية أو التكاملية، أو كما أسماها "المنهج السيميائي الأسلوبي". و"إنّنا نشرح المنهج السيميائي الأسلوبي وسيلة علمية ومنظومة تحليلية ومعرفية متمكنة من آلياتها الإجرائية"[3]. فهو بهذا يقضي على الأسلوبية، ويعلن موتها كما صرّح الناقد يوسف وغليسي، وهكذا يسهم نور الدين السدّ – من حيث لا يقصد– في

[1]– المرجع نفسه، ص232.

[2]– ينظر: وغليسي يوسف، مناهج النقد الأدبي: مفاهيمها وأسسها، تاريخها وروادها، وتطبيقاتها العربية، جسور للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 2007.

[3]– نور الدين صدار، التناص في التراث النقدي العربي: قراءة في ضوء نظرية المتعاليات النصية، مجلة العلوم الإنسانية، ع27، ص197.

(موت الأسلوبية). ربما ذلك لإحياء الطموح السيميائي الشمولي الراغب في التسلّط على سائر العلوم الأخرى"[1].

وقسّم السد مدونته إلى جزأين. وقد تناول قضيتين فصل فيهما (مفهوم الأسلوبية واتجاهاتها. مفهوم الأسلوب ومحدّداته)، مبينا الهدف من المدونة: "إنّ الّذي يهدف إليه هذا البحث هو رصد الدّراسات الأسلوبية العربية الحديثة، وتحديد خصائصها من خلال الوصف والتحليل، وتتبع مواطن الموضوعية، ومواطن الذاتية والمعيارية فيها. ومطمح البحث هو دراسة ظاهرة انتشار الأسلوبية في النقد العربي الحديث"[2].

وعرض كذلك مجموعة من القضايا النظرية الأخرى التي تعرّض لها جلّ النقاد، منها مفهوم الأسلوبية، هذا العلم الذي رفضه البعض بهذه التسمية، ونفو عنه العلمية؛ أمثال غريماس وكوتيس. عكس الناقد السد الذي آمن بعلمية الأسلوبية، كما نعتها بالتنين البحري. ولكن قد نتساءل لم سميت بالتنين الأزرق (glaucus atlanticus)؟ هذا الحيوان المعروف بصغر حجمه، إلاّ أنّه قادر على قتل أشياء أكبر بكثير؟ على الرغم من أنّ الأسلوبية ظلت خفيّة كما ذكرت جماعة (Mu)، إلاّ أن لها انجازات وإضافات عظيمة ونتائج موضوعية.

تطرق الناقد للأسلوبية وقضاياها في الدراسات المعاصرة العربية. وأوّل مدونة تعرّض لها بالدراسة للناقد "عبد السلام المسدّي". كما أشار "السدّ" إلى مصطلحات: الأسلوبية السيميائية وأسلوبية الرسالة: "إنّ أسلوبية الرسالة هي التي يجب أن تكون المنطلق لأي تقدم نريده للأسلوبية"[3]. ولكن كيف وفيم يساعد هذا التقدّم؟ ثمّ تطرّق إلى علاقة الأسلوبية بالبلاغة كلّ على حدى، ثم علاقة الأسلوبية باللسانيات وبالبنيوية. ومن الدراسات كذلك

[1]– المرجع نفسه، ص89.

[2]– المرجع نفسه، ص07.

[3]– المرجع نفسه، ص27.

التي تطرّق لها بالنقد مدونة "الأسلوب دراسة لغوية إحصائية" لسعد مصلوح، "علم الأسلوب" لصلاح فضل، هذا الناقد الذي أشار إلى قصور الدراسات الأسلوبية في العربية، كذلك مدونة "دليل الدراسات الأسلوبية" جوزيف ميشال شريم، اللغة والإبداع لشكري محمد عياد.

ومن القضايا النقدية أيضا علم الأسلوب المقارن، "وهو فرع مختص بالمقارنة الأسلوبية بين النصوص وتشكيلاتها اللغوية. ويمكن الاستغناء عن هذا التوجه إذا كانت غاية البحث دراسة الظواهر الأسلوبية في نص أدبي واحد، بغض النظر عن سواه من النصوص إلاّ إذا أراد الباحث إظهار خواص التناص"[1]. أما قضية الأسلوب وتعريفه، فاختلفت باختلاف الثقافة؛ فهناك المحافظ، وهناك المقلد، وهناك من جمع بين الثقافيتين العربية والغربية.

وهذا الكتاب كان بمثابة الحل أو الفاصل "للجدال الذي لا يزال قائما بين الباحثين العرب في تحديد ماهية الأسلوبية، والتي يعدّها متجذرة في العربية، وبعدها الآخر وافدة من الغرب، وهي حديثة النشوء، ويراها بعض الباحثين علما بينما يراها البعض منهجا لدراسة الظاهرة الأدبية"[2]. تناول فيه الأسلوبية من بداية نشأتها وعلاقتها بالدرس اللساني لدى سوسير، وأيضا تطرق لأنواعها واتجاهاتها. والدراسة بمثابة إحاطة بالمنهج، ومهدا لكل ناقد وباحث في الخوض فيها. وقد اقتفى الناقد أثر الناقدين الكبيرين عبد السلام المسدي ومنذر عياشي خاصة في عرضهما للفروق الجوهرية بين اللسانيات والأسلوبية، ربما من صبغة اللسانيات اللغوية وصبغة الأسلوبية الأدبية.

وكغيره من النقاد عالج السدّ المصطلح الأسلوبي؛ إذ يرى أن الأسلوبية وعلم الأسلوب والأسلوبيات، ما هي إلا ألفاظ مختلفة في الشكل متفقة في المعنى، ومعناها هو الدرس العلمي للأسلوب الأدبي، لكن الأسلوبية أكثر شيوعا ورواجا في الدراسات الأدبية، وذلك

[1]– المرجع نفسه، ص40.

[2]– نور الدين السد، الأسلوبية وتحليل الخطاب، دار هومة للطباعة والنشر، دط، 2010، ص5.

راجع لتقبل الباحثين لهذا المصطلح، واعتماده في دراساتهم "لوضوح اختصاصه وصرامة أدواته الإجرائية. ويفصل ويحسم هنا الناقد جدل الترجمة والمصطلح حسب رأيه في كون الأسلوبية أقرب للاستخدام والشمول[1].

2- الجهود الأسلوبية للناقد منذر عياشي:

تناول هذا الناقد نفس القضايا التي تناولتها المدونات الأسلوبية الأخرى، من تعريف للأسلوب والأسلوبية، وميدان الدرس الأسلوبي، النص والأسلوبية، اتجاهات الأسلوبية خصائص أسلوبية التعبير، مقسما مدونته كالآتي: مدخل: الأسلوبية والنظرية العامة للسانيات، القسم الأول: الأسلوب والأسلوبية، الأسلوبية: اتجاهاتها وحدودها، الأسلوبية بين اللغة والإيصال، الأسلوبية والدراسات الأسلوبية، القسم الثاني: نظام اللغة ونظام الأسلوب من الكائن الإنساني إلى الكائن الكلامي، في نظرية النص، الأسلوبية موقف من الخطاب.

3- الجهود الأسلوبية للناقد عبد الملك مرتاض:

كانت أولى ومضات المنهج الأسلوبي في الساحة النقدية الجزائرية على يد عبد الملك مرتاض في كتابه الأمثال الشّعبية؛ فالنقاد الجزائريون ساهموا في بلورة هذا المنهج من خلال تحديد الفروق بين مصطلحي الأسلوب والأسلوبية، والتي اتضح فيها الموازنة بين التراث والحداثة.

صرح الدكتور عبد الملك مرتاض بموضوع دراسته في خليفة المدونة، وتناول موضوع الأمثال الشعبية الجزائرية العامة والاقتصادية بالدراسة، ويبلغ عددها (150) مثلا، مقسما إياها إلى أقسام. وخصّ الفصل الثاني منه ب"دراسة في أسلوبية الأمثال

[1]- نفس المرجع، ص11.

الشعبية الجزائرية". واقتضت طبيعة الموضوع منهجا بين الأسلوبية والبنويّة: "ولعلنا إن لا نفتقر إلى الحديث عن المنهج الجديد الذي تناولنا به أسلوب الأمثال"[1].

وكذلك جهوده مع مدّونة "الألغاز الشعبية الجزائرية"، والتي تناولتْ المدونة الألغاز الشعبية الجزائرية بالدّراسة والتحليل الأسلوبي، اتضحت في القسم الثاني منها: "في الشكل الفني للألغاز الشعبية"؛ الفصل الأول: لغة الألغاز الشعبية الجزائرية، الفصل الثاني "دراسة في أسلوبية الألغاز الشعبية". وقد وظف فيها الدكتور الأسلوبية الإحصائية وبعض المقارنات[2].

4- الجهود الأسلوبية للناقد أحمد درويش:

وهي مدونة نقدية عربية معاصرة، حاولت الإلمام بقضايا الأسلوبية. أشار فيها الناقد -أحمد درويش- إلى أهمية علم البلاغة عموما وعلم البيان خصوصا. لقد رأى أن القرن الثامن عشر هو بداية ظهور (الأسلوب) ثم الأسلوبية. "ولقد هبت على حقول فن التعبير منذ القرن الثامن عشر الميلادي رياح مختلفة ارتبطت بتغير فلسفات العالم ومفاهيم الشعوب لكثير من أمور الحياة الفكرية والسياسية والاجتماعية والعقائدية وتغيرات فلسفة التعبير[3] وأسلوبه تبعا لذلك، ولقد نشأ عن ذلك كله أن البلاغة القديمة تحوّرت في شكل "الأسلوب" الوسيط ثم "الأسلوبية" المعاصرة"[4].

كما عرج الدارس على قضية هامة تتمثل في إحياء الدراسات العربية للدراسات الغربية، "وشاعت في دراساتنا في هذا المجال موجة بين الترديد والتقليد ومحاولات

---

[1]- عبد الملك مرتاض، الأمثال الشعبية الجزائرية، تحليل لمجموعة من الأمثال الزراعية والاقتصادية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2007، ص06.

[2]- عبد الملك مرتاض، الألغاز الشعبية الجزائرية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2007، ص08.

[3]- أحمد درويش، دراسة الأسلوب بين المعاصرة والتراث، دار غريب، القاهرة. 2006، ص25.

4- المرجع نفسه، ص07.

التجديد، والتجديد قضية عرفت في كل الدراسات حتى في القصيدة المعاصرة ليس فقط في مجال النقد، ولهذا نحاول طرح إشكالية، وهي هل الدراسات العربية النقدية عرفت مرحلة تقليد أم تجديد؟ ويشبه الدراسات الغربية الوافدة إلى العرب بالمادة التي يطعم بها مادة أخرى أو جسد آخر. وبهذا يبين لنا أن القضية هي قضية تقليد لا إبداع ولا تجديد.

ثم يشرح درويش خطته، مبينا هدف هذه المدونة، وهو: إنشاء أسلوبية عربية معاصرة. وأشار كذلك إلى قصور البلاغة القديمة: "إننا لابد أن نعترف بأن البلاغة العربية التي بين أيدينا لم تعد تغطي حاجات الأجناس الأدبية التي ينتجها الأدب العربي المعاصر"[1]. ولهذا اتهم البلاغة بالعقم.

وجاء القسم الأول من الدراسة عند الدارس موسوما ب"نظرية الأسلوب في البلاغة المعاصرة" وبين المناهج السياقية التي برزت بين القرنين (19 – 20)، نحو المنهج التاريخي، الاجتماعي، النفسي...، وهي مناهج ربطت بين النص والسياق، ولكنها وقعت في مأزق وخاصة أثناء التطبيق أو كما سمّاها (الثغرة في التطبيق) في الفكر النقدي العربي، لهذا برزت مناهج نسقية تهتم بالنص كبنية ونظام، ثم أشار إلى تحديد المصطلح وإلى أهميته في البحوث العلمية، وقد انطلق من مفهوم المصطلحين (المستوى الأفقي) و(المستوى الرأسي) مشبها هذه المصطلحات بالمراحل (الابتدائي، الإعدادي، الثانوي وكذا الجامعي)[2].

وتبنى درويش من سمات للأسلوب الاختيار، وقد اتفقت جلها في ربطه بالاختيار: "ترى بعض المناهج الأسلوبية أن الأسلوب هو اختيار لغوي أو انتقاء لغوي يقوم به الكاتب لسمات وعناصر لغوية معينة بغرض التعبير عن موقف معين، وهو انتقاء نحوي؛

1- المرجع السابق، ص09.

2- المرجع نفسه، ص30.

أي اختيار للغة بقواعدها الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية ونظم الجمل لأداء موقف فكري معين"[1]. وهو انتقاء يفرضه المقام، وهو عملية مقننة.

ثمّ بحث الناقد عن العلاقة بين الأسلوب والبلاغة في عصر أرسطو، وكذا الأسلوبية، مبينا التقسيم الطبقي له، وقد التقى هذا التقسيم الطبقي للأسلوب مع التقسيم الطبقي الاجتماعي، وأيّد درويش الكلام الفني، وهو أن الأسلوبية تهتم بالأدب، وأن الدراسة الأسلوبية تقتضي أن يكون الكلام ذا مستوى فني معين منذ البدء، وأن يكون متميزا عن الكلام المألوف[2].

[1]– صالح عطية، صالح مطر، في التطبيقات الأسلوبية، دار الكتب، دط، ص14.

2– ينظر: أحمد درويش، دراسة الأسلوب بين المعاصرة والتراث، ص18.

خلاصة الفصل:

في خلاصة الفصل عرفنا مفاهيم تتعلق بكل من الأسلوب والأسلوبية، وما يحيط بالمصطلحين من متفرقات تجمع بين التنظير والتطبيق، وبين الجانب اللغوي والجوانب النقدية. وقد استخلصنا أن المفهومين يتأسسان في جدل النمط اللغوي؛ فيأتي الأسلوب بنية وكيانا ظاهرا، بين المشافهة والكتابة، والوظيفية والإبداعية، ثم تأتي الأسلوبية علما ومعايير لنقده ودراسته والنظر في أصنافه. لذلك انطلقنا في الفصل من عرض الأسلوب أولا، ثم عرض أشهر خصائصه، وهذا الخصائص هي ما جعلته يشغل بال الباحثين من ضرورة النظر فيه أولا مع كل خطاب أو نصّ، مهما كان مجاله، ومهما كانت وظيفته بالحياة.

ثمّ أتبعنا هذه المفاهيم ما يفيد الأسلوبية من تعريفها، وأنّها العلم الذي يهتم بالأساليب ويختص بها حديثا، ثمّ عرفنا ميلادها ونشأتها، إلى أبرز اتجاهاتها وأنواعها مع تعدد أصناف الأساليب والخطابات، ومنها التعبيرية والنفسية والإحصائية. وإذا كان هذا العلم قد لقي جدلا واسعا على مستوى تداخله مع علوم لغوية وأدبية أخرى سبقته أو عاصرته؛ فقد كان لزاما ما أدرجناه من مبحث في بيان علاقة الأسلوبية باللسانيات الحديثة، وبالبلاغة القديمة، وما تربطهما من علاقات التأسيس في الأصول والمنطلقات، ومن علاقات الفروع كآليات التطبيق على النصوص، والزاوية التي ينظر بها كلّ علم نحو النص المستهدف. إضافة لهذا علاقة الأسلوبية بالنقد؛ كونها المختبر الحقيقي لها في الجوانب الإجرائية.

أخيرا وتنويها بالجهود العربية المعاصرة في ميدان الأسلوبية، قدم الفصل خلاصة وشرحا موجزا لبعض المدونات التي خصت الموضوع، ومنها جهود الناقد نور الدين السد، والناقد منذر عياشي، والناقد عبد الملك مرتاض، والناقد أحمد درويش. وهذا تمهيدا لدراسة الجهود الكبيرة للناقد والأستاذ عبد السلام المسدي، والتي هي موضوع الدراسة فيما يلي من فصلين؛ الفصل الثاني والثالث.

الفصل الثاني

الجهود التنّظيرية للأسلوبية عند عبد السّلام المسدي

تمهيد الفصل:

بعدما عرفنا في الفصل السابق (الفصل الأول) مفاهيم الأسلوب والأسلوبية بصفة عامة، نعمد في هذا الفصل إلى تتبع الجهود التنظيرية لنموذج دراستنا الأستاذ عبد السلام المسدي؛ أي جهوده في تأسيس وشرح ما يتعلق بالأسلوبية من جانبها النظري، سواء كانت بشرح الوافد الغربي منها، أو بشرح ارتباطها بما هو ماثل في التراث العربي من نحو وبلاغة، وما اعتبره اللسانيون أسلوبيا.

ويتأسس هذا الفصل تحديدا من قراءة وصفية لأشهر مؤلفات الأستاذ، والتي تتسم بطابع تنظيري، لأن هذا الفصل تمهيدا لتطبيقاته (المسدي) للأسلوبية في النقد الأدبي. فوصفنا لجهوده التنظيرية هذا، إنما يقدم ملامح عامة على تكامل وترابط المعارف اللسانية لمجالاتها النقدية التطبيقية عنده، ذلك أن منطلق العلم الأول هو التأصيل والتحصيل قبل الإجراء والتطبيق والتجريب.

سنعرف من خلال الفصل جانبا مهما من حياة المؤلف الناقد والأديب، ثم عوامل وأسباب تميزه في الجانب الألسوني والنقدي، ثم نقدم قراءة وصفية لكتابه الأسلوبية والأسلوب، والذي لخص فيه الكثير من قضايا الأسلوبية، فهو يعد مرجعا مهما في هذا الباب، إضافة إلى إثراء هذا الفصل بتعريفات الأستاذ للأسلوبية في مؤلفاته، وبجانب من المصطلحات التي تطرق لها.

أولا: التعريف بعبد السلام المسدي:

1- التعريف بحياته وسيرته العلمية:

الأستاذ عبد السلام المسدّي من مواليد 26 يناير 1945 بمدينة صفاقس تونس، أكاديمي وكاتب ودبلوماسي، كان وزيرا للتعليم العالي في تونس سابقا. وهو من أشهر الباحثين العرب المعاصرين في مجال اللسانيات واللغة، ويُعدُّ من النقاد القلائل الذين ترسخت أسماؤهم في

حركة النقد الأدبي، ليس في تونس فقط؛ بل في العالم العربي، فعلى مدار مسيرته الطويلة، قدم عطاءً وافراً أسهم في ثراء الحركة النقدية العربية. وله بالإضافة لهذا، إسهامات في العمل السياسي والدبلوماسي والأكاديمي؛ حيث عمل أستاذا للسانيات في الجامعة التونسية، كما تولى عدة مناصب سياسية، من بينها حقيبة التعليم في تونس.

حصل على الإجازة في اللغة العربية والآداب العربية من جامعة تونس 1969 ، ثّم التبريز في الأدب العربي 1972، ثم دكتوراه الدولة 1979، ثم تقلد مناصب إدارية وهي:

- وزير التعليم العالي والبحث العلمي 1987 – 1989.
- سفير لدى جامعة الدول العربية 1989 – 1990.
- سفير لدى المملكة السعودية 90-1991.
- استئناف التدريس في الجامعة منذ أكتوبر 1991.
- عضو اتحاد الكتاب التونسيين.
- عضو مجامع اللغة العربية في تونس ودمشق وبغداد وطرابلس.
- أمين سرّ معجم الدوحة التاريخي للغة العربية.
- ممثل المجمع التونسي لدى اتحاد المجامع العربية.

2- جهوده العلمية ومؤلفاته:

ألف الأستاذ مؤلفات كثيرة، وأشهرها:

- الأسلوبية والأسلوب (1977)
- التفكير اللساني في الحضارة العربية (1981)
- قراءات مع الشابي والمتنبي والجاحظ وابن خلدون (1981)
- النقد والحداثة (1983)

- قاموس اللسانيات (عربي فرنسي – فرنسي عربي) مع مقدمة في المصطلح (1984)
- الشرط في القرآن على نهج اللسانيات الوصفية (1985)
- اللسانيات من خلال النصوص (1986)
- اللسانيات وأساسها المعرفية (1986)
- مراجع اللسانيات (1989)
- مراجع النقد الحديث (1989)
- قضية البنيوية: دراسة ونماذج (1991)
- ما وراء اللغة (1994)
- النظرية اللسانية والشعرية في التراث العربي من خلال النصوص (1977)
- في آليات النقد الأدبي (1994)
- المصطلح النقدي (1994)
- في آليات النقد الأدبي (1994)
- أبو القاسم الشابي في ميزان النقد الحديث (1996)
- مباحث تأسيسية في اللسانيات (1997)
- فتنة الكلمات (1998)
- العولمة والعولمة المضادة (1999)
- اتقوا التاريخ أيها العرب (1999)
- الأدب العجيب (2000)
- العرب والسياسة (2001)
- بين النص وصاحبه (2002)

- رواية تنتظر من يكتبها (2002)
- العربية والإعراب (2003)
- السياسة وسلطة اللغة (2007)
- تونس وجراح الذاكرة (2011)
- العرب والانتحار اللغوي (2011)
- الهوية العربية والأمن اللغوي: دراسة وتوثيق (2014)
- البوح اللطيف (2015)

نال الأستاذ جوائز كثيرة نظير هذا التميز والإبداع:

- جائزة الدولة (تونس) 1985.
- الجائزة التقديرية من مؤسسة باشراحيل للإبداع الثقافي(بيروت) 2008
- جائزة سلطان العويس في الآداب (الإمارات) 2009
- جائزة العويس الثقافية للدراسات الأدبية والنقد، الدورة الحادية عشرة 2008–2009
- الجائزة التكريمية من مؤسسة يماني الثقافية (القاهرة) 2010
- جائزة السلطان قابوس للثقافة والفنون والآداب (مسقط) 2015 .

3– مكّونات الّرؤية الأسلوبية عند الناقد المسدّي:

يعدّ الناقد التونسي عبد المسدي ممن ملكوا غرابيل النقد، واعترف بهم الجميع في هذا الميدان، وليس ميدان الأدب فحسب، بل ميدان السياسة كذلك. فقد كشف عن نفسه قبل أن يكشف القارئ عنه، فلا تخلو مدونة إلا واستدلت بما قال وبما كتب. ولقد ارتأينا الانطلاق من مكونات الرؤية الأسلوبية عنده. فكيف اهتدى المسدي إلى رؤيته النقدية الأسلوبية؟ وما المكونات التي ميزت الرؤية النقدية في مدوناته.

3-1- المرجعية الفكرية بين التراث واللسانيات الحديثة:

جمع المسدي بين الرؤية اللسانية الحداثية الغربية وبين العربية والتراثية، "إنه بتتبعنا لمصادر الآراء المنبثقة عن تناقل المسدي للقضايا المختلفة في الكتاب، وطبيعة هذه القضايا، والسياقات المتنوعة لمصطلح النقد في الكتاب والأسماء المذكورة على هامش التحليل أو الاستدلال والاستشهاد، نكتشف تلك المرجعية اللسانية المخيمة؛ بل والمهيمنة من جهة، والحداثية من جهة أخرى"[1]. وهي مرجعية أولا لسانية، وتتلخص في قول المسدي: "وهي أن الممارسة التطبيقية للتحليل الأسلوبي لا يمكن أن تؤتي ثمارها إلا إذا استندت في المنطلق إلى التكوين اللساني الدقيق"[2].

أشار المسدي في مدوناته إلى أهمية "اللسانيات"، ومنها قوله: "ومن المعلوم أن اللسانيات قد أصبحت في حقل البحوث الإنسانية مركز الاستقطاب بلا منازع، فكل تلك العلوم أصبحت تلتجئ في مناهج بحثها، وفي تقدير حصيلتها العلمية إلى اللسانيات وإلى ما تنتجه من تقديرات علمية وطرائق ..."[3]. لقد أصبحت للسانيات مكانة كبيرة؛ "فاللسانيات اليوم موكول لها مقود الحركة التأسيسية في المعرفة الإنسانية لا من حيث تأصيل المناهج وتنظير طرق إخصابها فحسب، ولكن أيضا من حيث إنها تعكف على دراسة اللسان فتتخذ اللغة مادة لها وموضوعا"[4].

أما ما يثبت المرجعية اللسانية العربية هو قول المسدي: "فمجالنا العربي قد شهد من خلال الحقبة الماضية ظاهرة لطيفة ظلّ المهتمون يرصدونها بمواظبة تبوح بالثقة يوماً ويوماً تشي

---

[1]- إدريس بن فرحات، المرجعية المحددة للآراء النقدية في القضايا المتعلقة بالنقد عند عبد السلام المسدي في كتاب "الأدب وخطاب النقد"، جامعة قاصدي مرباح، ورقلة.

[2]- عبد السلام المسدي، في آليات النقد الأدبي، دار الجنوب للنشر، تونس، دط، 1994، ص60.

[3]- عبد السلام المسدي، مباحث تأسيسية في اللسانيات، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، ط1، 2010، ص10.

[4]- عبد السلام المسدي، التفكير اللساني في الحضارة العربية، الدار العربية للكتاب، ط2، 1986، ص09.

بالحذر- فمن خلال علم الأسلوب، تسللت اللسانيات إلى النقد الأدبي. ومن خلال المنهج البنيوي، أطلّ النقد على مقولات علم اللسان، فاستعارها حتى كاد يتملكها. وامتزجت الرؤى"[1].

وتظهر تلك المرجعية من خلال تنوع المؤلفات والأسماء الغربية عند الاستشهاد؛ فقد كانت المتكأ له، "والوقوف على ذلك ليس عصياً"، فلقد تنوعت الأسماء والمؤلفات الملهمة. وكان للاستشهاد بها مساحات واسعة في الكتاب، سنحاول أن نستعرضها أو على الأقل بعضها، للاستدلال بها نحن كذلك في ما نريد إبانته وتفسيره؛ فالأسماء عدة كإدوار سابير، جاكبسون، ليفي شتراوس، ريفاتير، تودوروف..."[2].

وهذه الأسماء تثبت المرجعية الغربية للنقاد العرب ولا تختص ب"المسدي" فقط، وتظهر "فيما يطرحه المسدي من آراء وأفكار في القضايا النقدية المثارة في كتاب (الأدب وخطاب النقد)، والمصاحبة لمصطلح النقد، دلائل وملامح عدة، هي تحصيل للحاصل من جهة، وفي نفس اللحظة، تأكيد على ذلك من جهة ثانية، حتى و لو كان من طرف خفي، ومن تلك الدلائل والملامح والمؤشرات، ما انبرى المسدي إلى الإدلاء به والإفصاح عنه، خاصة في الفصلين التاسع والعاشر من الكتاب (في أدبيات الغموض النقدي) و(الاحتفاء الثقافي والعقل النقدي الغائب)"[3]؛ إذ عرض آراء بعض النقاد.

وممن تطرقوا كذلك إلى المرجعية النقدية أو مكونات الرؤية النقدية، نجد "مرابطي نسيم" تحت عنوان "مسار النظرية النقدية عند عبد السلام المسدي"، "كما أن هذا الباحث عالج أكثر المسائل النقدية من زاوية لسانية، فكان الوحيد الذي اقتحم ميدان النقد، سالكاً في ذلك معبر الحقول اللسانية. ولا نقصد بذلك انعدام البحث اللساني في الوطن العربي، بل نقصد بما قلناه

[1]- عبد السلام المسدي، الأدب وخطاب النقد، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، ط1، 2004، ص67.

[2]- المرجع نفسه، ص06.

[3]- المرجع نفسه، ص07.

تعطّل الفكر العربي على إضفاء الوعي اللساني في مجالسنا العلمية على دراسة اللغة والأدب"[1].

وما يثبت كذلك المرجعية اللسانية العلمية، قول الباحث: "فإنه من الطبيعي أن نلاحظ مع مرور الوقت أنه لا جدوى من الاستغناء عن المنهج اللساني، فقد بذل الباحث طاقة جهده داعياً في ذلك للتمسك بالعلوم اللغوية القائمة على الوصف والاختيار، واستقراء الظواهر وصولا بها إلى الاستنتاج، بعيداً عن المواقف المعيارية، والتقييم وإصدار الأحكام؛ فليست هناك حقائق مطلقة تقر بالخطأ والصواب، ولكن هناك المنهج التجريبي الذي ينطلق من السبب إلى النتيجة"[2].

والواقع أنّ المرجعية النقدية هذه هي مرجعية تعتمد على أسس علمية، وما يؤكد مرجعية المسدي اللسانية كذلك، قوله: "وعلى مناهج البحث في العلوم الإنسانية دين كبير لدروس سوسير لا يقل عن دين نظرية المعرفة بصفة عامة"[3]. وهذا كاف لنقول إن مرجعية المسدي النقدية أساسها لساني قبل كلّ شيء.

3-2- الوعي بالمنهج الأسلوبي:

يثبت المسدي حسب رأي "عبد القادر المهيري" وكذلك "نسيم مرابطي" أن الأسلوبية ترتكز على أسس علمية، وهذا دليل على وعيه بالمنهج الأسلوبي: "يطالعنا في المقدمة التي وضعها (عبد القادر المهيري) لكتاب (عبد السلام المسدي) (الأسلوبية والأسلوب)، إلى الإشارة أنّ مناهج البحث الحديثة الموصولة بعلم اللغة أو المشتقة منه اكتسبت من الصرامة العلمية، وتجنبت النزاعات الذاتية والذوقية؛ بحيث لم يعد في وسع الدارس تجاهلها أو الاستغناء عنها،

[1]- مرابطي نسيم، مسار النظرية النقدية عند عبد السلام المسدي، ماجستير، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 2010، ص11.

[2]- المرجع نفسه، ص11.

3- عبد السلام المسدي، ما وراء اللغة بحث في الخلفيات المعرفية، مؤسسات عبد الكريم بن عبد الله للنشر والتوزيع، تونس، دط، ص08.

إلا أنه ينبه في الوقت نفسه إلى أن التوفر على هذه المناهج لا يجدي ولا يؤتى ثماره ونتائجه المرجوة مالم يحذر القارئ بعض المزالق"[1].

كما أنّ الدراسات الأسلوبية التي قام بها المسدي يغلب عليها الطابع التعليمي البيداغوجي، وما يبرر هذا هو تعريف القارئ العربي بالنظريات الحديثة الناشئة في تربة فكرية وثقافية خصبة، تتمثل في الاتصال بالفكر الغربي النقدي، وذلك بنقد المفاهيم وعرضها، والبحث في مرتكزاتها وأصولها المعرفية والعميقة في الوقت نفسه"[2].

لقد استند المسدي كما ذكرنا على الوعي بالنظريات النقدية الغربية وفق أسس علمية: "كما ركز الباحث على المنهج العلمي بالخروج من طور الحقيقة الذاتية إلى طور الحقيقة العلمية على حدّ تعبيره، معتمدا في تلك التجربة على كشف المعارف بالاستقراء ورصد النتائج انطلاقا من مبدأ الشك ونسبية التسليم بالحقائق، ورفض المسلمات للوصول إلى ما تصح البرهنة عليه كليا، انطلاقا من الإطار الشامل- النظرية- للانتهاء إلى - العالم الأصغر- وهو الخطاب النصي المتداول، وبالتالي تكون هذه السبل العلمية هي التي يتحدد على إثرها الأسلوب، وهي التي تشكل المقومات الأساسية للدراسات الأسلوبية في تحقيق الجوهر النقدي"[3].

3-3- الاشتغال على موضوع المصطلح النقدي التراثي عند المسدي:

يعد المصطلح عند الأستاذ من الثوابت المعرفية؛ "فالمصطلح يبتكر فيوضع ويبث، ثم يقذف به في حلبة الاستعمال، فإماّ أن يروّج فيبث، وإماّ أن يكسد فيختفي. وقد يدلي بمصطلحين أو أكثر لمتصوّر واحد، فتتسابق المصطلحات الموضوعة، وتتنافس في سوق الرواج، ثم يحكم

[1]- المرجع نفسه، ص30.

[2]- المرجع نفسه، ص45.

[3]- المرجع نفسه، ص45.

التداول للأقوى فيستبقيه، ويتوارى الأضعف"[1]. ويبقى الرواج والإشهار هو الحكم: "إنّ تحديد أهم الثوابت المعرفية عند الباحث لقضية المصطلح يستدعي الحاجة إلى الكشف عن طبيعة القاعدة النظرية المنطلق منها في تحديد الآليات التي تتولد على أساسها المصطلحات"[2].

ومرد هذه المصطلحات هو اللسان العربي: ف "اللسان العربي يؤثر بشكل حاسم في آليات توليد المصطلحات ضمنها، ولا سيما عندما تظهر الحاجة إلى وضع ألفاظ عربية انطلاقا من مصطلحات أجنبية تأتينا في معظمها اليوم مسبوكة في لغات منحدرة جميعاً من فصيلة غير الفصيلة التي ينتمي إليها اللسان العربي"[3].

ويعدّ كتاب المسدي (المصطلح النقدي) – حوصلة لهذا المجال؛ إذ يشكل تأسيساً معرفياً (لغوياً ونقدياً) حقيقياً لعلم المصطلح النقدي، ويحيط به من مختلف أركانه، ويفجّر الإشكالية من بؤرها المركزية بمحموله المعرفي"[4].

ثانيا: الجهود التنظيرية للأسلوبية في كتاب الأسلوبية والأسلوب:

1- التعريف بالكتاب ومنهجه:

بداية قبل التعريف بالكتاب، نتساءل لماذا عمد الدكتور عبد السلام المسدي تقديم هذا الكتاب؟ ليكشف لنا الغلاف الخارجي والمقدمة جوهر إجابة هذا التساؤل ودواعي تأليف العمل. وقد تمثل في غموض والتباس حقل الأسلوبية من التنظير والتطبيق والمصطلح، وكذلك صلتها بالتراث أم بالحداثة، أي بالبلاغة والنحو العربي، أم باللسانيات والنظريات اللغوية الحديثة. وقد مهد لهذا من خلال نص الغلاف الخارجي الأخير: "إن الأسلوبية في هويتها النوعية ما انفكت

[1]- المرجع نفسه، 129، ص14.

[2]- المرجع نفسه، ص128.

[3]- المرجع نفسه، ص130.

[4]- يوسف وغليسي، إشكالية المصطلح في الخطاب النقدي العربي الجديد، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، لبنان، ط1، 2008، ص13.

تتلابس بحقول تتاخمها وليست منها، حتى إن بعض النقاد والباحثين تتداخل لديهم خصوصيات معرفية يحملونها على علم الأسلوب وليس له إليها من سبيل ولا له عليها طائل"[1]. ثم بّين منهج الكتاب أكثر وهدفه الأول مضيفا: "ولعل سلامة مصير الأسلوبية في رحاب الفكر العربي تقتضي إيضاح الفواصل بين هويات معرفية تقبل التضافر والمعاضدة"[2].

ولا شك أن هذا التداخل بين الأسلوبية وعلوم أخرى، جعلها على ضرورة من البيان والتوضيح حتى لا تنصهر في تلك العلوم، وتحافظ على ما صنعته لها اللسانيات من مكانة حين بدأ النظر والاشتغال على اللغة في بنيتها، وللأسلوبية علاقة بهذا.

من خلال عنوان الكتاب "الأسلوبية والأسلوب"؛ يبدو جليا أن عبد السلام المسدي عقد الكتاب في موضوع الأسلوبية كعلم، ثم جاء الأسلوب تابعا لذلك. ففي مقدمة الطبعة الثانية، أوضح ميزة جوهرية للأسلوبية، وقد سماها "علم الأسلوب"، فكأنه يقصد منذ المقدمة أن الأسلوب هو المادة الخام، والأسلوبية هي "علم الأسلوب"، موضحا أن تمجيد كل ما هو حديث، جعل منها تنال الاهتمام والفضول العلمي. غير أن ما يعتري العلوم اللسانية والنقدية الأخرى من الثغرات يعتري وينطبق كذلك على الأسلوبية كعلم: "وشأن كل حديث أن تمتد إليه يد المجاذبة: مرة إلى الإعجاب، فالتمجيد، فقصر الحداثة عليه، ومرة إلى الاستغراب والتحرز فالاستعجام"[3].

ثم يضيف المسدي بيانا عن الأسلوبية أنها حظيت في الآونة الأخيرة بزخم كبير من الاهتمام، حتى شهد الخوض فيها غزارة وكثافة. وقد يكون هذا من الطبيعي على شاكلة الشروح بحكم الغموض الذي يعتري العلم في بداياته، أي يكون بحاجة إلى تبسيط الغامض الأجنبي، وكذلك مقارنته وموازنته بما قابله في البيئة العربية، وأخيرا محاولة تطبيقه على بعض المدونات،

[1]– عبد السلام المسدي، الأسلوب والأسلوبية، صفحة الغلاف الأخير.

[2]– نفس المصدر، الصفحة نفسها.

[3]– مقدمة المصدر، ص5.

خاصة أن تطبيق المناهج الجديدة يمنح العلم جانب الجدّة والحداثة في الطرح، فيميل إليه الباحثون سعيا نحو اكتشافه.

ومما جعل الأسلوب يتميز ببعض الخصوصيات، كانت الأسلوبية تترابط مع حقول لغوية ومعرفية كثيرة، وهذا ما جعلها تتلابس كما يرى الدكتور المسدي بدرجة التداخل والخلط: "حتى إن بعض النقاد والباحثين تتداخل لديهم خصوصيات معرفية يحملونها على علم الأسلوب وليس له إليها من سبيل ولا له عليها طائل"[1]. وهذا مشهود في مجال التطبيق والتداخل بين الأسلوبية في مناهلها اللسانية والأسلوبية في مجالاتها النقدية، لأن هذه الخاصية تعطي سمة البينية؛ فالعلوم البينية غالبا ما يميزها التداخل ما لم يقُم أهل الاختصاص. ومنها يتميز حدود كل علم فيها، وهذا ما قصده الدكتور: "ولعل سلامة مصير الأسلوبية في رحاب الفكر العربي تقتضي إيضاح الفواصل بين هويات معرفية تقبل التضافر والمعاضدة، ولكنها تأبى التعاضل والمخالطة[2].

غير أن هذا التداخل بين الأسلوبية والعلوم الأخرى، ورغم تعقده أحيانا في معرفة الصلة بينهم والحدود الفاصلة كذلك، وبين أحيان أخرى في ربطها بالبلاغة والنحو والبلاغة الغربية الممنطقة، فهو لا يضمر العلاقة بين الأسلوبية واللسانيات كمهدها التأسيسي الأول والنقد الأدبي كمجالها التطبيقي الخصب؛ فهي "ترتبط باللسانيات ارتباط الناشئ بعلة شؤونه"[3].

ومن الطبيعي أن يجعل الأستاذ هذا التقديم في تحديد مجال العلم ومقاصده وأهدافه، فالأسلوبية شقت هذا الطريق من الميلاد مع اللسانيات بغض النظر عن أحوالها، ثم فرضت نفسها بعد ذلك في المجال النقدي حتى أصبحت تحظى بالتطبيق الواسع في الساحة العربية.

---

[1]– مقدمة المصدر، ص5.

[2]– مقدمة المصدر، ص5.

[3]– مقدمة المصدر، ص5.

وقد رافق ذلك الزخم المصطلحي، ثم الترجمة والتعريب، وكذلك التوليد، ثم إحياء واستخدام المصطلحات التي ظهرت مع تطبيقات الأسلوبية على المدونات العربية.

ويشير المسدي في المقدمة هذه إلى إشكالية جوهرية تتمثل في تداخل مفهوم ومجالات النحو مع الأسلوبية. ولعل مصدر هذا التداخل أن كليهما ينبع من الثورة اللسانية الغربية منطلق القرن الماضي، غير أن الفرق بينهما كما يوضح الأستاذ أن النحو تصور نظري لظاهر اللغة؛ أي صورية، والأسلوبية خلاصة علوم أخرى: "ذلك أن الأسلوبية لا تتطاول على النص الأدبي فتعالجه إلا ولها منطلقات مبدئية تحتكم فيها إلى مضامين معرفية، وعلم الأسلوب يقتضي في ذلك ضوابط العلوم شأنه شأن علم النفس وعلم الاجتماع"[1].

ثم يناقش المؤلف مسألة مهمة جدا، وقد رأى أن الكثير من الباحثين العرب من أخل اللغة والأدب والنقد قد أخطأ فيها، وأن طبيعة العلاقة بين الأسلوبية والبلاغة هي علاقة تقليد واجترار بعيدا عن الطرح التجديدي للأسلوبية، **وهنا يبين هذا الجانب معتبرا إياه مغالطة علمية**، موضحا الغموض الذي يشوبه بأن الأسلوبية اتخذت سمتها الحداثية من خلال المنهج، والعلم حتى يكون متميزا، ليس شرطا أن يكون جديدا في الطرح النظري، ولم يسبق إليه أحد من قبل، وإنما وضع سبيل منهجي في تطبيق العلم وتمثيل إجراءاته، هو بمثابة التجديد، وهذا ينطبق على الأسلوبية حين صاغت أسسا منهجية للتطبيق في مجال النقد حتى اكتسبت منهجا يسمى "المنهج الأسلوبي".

ولم يكن هذا حسب المسدي يخص الأسلوبية وعلاقتها بالبلاغة فحسب، بل كذلك فقه اللغة وعلاقته بعلم اللغة، فكل علم يبنى على علم سابق يضيف له من جانب المنهج أو المجالات النظرية ما أمكن في حدود حاجته، ودواعيه التطبيقية. يقول المسدي في هذا: "ومن بديهيات

[1]– مقدمة المصدر، ص6.

المعرفة أن العلم لا يستقيم عوده بين العلوم، ولا يتفرد بهوية تحده بالجمع بين إخوته، إلا إذا ظفر بمادة في البحث لم يسبق إليها سابق، أو اكتشف منهجا مستحدثا يتناول به مادة لم يسبق لعلم من العلوم أن تناولها بذلك المنهج، وعلم الأسلوب من ضروب الصنف الثاني"[1]. ولا شك أن هذا التوضيح، وهو ناتج عن عالم باللسانيات، نهل من الحداثة، وله دراية كافية بالتراث، لذا يتسنى له توضيح المسألة خير توضيح.

ولا يقتصر كلام الأستاذ في توضيح العلاقة بين البلاغة والأسلوبية على هذا المجال فحسب، فقد نجد نفس الإشكال مع حقول لغوية أخرى، لذلك جاز أن نتخذ ما توصل إليه المسدي قاعدة ومعيارا؛ أي التجديد المنهجي من قبيل حداثة العلم بذلك لا نتحرج في الفصل بين البلاغة والأسلوبية، ولا نجزم تماثل العلمين. والاكتفاء بالتراث والاستغناء عن الحداثة. خاصة أن الأمر يتعدى أحيانا الجانب العلمي إلى الجانب العاطفي الذي يحجب أحيانا الطرح الموضوعي. ولا يعني هذا عدم الاعتزاز والافتخار بالبلاغة العربية والموروث اللغوي عموما.

ومن القضايا الجوهرية في الجانب الأسلوبي التي ركز عليها المسدي قضية المصطلح، فقد مزج دراسته النظرية للمنهج الأسلوبي بالمصطلحات. وقد أدرجها في ملحق الكتاب؛ ذلك أن المصطلح جوهر العلم، ومفتاح الولوج إليه. وتزايد هذا المشكل نتيجة ما يعتري المصطلح اللساني العربي من اضطراب ومشكلات على مستوى الصياغة، ودقة التوظيف ووضوح معنى المفاهيم الأسلوبية، لذلك فإن إقران المسدي للمباحث الأسلوبية بنماذج مصطلحاتها من الصواب المنهجي. وقد خص هذه الطبعة بهذا الاهتمام والبحث المصطلحي، قائلا "ولم نعدل من بناء الكتاب إلا من الناحية الاصطلاحية[2].

[1]– مقدمة المصدر، ص7.

[2]– مقدمة المصدر، ص7.

أما عن منهجنا في شرح التأسيس النظري الأسلوبي للدكتور، فسيكون من خلال العناوين والأقسام التي أوردها في كتابه، ذلك أن دراستنا تكتفي بالوصف والتحليل، والوصف بداهة يقتضي نقل المحتوى كما هو، ثم نضيف تحليلا وتعقيبا على جهوده الأسلوبية التي عقدها وأوضح هدفها: "فإنما ذلك امتثال منا للخطوة التي صادفتها الأسلوبية لدى المثقف العربي: أديبا وناقدا حاكما وباحثا مختصا"[1].

وقبل صياغة المسدي تمهيد الكتاب، ختم الأستاذ عبد القادر المهيري المقدمة مثمنا قيمة الجهد وموضوع الطرح في ظل حاجة المجتمع العربي إلى شرح النظريات اللسانية الغربية، والتي يعتريها بعض الغموض، إضافة إلى توضيح منهج تطبيقها. كما تزيد هذه القيمة بشرح مصطلحات العلم، والتي لها دور في تسيير الجانب التطبيقي الإجرائي، خاصة أن كتابات وشروح الأستاذ عبد السلام المسدي تتجاوز الوصف إلى عمق التحليل والنقد، حيث يلخص هذا المهيري قائلا: "ولا نبالغ إن أكدنا في النهاية بأن هذا الكتاب يمثل خطوة هامة في نقل النظريات اللغوية الحديثة إلى القارئ العربي، نقلا لا يكتفي بالرواية إنما يتجاوزها إلى النقد والتقييم".

بعد هذا التقديم، جاء تمهيد المؤلف للكتاب موضحا أن الكتاب هو ثمرة جهود التدريس في هذا المجال اللساني بين (1974 – 1975) بتونس، وكان مقياس التدريس يسمى الأسلوبية النظرية والتطبيقية، ويليها مقياس "الأسلوبية في النقد الأدبي، مناهج اللسانيات في تعريف الأسلوب الأدبي". أما هذا الكتاب، فقد اشتمل على قسمين: الجانب الفكري للأسلوبية، الملاحق الخاصة بالمصطلح والأعلام وتراجمهم، والذي يهمنا هو القسم الأول المتضمن للزخم الفكري الأسلوبي، وعلاقته بالجانب التطبيقي الفني، والقراءة النقدية للأدب.

[1]– مقدمة المصدر، ص7.

2- القضايا الأسلوبية التي عالجها الكتاب:

2-1- الإشكال وأسس البناء:

يقصد عبد السلام المسدي بهذا العنوان تحديدا، السياق المعرفي الذي تأسست فيه إشكالية الأسلوبية، أو الطرح الأسلوبي في النقد، بعد أن جاءت لها اللسانيات كفكر ومدرسة. ولا يتضمن أو يشمل هذا التراث، وإنما يتعلق بالحداثة أو المعاصرة. وقد فرق الدكتور بينهما جليا، حيث لم يجعل الأولى مراجعة للثانية، بل هما توأم: "الحداثة والمعاصرة توأم يتجاذبان الفكر العلماني الحديث"[1]. وإن دل هذا على شيء، فإنه يدل على دقة الدكتور في ضبط السياق التاريخي لعلوم اللغة عامة والأسلوبية خاصة. كما يدل على أن التطور الذي حصل في جميع الميادين شمل حقل الأسلوبية، لذلك تداخل في هذا المجال جانب التاريخ بين المعاصرة والحداثة وجانب الانتقال للعرب، أين كان من البديهي التصارع في الآراء حوله من الشرعية والوضوح، وهذا السياق الإبستيمولوجي الذي تأسست معه الأسلوبية كفكر ثم كعلم.

وإن الفهم الإستمولوجي أو الأصولي للعلم بصفة عامة، هو المفتاح الأول تطبيقا وتنظيرا، لذلك اعتبر الدكتور أن الممارسة النقدية العربية تفتقر إلى البعد النقدي والبعد الأصولي: "حتى إننا نكاد نجزم وجود أصولية للأدب والنقد، بل ولفلسفة المناهج نفسها، فقصر بذلك النظر الأصولي الإبستمولوجي"، فكان لزاما أن ترجح كفة الأخذ.

ولا شك أن هذا سياق الإشكال الذي يمهد به المفكر المسدي هذا القسم من الكتاب، هو موضوع شائك في نظرة الناقد العربي للأسلوبية والنقد الأسلوبي، خاصة ما يعتري الحقول اللغوية من خطورة الفكر الذي تأسست فيه، والتي عبر عنها صراحة المسدي بأنها ذات توجه علماني، وقلما نجد في كتابات وشروح الباحثين العرب المعاصرين إقران الدرس اللغوي بهذه المسائل الإيديولوجية.

[1]- المصدر، ص19

ولا يقصد الأستاذ طبعا منع الأسلوبية كعلم في تحليل وقراءة النصوص، إنما المقصود هو توخي الحذر من أخذها على عمومها، إذ الأولى تلقيها والنهل منها: "فلا مناص إذن من أن تتبأ نظرية الأسلوب المنزلة التي نعرف ضمن تيارات النقد المتجددة ومجاريها اللسانية العامة[1]. وهنا نلحظ مدى التوازن في فكر الأستاذ بين منع وجواز الأخذ من الفكر الغربي. وذلك مغالطة وقع فيها الكثير من الباحثين، خاصة مع تمجيد التراث إلى درجة اعتبار الوافد الغربي لا طائل منهجيا منه، إضافة إلى مخافة عدم ملائمة للسياق والنص الأدبي العربي.

وبعد كلام الدكتور عن هذا الإشكال، قدم مراحل نشأة وتطور الأسلوبية في مهدها اللساني الغربي بدءا بشارل بالي، حيث إن بداية تأريخ الدكتور للأسلوبية، دليل على عدم اعتقاده ولا إطلاعه على أي موروث غربي يسبق بوادر شارل بالي الأسلوبية 1902. ورغم الجزم بأنه صاحب الريادة في هذا، إلا أن صلة الأسلوبية باللسانيات حفظت جهود بالي كما أشار الأستاذ، خاصة أن الأسلوبية كما يرى، تعرضت إلى هجمات أخرى كفرت بعلمانيتها. ومقصود الدكتور بالعلمانية، أن اللسانيات في أوروبا نشأت على أنقاض الفكر المركزي وتقديس الفلسفة الأحادية الغربية، فجاءت اللسانيات في إطار الشكل والمادية، ومعلوم أن التركيز على النسق والمادة، يلغي ويحبط قدسية الفكر الأحادي، بالتالي انتقلت اللسانيات والأسلوبية إلى علمانية المنهج. وقد جاءت كما يذكر الأستاذ في ألمانيا ما يكفر لها قائلا: "وهذا المنهجي العقلاني في منهج البحث هو الذي أسس ردود الفعل المضادة فتولد على يد الألماني منهجا أسلوبيا لا مجازفة في شيء أن ننعته بتيار الانطباعية، فكل قواعده العملية منها والنظرية قد أغرقت في التحليل وقالت بنسبية التعامل وكفرت بعلمانية البحث الأسلوبي".

من هنا، يحق للناقد العربي التساؤل عن أي أسلوبية يأخذ بها، وقد كان هذا طبعا في بوادر هذا العلم. لكن وبعد مقدار زمني معين، كأن نقول تطبيقا لتقسيم عبد السلام المسدي من

[1]– المصدر، ص19.

الحداثة والمعاصرة أن الأسلوبية المعروفة الآن هي امتداد لأفكار بالي. أما الأسلوبية الثانية، وهي المتضمنة في لسانيات النص، والتي تنحو المنحى الضمني والقراءة والتأويل، هي امتداد للأسلوبية الألمانية، وهذا ليس على سبيل اليقين، بل على سبيل المقاربة. ولم يوضحه عبد السلام المسدي، بل استنتجناه استنتاجا.

ثم بين الدكتور فكرة جوهرية دقيقة أن العلم بصفة عامة ينطلق من الخلفية النظرية، ثم يتجه نحو التجرد منها إلى اكتساب جانب إجرائي. ومعنى ذلك، أن الأسلوبية تجردت من تلك الخلفيات المعرفية إلى الاستثمار الواضح في النقد الأدبي وقراءة النصوص، وهذا هو مجالها الذي اكتسبت فيه القيمة الإجرائية، لأن العلوم معيار نفعيتها يتأسس من جانبها الميداني التطبيقي. ومنه استقرت الأسلوبية كعلم لساني نقدي: "إن الأسلوبية اليوم هي من أكثر أفنان اللسانيات صرامة على ما يعترى هذا العلم الوليد ومناهجه ومصطلحاته من تردد، ولنا أن نتنبه بما سيكون للبحوث الأسلوبية من فضل على النقد الأدبي واللسانيات معا"[1].

هكذا شقت الأسلوبية – كما بين المسدي وأرخ لها – طريقها نحو النقد الأدبي من الجانب الصوري اللساني إلى مجال الخطابات والنصوص، بل كانت من أوضح ثمار اللسانيات ذات التأثر الواسع في جميع المجالات اللغوية، فمن منطق البينية اللساني إلى أسلوبية شارل بالي، إلى الأسلوبية الضمنية الألمانية، تأسست الأسلوبية على شكلها ومنهجها المعاصر بما فيها من اختلاف التوجهات، لذلك كثيرا ما نسمع الأسلوبية أسلوبيات، وطبعا منها التعبيرية والإحصائية، والتي حتما سيوضح لنا الدكتور فيما سيأتي الكثير منها.

غير أن كل علم يولد إلا وتولد معه جملة من القضايا والأسس، بل تساؤلات جديدة، وهذا ما حدث بطبيعة الحال مع الأسلوبية، والتي انتقل فيها السؤال من موقع وماهية الأسلوبية في الدرس اللغوي إلى سياقها ومجالاتها الأدبي النقدي حول آليات قراءة النصوص وفق هذا المنهج

[1]– المصدر، ص25.

الجديد. غير أن القضية الأكثر تعقيدا، والتي يحق وصفها بالشائكة، هي قضية المصطلح الأسلوبي، حيث تمخض عن هذا الفكر والمنهج الجديد مصطلحات كثيرة ومتشعبة عالجها عبد السلام المسدي وفق منظورين أو مستويين، مستوى أول تنظيري ومستوى آخر تطبيقي في آخر الكتاب، جاء في شكل ملحق أو معجم للمصطلحات التي تضمنها حقل الأسلوبية. غير أن هذا أشرنا له في باب قيمة المصطلح، إذ سنعالج فيما سيأتي بهذا القسم "الإشكال وأسس البناء"، شرح الدكتور فيه بعض المصطلحات الفارقة في هذا الحقل.

من بين المصطلحات التي رافقت ميلاد الأسلوبية الغربية مصطلح "الشعرية"، وقد ترجمته بمصطلح البيوتيقا كذلك، وهي تعريبا لا ترجمة. غير أن الاستخدام ظل يجمع بينهما عند الباحثين، لكن الدكتور عبد السلام المسدي يختار ترجمتها بالإنشائية. وترتبط هذه المصطلحات بعلم العلامات[1]. فهي مشتركة مع الأسلوبية. ولو نعود إلى المصطلح، لوجدنا أن اختيار الأستاذ المسدي لمصطلح الإنشائية منطقي جدا، وليس هذا – في رأينا – نتيجة أي مغالطة أو غموض في مصطلح "الشعرية" أو "البيوتيقا". وإنما هو سعة واتساع، وشمولية تمييز مصطلح "الإنشائية" عن جميع أنواع وأصناف الخطابات والأجناس الأدبية.

ولم تكن هذه الحركة المصطلحية كما يرى المسدي مجرد اصطلاح، بل هي على حد تعبيره: "هذه المكتسبات المبدئية تكاد تنبئنا بأن تحولا جذريا في الأدب وتياراته النقدية، وسيكون منه تولد جديد"[2]. ثم يتطرق الأستاذ إلى أن علم الأسلوب أو الأسلوبية يجب أن يتجاوز الآن الطرح الصوري النظري التجريدي إلى الجرأة النقدية. وهو محمل بالمصطلحات الجديدة. خاصة أن المصطلحات من بين القضايا العلمية الواصلة بين العلم وتطبيقه، فقد نجد بعض المفاهيم

[1]– المصدر، ص25.

[2]– المصدر، ص26.

النظرية تختفي مع ولوج العلم حالاته التطبيقية، غير أن الأسلوبية تتضح فيها كثيرا من هذه المفاهيم في النقد الأدبي.

ومن بين المصطلحات التي رافقت ميلاد الدرس الأسلوبي الغربي مصطلح "الشعرية". وقد تم نقله بمصطلحه كذلك تعريبا لا ترجمة. غير أن الاستخدام ظل يجمع بينهما عند الباحثين، لكن الدكتور المسدي يختار ترجمتها "بالإنشائية". وترتبط هذه المصطلحات بعلم العلامات[1]، فهي مشتركة بين السيماء والأسلوبية. ولو يعود إلى المصطلح لوجدنا أن اختيار الأستاذ المسدي لمصطلح الإنشائية منطقي جدا، وليس هذا –في رأينا– نتيجة أي مغالطة أو غموض في مصطلح "الشعرية"، وإنما ذلك إلى سعة واتساع وشمولية تغيير مصطلح "الإنشائية" عن جميع أنواع وأصناف الخطابات والأجناس الأدبية.

ولعل هذه الفوارق في المجالات هي الفيصل بين الأسلوب والأسلوبية، ولذلك أوضح الدكتور: "لهذا السبب عمدنا إلى حصر مجال البحث والاستقراء فضبطناه بحقل التجديدات، فكان تساؤلنا الأصولي مزدوج الرؤية: له منظور بسيط مباشر ينبثق من ركن زاوية العلم نفسه: تحديد الأسلوبية، وله منظور مركب غير مباشر ومداره تحديد العلم موضوعه ألا وهو الأسلوب ذاته[2]. وربما هذا ما دعا به الأستاذ عبد السلام المسدي إلى تسمية كتابه بهذا الاسم.

ثم ختم المسدي هذا القسم من كتابه بالحديث عن تاريخ الأسلوبية بعد ظهورها الأول في مهد اللسانيات الأوروبية، وبعد أن شق لها شارل بالي الوجهة الأولى والطريقة نحو استثمارها في مجالات النقد الأدبي من خلال أنواعها وأصنافها الجمالية الإحصائية وغير ذلك. فقد تطرق الناقد المسدي إلى الأسلوبية في ألمانيا وفرنسا وإيطاليا، والإضافات التي أضافتها تلك المدارس النقدية للنقد الأسلوبي وإجراءاته في سبر أغوار النص وفهمه ومعالجته.

[1]– المصدر، ص25.

[2]– المصدر، ص27.

وقبل أن ننتقل إلى القسم الثاني من الكتاب ونحن في رحلتنا هذه حول جهود الأستاذ عبد السلام المسدي في شرح الأسلوبية تنظيرا، يمكننا الخلوص في نهاية هذا القسم المتعلق بالإشكال وأساس هذا العلم، أن الأسلوبية كانت واضحة في معالمها الأولى وعلاقتها بعلم اللسانيات، لكنها بحاجة إلى وضوح أكثر في صلتها بالنقد الأدبي، وكأننا بهذا نشير إلى أن علم الأسلوب في أدواته اللسانية أوضح من الأسلوبية في طريقة بناء منهجها، خاصة مع الزخم المصطلحي الذي يعتريها في ظل أزمة المصطلح اللساني العربي عامة من حيث كونه ناتجا عن الترجمة أو التعريب، أو ربما عن طريق التوليد والإحياء من الموروث العربي الزاخر.

2-2- العلم وموضوعه:

بداية يقصد المسدي بهذا هذا القسم: البحث في ماهية علم الأسلوب والأسلوبية، ثم تحديد مجالاتها ومهامها؛ لأن عنوان القسم "العلم وموضوعه" يشير إلى طبيعة محتواه، فالعلم يقصد به موضوع الكتاب عموما المتعلق بالأسلوب والأسلوبية، وموضوعه يقصد به ما مضمون هذا العلم، وبماذا يهتم؟ وما مجالاته وأهدافه؟ لأن من البداهة في كل علم وجود موضوع يشتغل عليه، ومشكلة ينطلق منها، وهدف أو أهدافا يصل إليها.

غير أن هذا البحث والجهد الذي عمد إليه الأستاذ عبد السلام المسدي، لابد وأن يتأسس على منهج صحيح، لذلك استند الناقد أو المؤلف على مقومات للوصول إلى معرفة مجال العلم، والتي عبر عنها: "يقف على جملة من المقومات إذا ما استنطقها أصوليا، استبقى منها أبرز المنطلقات المبدئية التي تمحور عليها التفكير الأصولي في علم الأسلوب، واستطاع أن يستشف التحديات للأسلوبية"[1].

بدأ الأستاذ في عرض هذه المنطلقات أو المقومات بالمصطلح وما يدل عليه، مشيرا إلى أنه يحمل ثنائية أصولية، فسواء انطلقنا من الدال اللاتيني أو الترجمة، فإن السبيل واحد يؤدي إلى

[1]- المصدر، ص33.

تحديد علم الأسلوب. وقد شرح ذلك بمصطلح "الأسلوب" ومقابله "style". ولاحقته "ية". "que . ويقصد بهذا أن اللاحقة في اللغة العربية تدل على فروع العلم، ومنها الرياضاتية، العلمية، الفلكية، فكلها تحمل صفة الإشارة إلى العلمية، ونفس الشيء بالنسبة لـ "que". وهي كذلك تعبر عن فروع العلم. يقول الأستاذ "وفي كلتا الحالتين تفكيك الدال الاصطلاحي إلى ما يطابق عبارة علم الأسلوب (science du style)، لذلك تعرف الأسلوبية بداهة بالبحث عن الأسس الموضوعية لإرساء علم الأسلوب"[1].

وربما كان اختيار عبد السلام المسدي لجانب المصطلح في التعريف بعلم الأسلوبية، هو المقوم أو المنطلق الأول، نتيجة ما تعنيه المصطلحات اللسانية في العالم العربي، ومسؤولية ما يحمله من دور في شرح المفهوم، بل التفرقة من التخصصات العلمية في حقل اللسانيات، ومنها الأسلوبية كما أن عناية الباحثين العرب بالمصطلح كبيرة جدا، لذلك لا تجد كتابا لسانيا إلا وفيه فصلا أو مبحثا يشرح مصطلح ذلك العلم، وهذه المسألة في علوم العربية ليست جديدة بقدر ما هي مسألة في تراثنا العربي والإسلامي من خلال الدراية المعجمية بالمصطلح. وقد سبقها إلى ذلك العلم الحديث في ضبط وشرح مصطلحاته، ومنها كذلك علم النحو وعلم البلاغة وغير ذلك. لذلك فإن طرق الدكتور المسدي جانب الاصطلاح في التعريف بالأسلوبية وعلم الأسلوب علم منهجي دقيق يستحق الثناء والتثمين.

أما المقوم الثاني لشرح علم الأسلوبية وتحديد موضوعه، فقد عنى فيه الأستاذ إلى جانب وظيفة وطبيعة الأسلوبية في توجيه واختيار الأسلوب، حيث تجمع بذلك بين البعد اللساني والبعد الأدبي الفني وتتأسس عموما في عملية الإخبار. يقول المسدي: "فإذا كانت عملية الإخبار علة الحدث اللساني، فإن غائية الحدث الأدبي تكمن في تجاوز الإبلاغ إلى الإثارة، وتأتي الأسلوبية

[1]– المصدر، ص34.

في هذا المقام لتتحدد بدراسة الخصائص اللغوية التي بها يتحول الخطاب عن سياقه الإخباري إلى وظيفته التأثيرية والجمالية"[1].

ولا شك أن هذا هو السبب الذي يجعل من القراءة النقدية للأدب تمر عبر هذا الجانب الأسلوبي؛ فالأسلوب هو الذي يكشف الصلة التي تربط غاية الخطاب بالجانب الفني والاختيار اللغوي الماثل فيه. ومن هذه المقومات تتحدد وظيفة الأسلوب في جعل الأسلوب ملائما لوظيفة الخطاب، سواء من الناحية الجمالية الفنية أو من الناحية البحثية في بعض الخطابات التداولية اليومية ذات الصلة بالمواضيع العلمية كالإعلام والصحافة.

غير أن هذا البحث والجهد الذي عمد إليه الأستاذ عبد السلام المسدي، لابد وأن يتأسس على منهج صحيح، لذلك استند الناقد أو المؤلف على مقومات للوصول إلى معرفة مجال العلم والتي عبر عنها: "يقف على جملة من المقومات إذا ما استنطقها أصوليا استسقى منها أبرز المنطلقات المبدئية التي تمحور عليها التفكير الأصولي في علم الأسلوب واستطاع أن يستشف منها معطى التحديدات للأسلوبية"[2].

بدأ الأستاذ في عرض هذه المنطلقات أو المقومات بالمصطلح وما يدل عليه، مشيرا إلى أنه يحمل ثنائية أصولية، فسواء انطلقنا من الدال اللاتيني أو الترجمة، فإن السبيل الواحد يؤدي إلى تحديد علم الأسلوب، وقد شرح ذلك بمصطلح "أسلوب". ومقابله "style"، ولاحقته "ية" "que". ويقصد بهذا أن اللاحقة في اللغة العربية تدل على فروع العلم ومنها العلمية، الفكرية، فكلها تحمل صفة الإشارة إلى العلمية، ونفس الشيء بالنسبة لـ "que" وهي كذلك تعبر عن فروع العلم، يقول الأستاذ "وفي كلتا الحالتين تفكيك الدال الاصطلاحي إلى مدلوليه بما يطابق عبارة

[1]– المصدر، ص36.

[2]– المصدر، ص33.

علم الأسلوب (science du style) لذلك تعرف الأسلوبية بداهة بالبحث عن الأسس الموضوعية لإرساء علم الأسلوب"[1].

ولا شك أن هذا هو السبب الذي يجعل من القراءة النقدية للأدب تمر عبر هذا الجانب الأسلوبي، فالأسلوب هو الذي يكشف الصلة أو المبرر الذي يربط غاية الخطاب بالجانب الفني والاختيار اللغوي الماثل فيه، ومن هذه المقومات تتحدد وظيفة الأسلوب في جعل الأسلوب ملائما لوظيفة الخطاب، سواء من الناحية الجمالية الفنية أو من الناحية البحثية في بعض الخطابات التداولية اليومية ذات الصلة بالمواضيع العلمية كالإعلام والصحافة.

غير أن ميل الأسلوبية نحو الجانب الأدبي التأثيري أكثر من استقرارها على أصولها اللسانية، وهذا طبعا حيث رأى الدكتور المسدي: إذ يرى بأنها أكثر المناهج اللسانية تلفظا من لدن النقاد رغم حفاظها على الأدوات والوسائل الإجرائية اللسانية في نقد الأدب، أي خصائص الأسلوب، التكرار، الحذف، الإحالة، وغيرها من السمات، يقول المسدي "هكذا نتبين كيف إن المنطلقات المبدئية في التفكير الأسلوبي قد حددت منحى الأسلوبية نحو علم تحليلي "تجريدي" ترمي إلى إدراك الموضوعية في حقل إنساني عبر منهج عقلاني يكشف البصمات التي تجعل السلوك اللساني ذا مفارقات عمودية"[2].

ويذكر المسدي أن جهود الناقد رومان ياكسون تصب في هذا الاتجاه من اعتبار الأسلوبية تختص أكثر بالجانب الفني للأسلوب وترتكز على جعل الجانب الفني خادما لوظيفة الخطاب ولغاياته التأثيرية، بل هي التمييز بين أصناف الخطابات، يقول المسدي شارحا لموقف ياكسون:

[1]- المصدر، ص34.

[2]- المصدر، ص37.

"ويبلور جاكسون في مقارنة شمولية هذا المنحى فيعرف الأسلوبية بأنها بحث عما يتميز به الكلام الفني عن بقية مستويات الخطاب أولا وعن سائر أصناف الفنون الإنسانية ثانيا"[1].

ومما يدعم هذا الترجيح، إقران الناقد المسدي الأسلوبية بالبلاغة وتشبيهه بها، إذ يسعى إلى ما تسعى له البلاغة من إيصال وبلوغ الكلام أو التعبير أقصى غايات الفنية والتأثير. وهكذا يضيف المسدي المقوم الثاني من مقومات تحديد علم الأسلوب أو الأسلوبية،

فبدأ بالمصطلح إلى الطبيعة والوظيفة. وإذا كانت هذه المقومات السالفة الذكر بين المصطلح واقتران الأسلوبية بالجانب الفني من القول، فإن ثمة محددات أخرى لهذا العلم حسب عبد السلام المسدي تتأسس من معرفة موضوعه، وهي ما نعالجه في الصفحات الآتية من هذا القسم.

ويتحدد موضوع العلم من الاشتغال على الجانب اللساني قبل أن تكون الأسلوبية علما، فإذا كان دي سيوسير يشتغل على اللسان، اللغة، الكلام، فإن الأسلوبية تشتغل على العبارة: وهذا مربط الفرس، وقد برر هذا الأستاذ المسدي "بوجود اللغة وظاهرة العبارة (langue-parole)"[2].

كما فرق الأستاذ عبد السلام تفريقا دقيقا جدا بين ما تشمله اللسانيات، وما تشتمله الأسلوبية، فاللسانيات قد تدرس الصوت من جانب غير بشري كطبيعة الدراسة ضمن الفونيتيك (علم الأصوات)، وقد تدرس الإشارة والجانب الإشاري، لكن الأسلوبية لا تشتغل إلا على ما هو بشري صرف، أو كما يدقق الأستاذ وصفها: "والكلام باعتباره الظاهرة المجسدة للغة قد ساعد على حصر مجال الأسلوبية، إذ لا يمكن أن تتصل إلا بالجدول الثاني من الظاهرة وهو الحيز العملي المحسوس المسمى: عبارة أو خطابا أو نصا أو رسالة أو طاقة بالفعل[3].

[1]- المصدر، ص37.

[2]- المصدر، ص38.

[3]- المصدر، ص38.

غير أن اشتغال الأسلوبية على الجانب الإبداعي في الخطاب لا يُلغي الانفعالات والعواطف، بل حسب وصف المسدي فإن تقسيم بالي للثنائيات كان على أساس ما هو مشحون شحنة عاطفية خلاف ذلك. كما يضيف آخرون عاملا آخرا متمثلا في التجديد الذي يكون في الأسلوب، فهو موضوع اشتغال الناقد والمحلل، أي كلما عثر على تسوية في الأداء الصوتي والمعنوي، كلما عمد إلى دراسته، وربما يوازي التسوية مصطلح الانحراف، وله مرادف آخر متمثل في العدول، وكلها تعني شيئا واحدا هو خروج الأسلوب الفردي عن المألوف العام. وفي شرح هذه الجزئية يشير المسدي إلى كلام شارل بالي: "فمعدن الأسلوبية حسب بالي ما يقوم في اللغة من وسائل تعبيرية مبرزا المفارقات العاطفية والإرادية والجمالية، بل حتى الاجتماعية والنفسية"[1].

ثم ينتقل عبد السلام المسدي إلى جدلية أعمق، وهي أن حدد مجال الأسلوبية من خلال مقومات المصطلح، مجال الاشتغال، وهي جدلية البنيوية والأسلوبية، وكلاهما من أصل واحد وهو أصل اللسانيات، غير أنّ الأستاذ عبد السلام المسدي فصل في الأمر، وبّينه بأن البنيوية مسألة عامة وسمة في تأسيس اللسانيات. أما الأسلوبية، فتفرعت عنها لنظرة بالي بأن الاشتغال البنيوي على ثنائية اللغة والكلام، لابد أن يتبعه اشتغال أسلوبي على العبارات.

على هذا الأساس، بدا واضحا موضوع الأسلوبية، واتضحت جوانبها كعلم نتج من اللسانيات، يتمتع برؤية تنظيرية وتطبيقية واضحة تجمع بين الإجراء اللساني والتطبيق النقدي.

كما أن هذا يعود بنا إلى الفروق التي بين الأسلوبية والبلاغة، إذ يرى الدكتور بأن صيغة البنيوية التجريدية توازيها صيغة البلاغة التعليمية. أما الأسلوبية، فهي خلاف ذلك، وليس فيها أي صيغة تعليمية، لذلك كان اقترابها للنقد أكثر من أيّ مجال آخر. ومنه يصرح المسدي: "قد تبّينت لنا بالمقارنة مجالات التقاطع ومجالات التماس بين الأسلوبية، وكل من اللسانيات

[1]- المصدر، ص41.

والبلاغة، فانتهينا إلى أنهما تمثلان محورين متعامدين طولا وعرضا. ويأتي علم النحو ليحسم البعد الكوني الثالث والأخير، وهو بعد الأعمق"[1]. وأخيرا يلخص الأستاذ ما ذهب إليه في هذه الجزئية قائلا: "ولئن اعتمدت كل هذه المدارس على رصيد لساني من المعارف، فإن الأسلوبية معها قد تبوأت منزلة المعرفة المختصة بذاتها أصولا ومناهجا"[2].

2-3- مصادرة المخاطب:

يريد عبد السلام المسدي من هذه الجزئية وما بعدها أو هذا القسم التعريف أكثر بعلم الأسلوبية، وهذا بعد أن تجاوز وتخطى الجانب الايستمولوجي لأصل الأسلوبية وعلاقتها باللسانيات وموروث البلاغة، وكذلك شرح ما يربطها من مصطلحات، كالشعرية وغيرها. وقد عهد لهذا القسم بالحديث؛ فمن خلاصة ما أنجزه في القسم الماضي، أن "التفكير الأصولي، إذ لا يسائل الفكر الفلسفي علما من العلوم إلا اقتضى منه إبراز ماهية موضوعه أولا"[3]. "لكن ماذا يقصد الآن الدكتور في هذا القسم الثاني؟ خاصة أنه يرى بتلازم شرح هذا القسم لأجل إتمام مهام التفسير". ويشرح الظاهرة الأسلوبية؛ فإلى أيّ مدى تتحقق للدكتور هذه الغاية العلمية التي تنبع من أهداف بحثية غاية في الأهمية، خاصة في الوطن العربي عموما، والدرس اللغوي خصوصا مع غموض الوافد الغربي؟

ثّم عمد الدكتور إلى توضيح ما يقصده بعنوان الفصل "مصادرة المخاطب". فصحيح أن العملية التواصلية تشتد إلى جملة من الأركان أو العناصر، والتي نسميها ضمن مخطط التواصل بـ "أركان العملية التواصلية"، (مرسل، مرسل إليه، رسالة، سياق، قناة)، لكن في اللسانيات لا تتضح لنا أيّ جدلية بخصوص أكثر العناصر إثارة في الجانب اللغوي، لكن حسب

[1]- المصدر، ص55.

[2]- المصدر، ص51.

[3]- المصدر، ص57.

الدكتور، ومن خلال عنوان القسم "المخاطب"، فإن الأسلوبية تشتغل على جانب مهم منها، وهو المرسل للخطاب، لذلك قال "مصادرة المخاطب". وتتضح معالم شرحه في التصريح بالعبارة "ويستند التفكير الأسلوبي في هذا المضمار إلى جملة من فرضيات العمل"[1]. ونحن في هذا الشرح لما يذهب إليه الأستاذ بحاجة إلى تأسيس منهج كما قمنا بذلك في القسم الثاني؛ حيث سماها الدكتور بمقومات التعريف بالعلم، فشرحناها استنادا، وتبعا لذلك ونفس الشيء، يسمي الدكتور هذا القسم بالفرضيات، ومنه نشتغل على هذه الفرضيات.

تتأسس الفرضية الأولى في شرح الدكتور لعلاقة المخاطب، أو المتكلم أو منتج الخطاب التواصلي بصفة عامة على جانب انتقاء المخاطب للمفردات أو الوحدات المعجمية. ومعلوم أن المعجمية أو المستوى المعجمي في الخطاب يبدو أنه بعيد نوعا ما عن الحقل الأسلوبي، وليس هذا حكما جزافيا، بل هو من خلاصة القسم الأول والثاني للأستاذ، بأنّ الأسلوبية تشتغل على العبارة، واللسانيات تشتغل على الدال والمدلول؛ أي اللفظ والمعنى، لكن ما يقصده الدكتور هنا هو أمر آخر يتمثل في جانب الاختيار لهذا المستوى المعجمي، أو الكلمات داخل العبارة، وهذه فعلا سمة أسلوبية بامتياز بها تتحدد معالم الأسلوبية، وكذلك وظيفة المخاطب داخل الخطاب.

وتكون هذه الجدلية في جانب الاختيار المعجمي نتيجة أنّها تندرج في سياقات الاستعمال، حيث يصرح المسدي "غير أنّ جدلية الاستعمال ترضخ عناصر اللغة إلى تفاعل عضوي بموجبه تنزاح، الألفاظ تبعا لسياقاتها في الاستعمال"[2]. وقد علمنا أنّ سلطة الاستعمال هي التي تؤسس بالأسلوبية مجالا، وتكسبها أحقية الاشتغال على هذا الجانب من الخطاب. لذلك انتهى

[1]- المصدر، ص58.

[2]- المصدر، ص58.

بهذه الفرضية الأستاذ قائلا: "وتصبح للأسلوبية من الوجهة العلامية العامة سننها وأنماطها تماما كما للغة التخاطب قواعدها"[1].

ولا شك أنّ دقة الشرح عند الدكتور تتأسس من نظرة أعمق من كون الأسلوبية، تهتم بجانب الاختيار المعجمي داخل الخطاب، إذا اللسانيات كذلك لها جزء من هذا، والبلاغة كذلك لها جانب كبير من هذه الرؤية في الكلام وطبيعة اختيارات المتكلم، وإنما مقصود الدكتور من هذا أن الاختيار يكون من طرف المخاطب، وما كان من المخاطب يكون تميزا وتنوعا، والتميز والتنوع يأتي من هذا الباب، لذلك كان تعريف الأسلوب بأنه التفرد والتميز، أو الاختصاص والسمة، بل إنّ هذا المعنى هو المتداول خارج ميدان اللغة بما يُعرف بـ "style" أسلوب.

وطبعا خاصية التّميز والتفرد في الأسلوب، هي ما يضع الأسلوبية الوجودية في تصنيف الخطابات والتفكير الأسلوبي ما يعتمد هذا الحس اللغوي، وهذا الحدس الفّني في إثبات الظاهرة؟ لكن هل هذه الخاصية التميزية للأسلوب تحدد الأسلوبية عند عنصر المتكلم أو كما يصفه المسدي؟ أم تتجاوز ذلك إلى الرسالة والمستمع؟ وهنا يجيبنا الأستاذ عن هذا التساؤل تحديدا وربطا لسمة الأسلوبية بعناصر العملية التواصلية.

وفي هذا الصدد، يرجح المسدي وجود التمايز في الأسلوب عند المتكلم المخاطب، وهذا بناء على ما يتمتع به من سلطة التركيب والتأليف لنسق الخطاب. كما أن الأستاذ عرض الآراء الفلسفية القائمة على أنّ العبرة من الرسالة التخاطبية والقديمة تتحدد أولا بالمخاطب المنتج، وكذلك زمنية خطابه، وبالتالي فإن المنتج أو بالأخص المتكلم، هو من يصنع أسلوبية رسالته. ونلخص هذه الفكرة في العبارة الآتية: "الصورة اللفظية التي هي أول الكلام لا يمكن أن تحيا

[1]- المصدر، ص59.

مستقلة. وإنما يرجع الفضل في نظامها اللغوي الظاهر إلى نظام آخر معنوي انتظم وتألف في نفس الكاتب أو المتكلم؛ فكان بذلك أسلوبا معنويا، ثم تكون التأليف اللفظي على مثاله"[1].

وهذه هي الدواعي التي جعلت الأسلوبية تتركز في المخاطب لذلك، والأستاذ هذا القسم بـ "مصادرة المخاطب". وربما سيكون في الأقسام التي تليه كلام آخر. لكن هل سيكون عنده للرسالة والمستقبل للخطاب من شأن؛ فدرجة التلازم بين الأسلوب وماهية التطابق، ويتدخل في هذا عناصر كثيرة، ربما هي كما وصفها الأستاذ باللباس، ولا تكون مطابقة اللباس وصاحبه في ارتدائه، بل في اختياره؛ فاللباس نختاره شكلا ولونا وسياقا مع الفصول والأحوال، ونفس الجو الأسلوب نختاره كما وكيفا. وحسب ظروف وأحوال التخاطب.

ثّم يشير الدكتور إلى قضية أخرى تثير جدلا وإشكالا في هذا الجانب. وهي قضية البصمة أو السمة، وهل كل متكلم يتميز ببصمة وملامح خاصّة لا توجد عند غيره من المتكلمين أو يختلف الأمر عن ذلك؛ فنجد بين المتكلمين تطابقا وتشابها، وهل الأسلوب مصدره الفطرة والموهبة أم الاكتساب والمشابهة. وهذا يتجاوز الأسلوب خصوصا إلى الفعل اللغوي عموما، وهل يشكلها الذكاء أم الحاجة الغريزية للتواصل؟ وهل جوانبها السلوكية أكثر تأثيرا أم جوانبها المعرفية أكثر، وهذا خلاف الدراسات اللسانية بين البنيوية الأوروبية والبنيوية الأمريكية.

كما تثير هذه المسألة إلى قضية أخرى تتعلق بجدلية التناص، خاصة أنّ التناص هو من مقاصد الدراسات النقدية، لذلك فإن الكشف عنه من خلال تماثل النصوص والأجناس والأنماط الأدبية هو بحث أسلوبي بطريقة غير مباشرة، ويؤكد صلة الأسلوبية بالأدب أو بالنقد، خاصة أن الأسلوب له ميزات سطحية توحي بتشابه آخر باطني أو ضمني، ومن مثاله تأثير الفصاحة العربية على أسلوب حافظ القرآن أو الحديث النبوي الشريف، وحتى كلام الشعر والنثر.

[1]- المصدر، ص60.

كما أضاف الدكتور قضية أخرى تضاف لتميز الأسلوب، وهي ملمح التجديد، فإذا كان التناص تشابها وتقليدا. فإن في الأسلوب جانبا آخرا من التجديد، وهو الطاقة التي يمنح بها المتكلم في ابتكار القوالب والعبارات وحتى المعاني؛ فالأسلوب هنا قد نعتني به ما يمكن تجديده وابتكاره في الخطاب، سواء من حيث جوانبه الوظيفية الإبلاغية، أو من حيث وظائفه الفنية. وقد لخص هذا الدكتور المسدي قائلا: "كل إنسان أمة واحدة فيما يصله بالحياة متأثرا ومؤثرا، ذلك لأنه شخصية فطرها الله، وكونتها ملابسات بعينها؛ فاستقامت ذات طبيعة محدودة، وخطة خاصة، وكانت هي هذا الفرد الممتاز"[1].

وهذه النظرة أو الرؤية المنطقية هي ما يتوافق مع التعريفات القديمة للأسلوب بأنه "الرجل"؛ أيّ ما يميزه من ملامح وتوجيهات. ومن مبررات هذا التميز أو التفرد كما يطرح الأستاذ المسدي ذلك، أن الأديب يعبر عن شخصيته تعبيرا صادقا يصف تجاربها ونزعاته، ومزاجها وطريقة اتصالها بالحياة يتنهي به الأمر إلى أسلوب أدبي ممتاز في طريقة التفكير والتصوير والتعبير، هو أسلوبه المشتق من نفسه هو من عقله وعواطفه وخياله ولغته"[2].

وتطرق الدكتور إلى الجانب الجمالي الفني والعاطفي للأسلوب بعيدا عن تساؤلنا المنطقي السابق، هل يوجد سمات تمييزية مطلقة في الأسلوب؟ وبماذا يمكن أن نفرق التشابه والتناص الحاصل فيما يكتبه الناس من كلام شفوي؟ ومهما يكن من أمر، فإن التمييز والتجديد في الأسلوب هو ما يضع القالب الخاص بكل متكلم أو كاتب، سواء كان هذا مع الخطاب الأدبي أو الخطاب التواصلي، بل حتى الخطاب العلمي في التأليف والكتب.

ومما يمكن إضافته في جانب السمة التجديدية في الأسلوب قضية أخرى، وهي ما أسماها الدكتور بـ "العبقرية"، وهي عند الكتور امتداد لفكرة التجديد. لكنها تشير إلى معنيين: الأول: هو

[1]- المصدر، ص68.

[2]- المصدر، ص68.

التفوق، وهنا قد يشترط في الأسلوب هذه الميزة حتى يُ نعت أسلوبا عبقريا. أما المعنى الثاني؛ فهو معنى "اللامعقول"؛ أي الخروج عن المعقول والمألوف، وهذا ما يتوافق مع وجود المجاز، أو ما يصطلح عليه كذلك بالعدول أو الانحراف، وهو حقيقة في الأسلوب، ولم يسترسل الأستاذ عبد السلام المسدي في شرحه والتفصيل فيه، ربما لأنه يقترب أكثر من الشروحات التي لها علاقة بجانب النقد أو الممارسة النقدية، أكثر من اقترابها لجانب تعريف الأسلوب، خاصة أن العدول في الأسلوب تتميز به اللغة الأدبية أكثر من غيرها؛ لأن اللغة التواصلية تحتاج إلى الوضوح واليسر حتى يكون التواصل سلسا، ولو أن فعلها شيئا من الكناية، أو إخفاء المعاني.

وينتهي بنا الأستاذ عبد السلام المسدي إلى أن جميع التحديدات التي قدمها تقوم على أصول فلسفية، وعلى ترابط بين الخطاب ومنتجه، وبين الأسلوب وشخصية صاحبه، وهذا مكمن الرابط المنطقي الذي يقودنا إليه التفكير الأصولي في نظرية الأسلوب كما يصفه الأستاذ: وطبعا هذا تبرير العلاقة في هذا القسم بينهما وصياغة نظرية تتأسس على سلطة المخاطب. وهي تتصل بجوانب كثيرة، ومنها الفطرة، الموهبة، المعرفة، الإدراك والتي يجمعها الأستاذ في ما يعرف بمبدأ "الاكتساب الشمولي"[1]. كما يضيف لها المسدي الجانب النفسي، وما يفصح له وعليه الأسلوب لدى المتكلم، "وله باب على نظريات علم النفس ولاسيما منها ما كان قائما على التشريح الاختباري المفضي إلى كشف دفائن اللاوعي"[2].

وإذا كان الأسلوب حدثا نفسيا؛ فهو الرابط بين الأبعاد الثلاثة، الأنا، الأنا الجمعي، الآخر؛ فهو اعتدال وتوازن بين ذاتية التجربة ومقتضيات التواصل، ومبرر ذلك حسب الأستاذ "أن تكون وظيفة الأسلوب أن يلطف وحدة بين المعطى المعيشي والمعطى المنقول". كما أن ارتباط الأنا

[1]- المصدر، ص72.

[2]- المصدر، 73.

بالآخر وبالجماعة، يحدد سياقات معينة في شكل ونمط الأسلوب، ومنه أتت ضرورة ربط الأسلوب بهذا الجانب.

إضافة للخصائص السابقة التي يتحكم لها مبدأ العلاقة بين الأسلوب والمخاطب؛ أي صاحبه، يتطرق الأستاذ المسدي لقضية أخرى، وهي قضية الكتابة والمشافهة، وهما وسيلتان للخطاب، يتأسسان أسلوبيا من الإلهام، لكن يختلفان في استخدامهما بين المتكلمين، ولهذا الاختيار جوانب نفسية، كاتب ينزع إلى الكتابة أكثر من المشافهة، ومتكلم ينزع إلى المشافهة في خطابه أكثر.

وإذا كان عبد السلام المسدي قد فصل في قضايا الأسلوب ذات الأبعاد الكثيرة في خصوصية المخاطب أو منتجه (الأسلوب)، ومنها الخاصية، الإلهام، الفنية، التجديد، وغيرهما مما أسلفنا في الصفحات الماضية شرحها. فإن الخاصية الأكثر ربطا لهذه المحددات هي خاصية الاختيار؛ فالاختيار في الأسلوب هي تلك السلطة التي يمتلكها المنتج للأسلوب كاتبا أو مخاطبا بالمشافهة في وضع سمات خاصة، واختيار ميزات معينة ضمن أسلوبه مهما اختلفت مقاصدها وتشبعت معانيها.

كما أن الاختيار في الجانب الأسلوبي يوحي بجانب القصدية وسلطة الأنا، وهذا لا ينفي كما أسلفنا وجود السمات العامة من الأنا الجماعي في كل أسلوب، بحكم أن الإنسان أو المبدع بصفة خاصة له جانبا كبيرا من الاجتماعية والانتماء. وجل هذه الميزات والخصائص كما يصف الأستاذ المسدي، لا ترتبط بجانب الفنية فحسب، بل بجانب الوظيفية والإخبار كذلك؛ فوظائف الأسلوب لا تتحدد وتتوقف وتقتصر على قصيدة شعرية منظومة أو رواية أدبية منسوجة؛ بل للمتكلم في جميع السياقات جانبا وظيفيا مهما من اختيار الأسلوب، لذا يقول الأستاذ المسدي: "قانون الاختيار ليس وقفا على الظاهرة الفنية في تعريف الحدث اللساني، وإنما هو من الوعي المشترك بين الباث والمتقبل في جهاز التخاطب عامة".

2-4- مصادرة المخاطب:

قد يبدو هذا القسم غريبا نوعا ما، ما علاقة المخاطب بالأسلوب؟ وهل له تأثير جلي وفاعل في الأسلوبية؟ هنا يمكننا التكهن والتخمين بإثارة للموضوع أن طبيعة المخاطب تفرض طبيعة خاصة، ونمطا معينا في الأسلوب أو الخطاب! ربما هذا تساؤل جوهري، وأجبناه إجابة سطحية، ذلك أنّ الدكتور أعطى تحليلات أعمق، لتفسيرات كثيرة؛ حيث عقد في بيان هذا ما يقرب عشر صفحات، فكيف فسر الدكتور علاقة الأسلوب بمخاطب الخطاب؟ وقد مهد الأستاذ لهذا قائلا: "ولئن تراءت لنا بعض مراسم الكشف الموضوعي في طرق محور المخاطب: قطب الرحى، فإن هذه المعالم ستتدقق في تناولنا للدعامة الثانية، وتخص كما أسلفنا المخاطب المتقبل"[1].

ولو لاحظنا أو أمعنا النظر في المقولة السابقة، لتراءى لنا أن الأستاذ يولي أهمية بالغة للمخاطب رغم استهلاله الحديث عن المخاطب أو المتلقي سماعا أو قراءة. ودليل هذا واضح جلي في الجملة الاعتراضية بالمقولة "قطب الرحى"، ومعنى قطب الرحى، هو المهم أو المركز في الخطاب، لذلك نعود إلى تساؤلنا ما قيمة المخاطب المتلقي في سلم الأسلوب وصياغته بعد الإقرار بمركزية المنتج للأسلوب.

ينطلق تأسيس الدكتور هذا في تقديم المبررات التي تدعو إلى استحضار المخاطب في فهم الأسلوبية وأصولها مصرحا: "ولا يذهبن بنا هذا المنهج إلى الغفلة عن التفاعل العضوي القائم في عملية الخطاب، والذي به لا يكون مخاطب دون خطاب ومخاطب، كما لا يكون مخاطب ولا خطاب ما لم تكتمل أضلاع المثلث". وهذا مبرر رئيسي ومنطقي، وحلقة التواصل تعتمد على انسجام والتحام هذه العناصر الثلاث، بل أي خلل أو تعذر في التواصل قد يكون ناجما عن إحدى العناصر الثلاث دون الاقتصار على عنصر منها، لذلك فإنه بالمقابل، أي مزية أو

[1]- المصدر، ص79.

وظيفة تواصلية تتعلق بالأسلوب قد يكون مرادفها سياقا خاصا بالمخاطب المتلقي استدعى ذلك، بل ربما كان أسلوبا حواريا.

وليس ببعيد عن البلاغة العربية، وإن لم يكن في المبحث هذا استحضارا لها، يبتكر الأستاذ المسدي مصطلحين يصوغان بدقة، ويعبران بروية عن مناسبة السياق والمخاطب لطبيعة ومستوى الخطاب، والمصطلحات هما "التكيف"، "التأقلم". وقد قابل هذا في البلاغة العربية مناسبة المقال لمقتضى الحال. لذلك كثيرا ما قيل في وصف البلاغة والبيان مطابقة مقتضى الحال ومعرفة حال المخاطب، وهذا الأمر مشهور في التراث، تجتمع فيه وظائف البيان الإبلاغية ووظائف الأسلوب البلاغية، لذلك يمكننا إدراج مصطلحي الدكتور عبد السلام المسدي ضمن جهود إحياء التراث وإن اختلف الأمر بالنسبة للمصطلحات والمفاهيم.

لكن العامل المهم في علاقة الأسلوب بالمخاطب والسياق الذي يتوارد فيه، تنبثق عنه جدلية القصد والحزم، فهل كل مخاطب منتج للرسالة التواصلية يتعمد جعل أسلوبه مناسبا ملائما مقتضى حاله، أم أنّ الأمر طبيعي ومتروك للفطرة والعفوية؟ وهنا يدلي الأستاذ برأيه، وقد ألفنا منه الإجابة الأكثر واقعية ومنطقية واقترابا من الاقتناع: "فإذا استندنا إلى التجربة اهتدينا إلى أن المتكلم عامةً يُكيف" صفة خطابه حسب أصناف الذين يخاطبهم". وهذا التكييف أو التأقلم ليس اصطناعا؛ لأنه عفوي يصحبه الوعي المدرك[1].

ثم يواصل المسدي شرح العلاقة بين الأسلوب والمخاطب به أي المستقبل، وهذا من جهة ما يمارس عليه لا ما يُمارسه هو من سلوك أو ردود فعل كالتأويل والاستقبال وغير ذلك. ومن هذه القوة الممارسة عليها، هي وجود ضغط الأسلوب، وسماها عبد السلام المسدي بالقوة الضاغطة. وهي أمر عفوي غير مقصود، وإنما يستوحيه المستقبل من الرسالة، ويتفاوت الأسلوب في هذا

[1]- المصدر، ص80.

الشأن، بل إذا كان هذا التأثير والضغط مؤسسا مقصودا أحيانا، فهو حسب طبيعة المستقبل، وهو ما يوجب عليه ردود الفعل لفهم الرسالة وشرحها.

ويتواشج حسب الدكتور المسدي مع الطاقة الضاغطة مفاهيم أسلوبية كثيرة، منه التكيف، التأقلم، الانعكاس، الأسلوب، وقد حددها في أوجه ثلاثة:

– الوجه الأول: للأسلوب جانب قيادي، وهو يكون عند المتكلم أو مرسل الرسالة طبعا، ويشرح المسدي هذا قائلا: "فالأسلوب بهذا التقدير هو حكم القيادة في مركب الإبلاغ لأنه تجسيد بعزيمة المتكلم في أن يكسو السامع ثوب رسالته في محتواها من خلال صياغتها"[1]. ومعنى هذا أن الأسلوب له صفة التطويع، والتطويع هي رؤية بلاغية حديثة، ربما في ثوب لساني حديث، غير أن إضفاء صفة القيادة، يعطي السلطة للمتكلم في تلغيز أسلوبه.

وأضاف الدكتور المسدي لفكرة الطاقة الضاغطة فكرة أخرى تتفرع منها، وهي فكرة التأثير، وقد أشار الأستاذ إلى أنها تتسم بالغموض، مصدقا: "وهي فكرة لا تخلو من ضبابية لأنها تشع على حقول دلالية متداخلة الحدود "[2]. ويقصد الدكتور هنا، تلك المؤشرات الخارجية المرافقة للأسلوب التي لها جانب وظيفي كبير في فرض القيادة وتوجيه المستقبل، وإعادة مرسل الخطاب على صناعة الرسالة باستراتيجيات إضافية. وهي كما يرى الدكتور: "وكان المتكلم يضفي على الرسالة جانب تشكيلي فني يختار له ألوانا".

وإذا كان علماء البلاغة العربية قد برعوا في الربط بين أسلوب المتكلم ورسالة المستقبل في مقولاتهم المشهورة، بلاغة الكلام مقتضى الحال، أو ملائمة الخطاب حال المخاطب، فإن فكرة الطاقة الضاغطة في جانبها الأول الانفعالي، أو التأثيري تضيف أفكارا جديدة، وهي ما يكون في الرسالة من منظور المتكلم وليس منظور وصولها للمستقبل حتى تحكم على تأثيرها وشدتها،

[1]– المصدر، ص81.

[2]– المصدر، ص81.

وقد ساق الأستاذ لشرح هذا سردا تاريخيا لجهود بعض الأسلوبيين في هذا المجال. وقد مهد له بأن: "هذا المعطى التعريفي يعود في نشأته إلى ما قبل بروز الأسلوبية المعاصرة"[1].

ومن بين الباحثين الأسلوبيين الذين أشار لهم عبد السلام المسدي، الباحث "فستندال (stendhal)". وحسب الدكتور، فإن هذا الباحث يربط جوهر الأسلوب بعيدا عن جميع السياقيات الأخرى بهذه الانفعالية التأثيرية.

ويشير كذلك أن الباحث فلوبير (Floubir) أضاف المنحى، ليضيف المسدي وصفا دقيقا للأسلوب بأنه: "سهم يرافق الفكرة ويخز متقبلها، هذه النزعة في التعريف عند أعلام الأدب ورواد نقده"[2]. وغير فستندال وفلوبير كثير، وقد أضاف لهم المسدي دي لوفر، كولاث، أحمد الشايب، وآخرهم ريفايتر الذي حدد الأسلوب بما أشار الأستاذ المسدي: "اعتمادا على أثر الكلام، فيعرفه بأنه إبراز بعض عناصر سلسلة الكلام وحمل القارئ على الانتباه إليها، بحيث إذا غفل عنها شوه النص، وإذا حللها وجد لها دلالات تمييزية خاصة مما يسمح بتقرير أن الكلام يعبر والأسلوب يبرز"[3].

وقد أفاد هذا التنظير عند علماء الأسلوبية إلى فكرة جوهرية يستفيد منها المحلل الناقد القارئ للأسلوب، سواء كان في فهم رسالة خطابية معينة أو في تحليل نص ما باعتباره أسلوبا، فقد أفاد في التوجيه إلى رؤية خارجية أولية تسبق النظر الداخلي للخطاب، وتسبق الشحنة اللغوية التي أرساها المتكلم فيه، حيث يصرح المسدي: "ويفضي هذا التقدير بريفاتير إلى اعتبار أن

[1]- المصدر، ص82.

[2]- المصدر، ص82.

[3]- المصدر، ص83.

البحث الموضوعي يقتضي ألا ينطلق المحلل الأسلوبي من النص مباشرة، وإنما ينطلق من الأحكام التي يبديها القارئ حوله"[1].

وربما قصد بالموضوعية في كلامه، هو الجانب المنطقي أو الصواب من الأمر والتحليل وليس جانب الحياد، لأن الناقد بمثابة المجتهد الباحث عن مداخل قراءة وتفكيك الخطاب وفهم رسالته، وكذلك المستمع المتلقي لرسالة الخطاب؛ فهو الباحث عن المضمر والمعنى الكامن والضمني داخل كل رسالة تواصلية.

ويتفرع من هذه الرؤية أسس نقدية انتقل فيها المنظور الأسلوبي من الكلام إلى النصوص أو تحليل النصوص. ومنها ما أضافه ريفاتير من وجود القارئ. هذا المصطلح الذي شرح الأستاذ المسدي بأنه "يكون بمثابة مصدر للاستقراء الأسلوبي يجمع المحلل كل ما يطلقه من أحكام معيارية معتبرا إياها ضربا من الاستجابات نتجت عن رموز كامنة في صلب النص، ولئن كانت تلك الأفكار؛ ذاتية، فإن ربطها بمسبباتها باعتبار أنها لا تكون أبدا عفوية ولا في نشأتها هو عمل موضوعي"[2].

بهذا المفهوم الحداثي للأسلوب سواء كان في شكل رسالة تواصلية أو في شكل خطاب أو نص، يفيدنا عبد السلام المسدي بفكرة التأثيرية أو الانفعالية، وهي الجانب الأول من جوانب القوة الضاغطة، يضاف لها جانبين: الأول "نجاعة" أو "قابلية"، ثم جانب ثالث متمثل في "المتقبل". وهذا ما يعمد شرحه في الوجه الثاني والثالث من نظرية القوة أو الطاقة الضاغطة موضوع هذا القسم الرابع من كتب الأستاذ المسدي.

– الوجه الثاني: أما الوجه الثاني للجانب التمييزي للأسلوب، والذي يمارسه المتكلم أو المرسل في إطار القوة الضاغطة أو الطاقة؛ فهو ما اصطلح عليه الدكتور بـ "النجاعة" أو "الفاعلية".

[1]– المصدر، ص84.

[2]– المصدر، ص84.

وهي كذلك جانب متحقق وواضح الأثر في المتكلم أو مستقبل الخطاب؛ فالوجه السابق المتمثل في الانفعالية والتأثير ينسجم مع هذا الوجه ويظهر في مستقبل كل أسلوب، بل إن من الواضح أن نجاح الرسائل الأسلوبية شكلا ومعنى، مرهون ومحدد بتحقيق النجاعة، فماذا يقصد المسدي بالنجاعة أو الفعالية الأسلوبية تحديدا؟ ومن أين تصدر؟

يقدم الأستاذ شرح الفعالية، بل يختصرها في ذلك الترابط بين الخطاب وأفق انتظار ردة فعل المتلقي[1]. فتلك المسافة الزمنية الفاصلة بين ردة فعل المتلقي وما سبقها من إنتاج الرسالة، إنما هي شخص من المرسل للخطاب بكل ما يمكن أن يحقق به النجاعة والفاعلية، والتي لا شك أنها أنها أمر نسبي من جهة، إضافة إلى أنها ملكة وفطنة خطابية يتفاوت فيها المتكلمون، وربما النجاعة أكثر دقة لو عبر عنها الدكتور بتحقيق الأسلوب بجانب الإقناع أو الإفهام. ذلك أن الوجه الأول هو الانفعال، والتأثير هو جانب وجداني نفسي، لذلك ربما كان هذا الوجه الثاني هو جانب معرفي عقلي من خلال وصول الرسالة التواصلية ضمن أسلوبها إلى إقناع المتلقي، وبذلك يحصل الفهم ويتحقق غرض الخطاب وهدفه الأول.

وإذا كانت هذه الاستراتيجيات الأسلوبية أو أوجه الطاقة الضاغطة التي يمارسها المتكلم على متلقي خطابه وسيلة في خطابه، فإن النجاعة أو الفاعلية لاشك أنها هدف وغاية قبل أن تكون وسيلة، ويشرح هذا المسدي بقوله: "ثم ينضاف إلى مقياس تحديد الأسلوب بكونه قوة ضاغطة متسلطة على حساسية القارئ وقابليته المدركة معيار سبر مردودها اعتمادا على ما تحققه بضغطها وتسلطها من فاعلية ونجاعة"[2].

غير أن طبيعة الأسلوب اللغوية والمسار الطبيعي لإنتاج اللغة حتى تؤثر في الجوانب الضمنية للخطاب، جعل الفاعلية أو النجاعة تنشأ من خلال اللغة، وقد بين هذا الدكتور عبد

[1]- المصدر، ص84.

[2]- المصدر، ص84.

السلام المسدي من خلال استحضاره لمقولة الباحث "ريمون طحان"، ناقلا بذلك مقولة: "اللغة بناء مفروض على الأديب من الخارج، والأسلوب مجموعة من الإمكانيات تحققها اللغة، ويستغل أكبر قدر ممكن من الكاتب الناجح أو صانع الجمال الماهر الذي لا يهمه تأدية المعنى وحسب، بل ينبغي إيصال المعنى بأوضح السبل وأحسنها وأجملها. وإذا لم يتحقق هذا الأمر، فشل الكاتب وانعدم معه الأسلوب"[1].

من خلال المقولة، وبيان دور اللغة عنها في تحقيق النجاعة، وظهور ما يضادها في حالة الفشل من انعدام الأسلوب وضياع رسالة الكاتب أو المتكلم، يظهر أنّ اللغة هي أنجع وسيلة لتحقيق الفعالية أو الفاعلية، غير أن الاختلاف هنا يكمن في طبيعة هذه اللغة، وهي تتعلق بالجانب النطقي أو الكتابي منها أو بجوانب أخرى كالعلامات والإيماءات والإشارات السيميائية التابعة للخطاب ومنها ملامح الوجه ولغة الجسد.

ومما يرافق الفعالية في الأسلوب، جانب الفجأة، ولكن في هذا العنصر مفارقة نوعا ما. ذلك أن الفعالية كما أشرنا تظهر في النتيجة النهائية وردود أفعال المتلقي على الأسلوب أو الخطاب أو الفجأة؛ فقد حدّد الأستاذ زمنها بأنها تكون حال اصطدام القارئ بالخطاب، وبتتابع جملة الموافقات وجملة المفارقات، والمقصود هنا بجملة المفارقات والموافقات هي ما يوافق توجه المتلقي، وما يخالفه.

ثم يشرح المسدي هذا الوجه في الأسلوب أكثر، والمتمثل في عنصر المفاجأة من خلال آراء واتجاهات عميد البلاغيين والنقاد الغرب رومان جاكسبون. وقد أخذ شرحا سهلا ممتعا عنه مختصرا: "تولد اللا- منتظر من خلال المنتظر"[2]. وهذا تعبير دقيق، لا يفسر الجانب الأسلوبي في النقد والأدب فحسب، بل يفسر جانب الكلام والتواصل لدى الإنسان بصفة عامة.

[1]- المصدر، ص85.

[2]- المصدر، ص86.

غير أن صفة الأسلوبية والجانب الإبداعي في الخطاب، يضيف للأسلوب الأدبي جانبا مضاعفا وحيزا أكبرا لعنصر الفجأة، لما له من وظائف انفعالية يجب أن تتوفر في الرسالة التي يوجهها المتكلم إلى متلقي واحد أو مجموعة من المتلقين. وهذا الأمر ملاحظ ومطرد في الخطابات ذات التأثير العالي. وقد ركز النقاد على هذا كثيرا من خلال معاملة جمال الأسلوبية وإبداعية الخطاب حسب قوته التأثيرية وإحداثه عامل الفجأة والمفاجأة. وقد صاغ هذه القيمة النقدية الدكتور المسدي في شكل معادلة؛ حيث تتناسب تأثيرية الأسلوب طرديا مع إحداث عامل الفجأة. كما تتناسب عكسيا مع أيّ رتابة في الخطاب أو تكرار؛ لأن هذا يضعف الأسلوب، كما يرى المسدي: "فكلما تكررت نفس الخاصية في نص ضعفت مقوماتها الأسلوبية، معنى ذلك أن التكرار يفقدها شحنتها التأثيرية تدريجيا"[1].

وأخيرا يقدم الدكتور الوجه الثالث للأسلوب، ممثلا في عنصر التقبل، والذي له علاقة بالمخاطب وفعل التلقي الذي يمارسه القارئ أو السامع، أو أي شكل من أشكال استقبال الرسالة. وإن هذا التقبل يحدد إلى جانب كبير طبيعة وتحقيق هدف الكلام وحصول المتكلم على قناعة المستمع، وعلى مراده من منجزه اللغوي بصفة عامة، بل المتقبل هو من يحدّد أيّ خلل في الأسلوب وتعطيل وظيفته من حيث ضعف الأسلوب نتيجة الجانب البنوي له، أو من جهة المعنى، وهذا ما يعرف في الأسلوبية بعنصري الانسجام والاتساق، أيّ الأمارات الشكلية والموضوعية في بناء الكلام والأساليب على اختلاف سياقها في التواصل.

هكذا ينتهي الدكتور عبد السلام المسدي إلى تقديم الأسلوب من منظور المخاطب، وما يبديه أو ما يتعلق به من أوجه ثلاث الانفعالية، الطاقة أو القوة الضاغطة. الفجأة والتقبل، ثم يخلص إلى أنّ الاهتمام بالمخاطب: "قد أكسب النظرية الأسلوبية ثراء في تعريف موضوعها وهو

[1]- المصدر، ص86.

الأسلوب، وذلك أن فرضية المخاطب في قراءة ماهيات الأسلوب تقوم نقضا للمبدأ الأنثولوجي المطلق"[1].

ثم نقرب هذه الأهمية أكثر حين يحدّد بدقة ماذا أضافت هذه النظرية للأسلوبية؟ "فإذا بماهية الأسلوب – وفقا لمنظور نظرية المخاطب – موجود مانع ومفروض، معلق لا يتنزل ولا يتجسد إلا بإصابة الخطاب مرماه في نفس المتقبل، ولهذه التقديرات أبعادها الأصولية، وأبرزها لا نص بلا قارئ، ولا خطاب بلا سامع". وهذا ما يعطي للأسلوب وللأسلوبية حتمية حضور جميع عناصره في ممارسة التحليل والتأويل. والمؤكد أن هذا هو سبب تفكيك مقاليد الأسلوب عند المسدي إلى هذه العناصر. ومنها المخاطب، وما سيليها في القسم الخامس والأخير من كتابه، وهو عنصر مصادرة الخطاب.

ربما يحق لنا أن نتساءل بعد أن رأينا أهمية ووظيفة المخاطب ضمن الأسلوب، وما لهما من دور تجاذبي وتكاملي في إنتاج وتلقي الأسلوب، أو الرسالة التواصلية بصفة عامة أيّ كانت طبيعتها، فهل سنرى مع الدكتور للخطاب أو ما سماه في قسمه بـ "مصادرة المخاطب" نفس العناصر المحددة له؟ فإجابة هذا التساؤل تكون بعد قراءة القسم الأخير من هذا الكتاب.

2-5- المخاطب والخطاب:

من المنطق حين نريد وصف الأسلوب أو الخطاب، أن نولي الأهمية والعناية الكبيرة بالخطاب على حساب المخاطب، غير أن الناقد المسدي لم ينطلق منها، فهل هذا أمر مقصود منه؟ أم أمر غير مؤسس على مصوغات علمية ونقدية؟ وإجابة على هذا التساؤل، وكأن المسدي يتوقع أن القارئ لهذا القسم من كتابه يسأل مباشرة عنه. لذلك أجاب: "أما تحديد ماهية الأسلوب باعتماد جوهر الخطاب في ذاته، فلعله الركن الضارب في مجمع رؤى لما يتجذر فيه

[1]- المصدر، ص87.

من ركائز المنظور اللساني"[1]. وتعطي هذه المقولة التمهيدية التي بادر بها المسدي تعزيز ما ذهبنا له أن للمخاطب قيمة على جميع أطرافه الأخرى. وهذا على مستوى الدرس العربي والدرس الغربي خصوصا.

وحين نتمعن في هذا التقديم والأولوية التي يعطيها المحدثون للخطاب أو الأسلوب – مادمنا في سياق الأسلوب وبصدد دراسته، فإن مردها ربما إلى ذلك الاهتمام المضاعف والبالغ الذي أولته اللسانيات الحديثة للبنية، وهذا ضمن الممارسة البنوية المعروفة في أوروبا وأمريكا. ولعل في هذه العناية بعنصر الخطاب أو الأسلوب رؤية صائبة في تفسير الكثير من ظواهره.

ثم يقدم الناقد التبرير العلمي والدقيق لهذا الأمر، قائلا: "إن النص إن كان وكذا لصاحبه، فإن الأسلوب هو وليد النص ذاته. وهذا الارتباط كما أشار الأستاذ هو وليد للصلة اللغوية، وهي المكون الأساسي له، وهي المادي التي ينتج منها، ويتصف بها، "وهذا الأساس في تحديد ماهية الأسلوب، يستمد ينابيعه من مقومات الظاهرة اللغوية في خصائصها البارزة الخفية". ونظم هذا البيان في خمس أوجه مترابطة.

أ- الوجه الأول:

الوجه الأول كريادة الخطاب هو ما قام به شارل بالي في تمييزه الخطاب عن اللغة في كونه يحمل سمة الأسلوب، والتي يشرحها لنا الناقد المسدي بوضوح أن اللساني الفرنسي بالي "حصر مفهوم الأسلوب في الطاقات التعبيرية الكامنة في صميم اللغة بخروجها من عالمها الافتراضي إلى حيز الموجود اللغوي"[2]. أي أن اللغة ذهنية، والأسلوب أو الخطاب لا يدخل اعتبار التفكير، وإنما اعتبار الأداء أو الإنجاز الفعلي للكلام. وإن هذا الجانب أو شرح هذا الوجه أن المسدي لم يسهب فيه كثيرا، وكأنه يريد أن يقول أن الألسوني بالي هو مؤسس علم الأسلوب ونحن نشرح

[1]- المصدر، ص88.

[2]- المصدر، ص89.

الأسلوب؛ فلا تتكلف كثيرا في هذا الجانب، له تفسير قيمة الخطاب في عملية نقده وقراءته وتأويله.

ولو نقرأ هذا الالتفات لشرح الأسلوب بين الدكتور المسدي وشارل بالي، لوجدنا أنه تواضع علمي من جهة، كما أنه لم يقدم أي تفسير تراثي لهذا الوجه من جانب بلاغي أو نحوي عربي، أو ربما كان ليُسر معنى المقولة لم يضف عليها إضافات كثيرة. لكن بالمقابل، لو نتأمل ختام ما شرحه، وسواء أكان ناقلا له من جانب الدرس اللساني العربي، أو من خلاصة علمه وفكره اللساني، فلو نتأمل شرحه هذا: "فكأن اللغة مجموعة شحنات معزولة والأسلوب هو إدخال بعضها في تفاعل مع البعض الآخر كما في مخبر كيماوي"[1]. فحسب فهمنا للشرح الأول أن اللغة مختبر ويرافقها التفكير، والأسلوب هو الأداء الفعلي، وهو التجلي لها في الكلام، فإن تشبيه اللغة بالمختبر، هو أصوب من تشبيه الأسلوب بذلك، فاللغة هي المرحلة الأولى وفيها التجارب والاختيارات والقوالب، ثم يكون في الأسلوب.

ب- الوجه الثاني:

في مفارقة خاصة، جعل الدكتور المسدي الوجه الثاني لشرح أهمية الأسلوب في القراءة النقدية هي عنصر الكلام ومنطلقات ونتائج دوسوسير. وليس في هذا جانب غريب، وإنما تقديمه لشارل بالي قبل التقديم التاريخي من حيث الكلام، ثم الأسلوب في الدرس اللساني، وقد ظهر هذا في اعترافه لأسبقية اللسانيات: "ولا شك أن هذا البسط هو وليد نظرية سوسير اللغوية. ولذا سيلتقي في منعطفه جل الأسلوبين بعد بالي، سواء منهم من تأثر به مباشرة، ثم طور نظريته أو من استمدوا مبادئهم النقدية مما أفرزته نظريات سوسير من مناهج بنيوية"[2].

[1]- المصدر، ص89.

[2]- المصدر، ص90.

وتفسير المسدي هذا الأمر، مختزلا له، مختصرا إياه في كون اللسانيات هي من جاءت بفكرة الدال والمدلول، وهذا الدال اللفظي والمدلول المعنوي هو المادة الأولى لإنتاج الخطاب أو الكلام، ومنه إنتاج الأسلوب. يقول المسدي: "وتلك السمة إنما هي شبكة تقاطع الدوال بالمدلولات ومجموع علائق بعضها ببعض". ومن ذلك كله، تتكون البنية النوعية للنص، وهي ذاتها أسلوبية.

ويستبدل الناقد على أصالة هذا التفكير في اللسانيات من خلال استحضار آراء الألسوني، والذي نظر إلى النص من خلال الأسلوب، ثم المكونات، إذ يرى أن "الأسلوب يتحدد بالعالم الأصغر للأدب، ويعني به النص، وهذا العالم الأصغر يحدده جهات الروابط القائمة بين العناصر اللغوية والمتفاعلة مع قوانين انتظامها"[1]. وهذه النظرة أو الرؤية النقدية هي رؤية أو منهج يدعو إلى الانطلاق من الوحدة الصغرى في الخطاب نحو الوحدة الكبرى، أي يجب أن تنظر أولا في المكونات الأولى للخطاب.

وحسب الدكتور المسدي، فإن هذا المنطق النقدي يقارب الإجراء التفكيكي، ولكن لا يقصد به منهج التفكيك أو التقويض المعروف، والذي يشتغل على الجانب المعنوي أكثر من أي أمارات شكلية ومنها الأسلوب: "وإذ يتحدد الأسلوب على هذا النمط، فإن العمل الأسلوبي لا يعدو أن يكون تفكيكا للعناصر المكونة لجهاز الإبلاغ لتتبع ما يحدث بينهما عند التفاعل وما ينقطع عند الانفصال، وذلك بطريق العزل"[2]. ومعلوم أن هذا الأمر يكون من صفات ومميزات البنية، فهي التي تتواشج بالحضور والغياب والاتصال والانفصال.

[1]- المصدر، ص91.

[2]- المصدر، ص93.

ج- الوجه الثالث:

في هذا الوجه أو الجانب الذي تتحدد به أسلوبية الخطاب، يشرح الدكتور مرافقة البنى اللغوية الرسالة التواصلية. ومن ذلك ما أشار له: "ومن أبرز النظريات الدلالية الحديثة تقرير اللسانيين بأن طاقة التعبير – وبها تحدد اللغة- مزدوجة في ذاتها، فمنها جدول تدريجي، ومنها جدول، فأما الأول، فيستمد قدرته الإخبارية من الدلالات الذاتية لمجموع الرصد اللغوي، وأما الثاني، فيستمدها من الدلالات السياقية التي تحملها اللغة بكثافات متنوعة عبر اختراقها لطبعات التاريخ ومنازل المجتمع"[1].

غير أن شرح الدكتور لهذا الجانب السيمائي في الخطاب، لم يقدم التوضيح الكافي، فجانب السياق والملحوظ، مبحث تداولي أكثر من سيمائي. كما أنّ جانب الأبحاثية الذي أضافه شرحه أو ما يسميه بالطاقات الأبحاثية لا يتطابق بدقة مع السماء؛ فالسيماء في الرسالة قد ترافق الملفوظ أو القول وتكون بارزة، أو ملامح وجه أم غير ذلك. فالسيماء ليس شرطا أن تكون ملمحا في بناء الخطاب بقدر ما تكون ظاهرة وبارزة مع البنية خاصة في الخطاب الشفوي أين ترافق الملامح الجانب المنطوق في الكلام.

د- الوجه الخامس:

أما الوجه الخامس من محددات الخطاب أو أسلوبية الخطاب، فقد تمثل في مفهوم العدول، وقد اعتبره الناقد العنصر المشترك الذي تشترك فيه جميع البحوث؛ فالدراسات المتعلقة بالأسلوب، "تكاد جل التيارات التي تعمد الخطاب أنشأ تعريفيا للأسلوب تنصب في مقياس الانزياح هو بمثابة العامل المشترك الموحد بينها ويتمثل في مفهوم"[2].

[1]- المصدر، ص97.

[2]- المصدر، ص98.

غير أن اللسانيات بهذا التصور، هي العلم المسؤول عن تحديد المعيار الصحيح والشمولي، أو القاعدة الأصلية التي تكون أصلا، حينها نقيس عليها كل تركيب مخالف أو مغاير ليكون فرعا أو أصلا، سواء على مستوى شكله، أو معناه. وقد سمي الدكتور هذا التركيب بأنه الواقع اللغوي[1]. ومنه يكون أي طارئ يطرأ على الأسلوب أو الخطاب انزياحا أو عدولا.

وإذا ما رجعنا إلى وجه سابق من أوجه تحديد الأسلوب عند الأستاذ، وجدنا أنه يكاد يتطابق أو تقرب من مفهوم المنتظر واللا–منتظر. واللامنظر طبعا هو كل ما حالف المألوف المنتظر، وبالتالي فهو كما أن فائدة كذلك تزيد من عنصر المفاجأة ولفت الانتباه، وغيرها من استراتيجيات التخاطب. ومن هنا تنتهي أوجه ومحدّدات الخطاب أو الّرسالة عند الدكتور المسدي.

2–6– العلاقة والإجراء:

في الأقسام الأولى السابقة من الكتاب، شرح الدكتور عبد السلام المسدي أصول الأسلوبية وماهيتها انطلاقا من الأسلوب، ثم ميلاد العلم المؤطر له، والذي طبعا هو الأسلوبية stylistique. أما في هذا القسم، فعالج الأستاذ مسألة حدود هذا العلم بغيره من التخصصات القريبة، ثم الجانب الإجرائي منه؛ أي التطبيقي، وقد حدد مجال هذا البحث بأنه ينتمي إلى فلسفة المعارف، بل هي التي تفتح باب التساؤل له لتحديد مجاله بدقة بين أقرانه من العلوم. كما تبين جانب النفعية فيه.

ولما كانت الأسلوبية أقرب إلى النقد الأدبي في جانبها الإجرائي؛ إذ هي متصلة باللسانيات في أصلها ونشأتها، فقد ثار الجدل حول جدوى ونفعية هذا العلم، لذلك نجد الدكتور المسدي لكأنه يحاول أن يؤسس لهذا العلم أو يبين جوانبه الإجرائية والنفعية. يقول المسدي: "لئن كان

[1]– المصدر، ص98.

التفكير الأصولي مقتضيا تتبع الركائز التأسيسية التي يقوم عليها العلم المطروق، فإن فلسفة المعارف تتخطاه بالتساؤل عن غائيات العلم وتقديم فرائض تخص وجوه الانتفاع وطرائق الإخصاب، والأسلوبية من حيث هي علم للأسلوب، ثم من حيث هي متصور مقترن بمعطى الظاهرة الأدبية تستوجب بالضرورة علاقة ما بالنقد الأدبي"[1].

ثم يبين الناقد في هذا الجانب من العلاقة والحضور والغياب؛ "فالأسلوبية والنقد الأدبي مقولتان لا يخلو أمرهما أصوليا من إحدى وقائع ثلاث: إما أن تتواجدا، وإما أن تتطابقا، وإما أن تنفي إحداهما الأخرى"[2]. ومعنى أن يكون أحد هذين العلمين نافيا للآخر، هو تقارب وظيفة كل منهما مع وظيفة الآخر. لكن لو تنظر بدقة، سنجد أن النقد أشمل وأوسع، لذلك يفرق المسدي بينهما في هذا الجانب من خلال عدة نقاط شرحها بالتفصيل. ونوجز منها ما يأتي:

في هذه النقطة، حسب – الدكتور المسدي– أن الأسلوبية من الناحية التاريخية حدث علمي مفصلي كما جاءت بينية بين المنطلق اللساني الحديث، والغاية الأدبية في قراءة الأدب. وقد وجدت النقد هو العلم الكفيل بذلك، خاصة أنها لم تتركه على ذاتية الناقد. وقدمت له ظواهرة كثيرة متعلقة بالبنية ومنها التكرار والحذف والإحالة، وغير ذلك من مكونات الأسلوب. وإن هذه العناصر هي ما شكل للنقد مصدرا ومعايير، لذلك أشاد الذكتور بهذا العلم، وقال بأنها "جسر اللسانيات إلى الأدب"[3].

ثم استشهد الناقد برأي النقاد الغربيين في هذا الجانب ومنهم والاك وفاران، وقد اعتبروا النقد هو الأسلوبية، ويفصح عن تاريخها؛ بل الأسلوبية في الجانب المعياري، وأنها تستحيل نظرية

[1]– المصدر، ص107.

[2]– المصدر، ص107.

[3]– المصدر، ص 108.

نقدية بالضرورة[1]. ويقصد بذلك، أنها مهما كانت، فإنها ستنتهي عنده وتعود إليه. ومن تأثير الأسلوبية في النقد، ورغم حداثتها بالنسبية التاريخية، يرى الناقد لطفي عبد البديع كما ينقل عنه المسدي: "أن النقد الحديث، وتلك سمته الأصلية قد استحال إلى نقد للأسلوب وصار فرعا من فروع علم الأسلوب ومهمته أن يمد هذا العلم بتعريفات جديدة ومعايير جديدة"[2].

من هذا الجانب، قدم الأستاذ علاقة الأسلوبية بالنقد، رغم أن هذا المبحث يحتاج إلى صفحات أكثر وجهد أكثر، خاصة أنها من ابستمولوجيا العلم، أو البحث في منشأ وأصول النظرية اللغوية والنقدية خاصة أن الأمر يزيد حدة حين يتعلق بالنقد العربي والتراث، وباللسانيات العربية، وما يثيره هذا الموضوع من جوانب من الاختلاف والتعصب أحيانا، وبين الموضوعية والحياد لدى آخرين، سواء من الجانب العربي أو الغربي كذلك، وهذا ما يجعل الصلة بين الوافد والموروث تحضر في كثير من القضايا اللسانية المعاصرة، ومنها الأسلوبية.

ولم يتوقف الدكتور عند هذا الإيجاز في شرح الجانب الأسلوبي، والذي يعنينا في هذا الفصل هو المستوى التنظيري للأسلوب، لأن الإجرائي سيكون موضوع الفصل الثاني من الأطروحة، وقد اخترنا له تطبيقات المسدي على عينة مختلفة ومتباينة من الأساليب. ولا شك أن ما أخذناه من تنظير أسلوبي من جميع أقسام الفصل الأول، قدم لنا ملمحا عاما أن الأسلوبية علم، وأن الأسلوب في أبسط تعاريفه هو التفرد والتميز، وهو الصفة الغالبة على الخطاب أو الكلام بصفة عامة. خاصة أن الأسلوب يظهر الملامح التميزية له مع الأجناس والتصورات الأدبية المختلفة. وما يحسب للدكتور في هذا التصور الذي شهدناه في الفصل، هو التأسيس الأصولي لعلم الأسلوبية؛ ابتداء من علم الأسلوب، إلى علاقته بالبلاغة واللسانيات الحديثة. وقد وفق في ذلك أيما توفيق.

---

[1]- المصدر، ص109.

[2]- المصدر، ص109.

من هنا، ومن خلال جهد الدكتور، تتضح معالم العلاقة بين الأسلوب والخطاب من جهة، وبين العلوم المشتغلة عليهما من جهة أخرى، وهي البلاغة القديمة واللسانيات الحديثة وتنوع الأسلوبية، وكأنها تستقي من مادتهما معا. وذلك لتحليل الخطابات الأدبية وسبر أغوارها، وقراءة مقاصدها، واستكشاف واستكناه مضامينها ومضمراتها؛ فالنص الأدبي ناتج عن مبدع مؤلف، وعن لغة وخيال وعاطفة، وعن تتابع من الوصف والسرد، لذلك فإن الأسلوب هو الوعاء الذي تجتمع فيه جميع هذه السمات الخطابية، والأسلوبية هي العلم الأجدر بتلقي النقد، وإعطائه الجانب المعياري والجانب التنظيمي، وهذا هو جوهر ما أراده الناقد عبد السلام المسدي بجزئيه أو من خلال مبحث العلاقة والإجراء. وسنعرف الجانب الإجرائي مع تطبيقاته في الفصل الثالث أكثر من هذه الدّراسة.

في هذا الفصل يبين عبد السلام المسدي أن مصدر توسط الأسلوبية بين الدراسات اللسانية اللغوية والدراسات النقدية الأدبية، أن الأسلوب له سمة الأدبية والإنشائية. وهذا هو الرابط بين المجالين أو التخصصين؛ إذ يكون بذلك حلقة الوصل، خاصة أن الكثير يعتقد كما نستشف هذا الحكم من كلام الناقد بأن الأسلوبية إجراء لساني محض، وهذا حسب الدكتور من المغالطات؛ فما دام اشتغال الأسلوبية على تحليل هذا الأسلوب. وهو ذات طبيعة تعبيرية، وفيها من المجازات والخروج عن المألوف والعدول عن السطحية وأحيانا كثيرة، وهذا ما شرحه الدكتور وعرفناه في الفصل السابق.

ومن خلاصة هذا الترابط، جاءت الأسلوبية بين كونها منهجا، وبين كونها نظرية. وربما الفارق بين هذه الأسس، أنّ النظرية ذات طابع نظري، والمنهج ذو طابع إجرائي وعملي، لذلك

قال الناقد: "إن الذي لا ننازع فيه أحدا بعدما استجليناه من قواعد التنظير الأسلوبي فيما سلف من بحثنا أن الأسلوبية منهج علمي في طرق الأسلوب الأدبي[1].

ولتدعيم ما ذهب إليه الدكتور أخذا عن كلام الناقد أحمد الشايب في المسألة أن الظاهرة الأدبية تتصل بالعاطفة والفكرة والخيال، وهذا له علاقة بالأسلوب، لذلك لابد أن تكون الأسلوبية كعلم من قبيل هذا الأمر. ولعل في هذا سبب عام، وهو اللغة؛ إذ هي جسر تواصل بين اللغة والأدب: "هي الظاهرة الشكلية الوحيدة التي تبين لنا أن تتعرف على الأدب الذي لا يتحقق إلا بها وفيها، ولا نعتمد في حكمنا على صانع الجمال أو الأديب إلا بتفحصنا المادة الحسية التي ينتهجها"[2]. ودون ذلك، فإنّ اللغة هي التي تضع كل هذا الالتحام والتداخل في مجال النقد والأدب، بل حتى في وغيرهما من العلوم والتخصصات.

[1]- المصدر، ص109.

[2]- المصدر، ص111.

خلاصة الفصل:

في نهاية هذا الفصل، وبعد أن تتبعنا ملامح الأسلوبية عند عبد السلام المسدي في جانبها التنظيري من خلال هذه المدونة المشهورة – الأسلوبية والأسلوب– نخلص أن الأستاذ أحاط بتركيبة الأسلوب وبعلم الأسلوبية إحاطة علمية، ركز فيها على إسهام اللسانيات في فهم الأسلوب، وفي تأسيس علمه الذي انبثق منها، وهذا دون أن ينسى صلتها بالبلاغة العربية التراثية، والمنطق القديم والفلسفة على اختلاف توجهاتها. ليكون بذلك الأسلوب ذا شأن في علم اللغة، وفي مجالاتها النقد والأدب، وتكون كذلك الأسلوبية علما يعنى به وبجميع جوانبه.

وإذا كان القسمان الأول والثاني من الكتاب يعنيان بالجانب المفهومي والإجرائي بين الأسلوب والأسلوبية، فإن الثالث والرابع والخامس، قدّما أسسا دقيقة لفهم الأسلوب، وذلك من خلال محدد الخطاب، المخاطب، المخاطب، ولكل عنصر منها أو مكون من مكونات إنتاج، وقراءة، وتلقي، وتأويل الخطاب، أو الرسالة التواصلية دورا خاصا في هذا المجال؛ فالمخاطب كفاعل ومنتج يؤسس في أسلوبه قوة ضاغطة للتأثير في متلقيه، وهذه القوة يحدد بالفعالية أو النجاعة. وكذلك عامل الفجأة والمنتظر واللامنتظر. أما المتلقي أو المستمع؛ فيقوم بفعل التلقي، وهنا تتحدد معالم أخرى للتلقي، مثل التقبل والاقتناع وغيرها.

أما الجانب الثالث أو الركن المهم من الأسلوب، فهو جانب الخطاب والرسالة. وقد رأى عبد السلام المسدي أن لها مداخل، وقد عرضها في أوجه: الجانب الأسلوبي، الجانب اللساني، وفيه البناء الثنائي من حضور وغياب، واتصال وانفصال. أما الجانب الثالث، فهو السيميائي، وفيه ما يمكن أن يميّزه الناقد في الخطاب أو الأسلوب من ملابسات سياقية وإيحائية، ومن ذلك الأمارة والإشارة، ثّم أضاف لها الدكتور جانب القول الملفوظ، وهو المقصد المتضمن داخل كل كلام.

الفصل الثالث

تطبيقات الأسلوبية عند المسدي: "قراءات مع الشابي والمتنبي والجاحظ وابن خلدون"

تمهيد الفصل:

بعد أن انتهينا في الفصل السابق "الجهود التنظيرية للأسلوبية عند عبد السلام المسدي"، وما تضمنه الفصل من قراءة ورؤية، وتتبع لشروح الأستاذ لقضايا الأسلوبية على مستوى نظرياتها وأعلامها، وجوانب تاريخية منها، وعلاقتها بالمنطق والبلاغة وعلم النفس، نعمد في هذا الفصل الثالث المسمى أو الموسوم بـ تطبيقات الأسلوبية عند المسدي من خلال "قراءات مع الشابي والمتنبي والجاحظ وابن خلدون" الملامح التطبيقية للأسلوبية في قراءة هذا التنوع الأسلوبي لأربعة مؤلفين من الأدباء والمفكرين، وهم، الشابي، المتنبي، الجاحظ، ابن خلدون.

وبما أن الإحاطة بالأسلوب من جانبه التطبيقي، تقتضي هذه الرؤية العامة من معرفة أساليب مختلفة، فإن اختلاف جنس الكتابة ونمط الأسلوب عند كل نموذج، كفيل بتحقيق هذه الإحاطة التطبيقية؛ فالشابي شاعر معاصر، والمتنبي شاعر تراثي، والجاحظ أسلوبه لغوي بلاغي علمي، أما ابن خلدون، فهو رائد علم الاجتماع بأسلوب علمي يجمع بين الوصف والتحليل.

من خلال هذا الفصل إذن، نرصد ملامح القراءة الأسلوبية التي عمدها الأستاذ المسدي لكل أسلوب. وهذا طبعا على سبيل التعريف بجهوده التطبيقية الأسلوبية من جهة، وعلى سبيل الإفادة منها، فبمعرفة أوجه تطبيق الأسس النظرية التي عقدها في كتابه الأسلوبية والأسلوب من جهة، ومعرفة ملامح التجديد المنهجي والتطبيقي لديه في هذا الجانب. وأما تقسيمنا للفصل، فلن يكون من باب التنظيم إلا من خلال تقسيمات الدكتور لمباحث كتابه. وهذا أدق في إعطاء الصورة والوصف الدقيق لعمله الأسلوبي:

- أولا: شرح منهج ومضمون الكتاب
- ثانيا: القراءة الأسلوبية التطبيقية لعبد السلام المسدي في الكتاب

أولا- شرح منهج ومضمون الكتاب:

بداية يشير عنوان الكتاب إلى أنه يحمل الطابع التطبيقي، خاصة أنه يحدد أو الأعلام بدقة، وذلك من خلال استخدام مصطلح قراءات، وهي بصيغة الجمع، والقراءة في النقد تتجاوز النظرة الشمولية السطحية المألوفة لفعل قرأ أو قراءات إلى الجانب التطبيقي النقدي، لذلك أوضح في أعلى صفحة الكتاب بأنه "دراسات نقدية"، بمعنى هذا تميز هذه القراءة من طابع السرد التاريخي أو المنظور الوصفي إلى الجانب التطبيقي للنقد الأسلوبي، فلو قال قائل: ليس في العنوان أيّ إشارة إلى الجانب الأسلوبي أو الأسلوبية؟ فتوضيح هذا، أن نص الجاحظ أو ابن خلدون لا يقرأ قراءة فنية وهو من النثر العلمي المتخصص. وبالتالي يكون النظر في أسلوبه هو صميم الدراسة الأسلوبية، وذلك لاكتشاف ما يميز أسلوبه عن غيره، وما تنفرد به سماته عن سواه، وهذا طبعا مما يحسب من مزايا أسلوبية لهذا الناقد في كونه طرق بابا نقديا، واقتحم بجرأة هذا المجال الرحب من توسيع دائرة النقد الأسلوبي من الجانب الفني للخطاب، فحسب إلى الجوانب العامة من قراءة جميع الأساليب، وما تتميز به.

ونشر هذا الكتاب من 203 صفحة بدار النشر "دار سعاد الصباح" للطبعة الرابعة له من سنة 1993 بالكويت. ورغم أننا نتعامل مع الطبعة الرابعة للكتاب، وليس بحوزتها بحوزتنا أي تاريخ للطبعة الأولى له، إلا أن بلوغ الكتاب لهذا الرقم من الطبعات دليل على علو مكانته، وعلى قيمته العلمية، خاصة أنه مائتي صفحة. والخلاصة أنه تجربة جمعت أكثر من مدونة واحدة في القراءة الأسلوبية. كما أنها جمعت وزاوجت بين الجانب المتخصص في الأسلوب، والجانب الأدبي الفني في مدونة الشابي والجاحظ، وستبين المقدمة خبايا منهجية وأهداف أخرى للعمل عند الدكتور عبد السلام المسدي.

أول ما نلحظه في قراءة مقدمة الكتاب أنها لم تتأسس على معالم نظرية واضحة، وإنما كانت شرحا موجزا لمحتوى الكتاب، وذلك ربما راجع إلى النهج التطبيقي الذي عمده المؤلف في كتابه،

وهذا مؤكد من تركيزه على التطبيق دون مقدمات مطولة؛ إذ شرع في كشف الملامح النقدية في المدونات التي عمدها بالدراسة. وربما السبب الثاني وهو الأقرب للصواب وأشار له الدكتور، بأن الكتاب ضم أعمالا متفرقة له، وهذا ما يجعل ترابطها النظري غير مصرح به في المقدمة؛ بل احتاج فقط إلى التعريف بمناسبة كل عمل منها، وقد بين ذلك في المقدمة.

غير أن ارتباط هذا العمل بالجانب الأسلوبي يكمن في أمرين أو ثلاث. أما الأول، فكونه توجه الدكتور اللساني نحو الأسلوبية أكثر؛ فهو عميد الأسلوبية العربية، ودون شك أن النقد له صلة كبيرة بهذا الجانب، بل النقد الأسلوبي من أوسع وأشمل فروع النقد الحديث. أما الأمر الثاني، فهو الجمع بين المدونات وقراءتها نقدا في أكثر من جانب أسلوبها؛ فالأسلوب هو التميز، وهو الخصائص المتميزة لكل كاتب أو مؤلف أو مبدع، لذلك كان النظر للمدونات نقدا، لابد أن يتخذ من الأسلوب مطية ومدخلا؛ بل هدفا في أحيان كثيرة نحو ولوج عالم النص، واكتشاف عوالمه.

ولعل ما يوضح الأمر أكثر– ولو أنه متعلق بمدونة واحدة – هو تصريح الأستاذ بأنه سيقرأ المدونة قراءة تجمع بين الجانب النفسي والأسلوبي: "وقد زاوجنا فيه بين الاستنطاق النفسي والتحليل الأسلوبي"[1]. لذلك فإن هذا التصريح يبين منهج الدكتور في هذه المدونة. كما يوضح معالم النزعة الأسلوبية التي تصطبغ بها هذه القراءات النقدية، خاصة في جانب المدونات التي ليس فيها جوانب فنية كالجاحظ وابن خلدون.

من الملاحظ أيضا على مقدمة المؤلف، أنها جاءت في تمهيدها وتوطئتها على نسق غير مألوف، فيه من الموضوعية العلمية والحياد، وإحساس المؤلف بمسؤولية ما سيقدمه للقارئ، وهذه سمة التواضع العلمي التي تميز بها الناقد، وقد بدأ بـ "هذه قراءات تلزم صاحبها أكثر مما

[1]– عبد السلام المسدي، قراءات مع الشابي والمتنبي والجاحظ وابن خلدون، دار سعاد الصباح، الكويت، ط3، 1993، ص7.

تلزمك أيها القارئ الكريم، فهي تحمل نفسها كل تبعات القراءة التي هي تتجاوز بالضرورة: تتخطى المقروء من حيث هو نص بعد أن تتخطى ما حول النص من متراكمات[1].

ولعل الشرح الذي قدمه المؤلف جاء لفك التأويل والغموض الذي يعتري العنوان؛ أي من يجب عليه أن يقوم بفعل القراءة أهو المؤلف أم نحن قراء الكتاب؟ ليجيب موضحا أن القراءة تلزمه هو وفق معالم نقدية تتجاوز الوصف السطحي الظاهر إلى مكامن الأسلوب لدى كل مؤلف وفي كل مدونة. لكن بالمقابل، لم ينف المؤلف أن تكون قراءته هذه إغراء للقارئ ولفتا لانتباهه، مضيفا: "فليس بدعا أن ترغب هذه القراءات عن استهوائك أو إغرائك، فضلا عن الاستدراج الذي يجر النقد إلى المجابهة جراء". فهذا العنوان يجمع بين وظيفة تحديد المنحنى العلمي للمخبر البحثي، وبين جانب الإثارة والتشويق ولفت الانتباه.

وقبل أن يعرف المؤلف بكل مدونة على حدة كما أشرنا سابقا، عمد إلى تقديم مبرر الترابط والتناسب كما سماه هو بين المدونات التي اختارها. مبيننا أن هذا من خلاصة حيرة عالم اللسان، والذي حسبه يصف بالظواهر اللغوية ساعة تشد عن مقابض الإدراك سواء كان محطها القول الأدبي أو الخطاب النقدي أو الكلام المعرفي"[2].

وإن هذا التبرير والشرح والتفسير الذي يعمده الدكتور المسدي، هو توجيه وانفتاح للنقد الأدبي على مجالات كثيرة، منها القول الأدبي، وهذا معلوم، وهو يشمل جميع الخطابات والأجناس الأدبية، ومنها الخطاب النقدي، وهو إعادة قراءة أيّ لغة علمية أو نقدية في مجال ما، وربما قصد به هنا خطاب الجاحظ في كتابه البيان والتبين. أما النمط الثالث، فهو الكلام المعرفي، وهو نتاج المفكر، وهذا ما ينطبق على تحليله لمقدمة ابن خلدون وطبيعة الأسلوب العلمي فيها.

[1]– عبد السلام المسدي، قراءات مع الشابي والمتنبي والجاحظ وابن خلدون، مقدمة المصدر، ص5.

[2]– نفس المصدر، مقدمة المصدر، ص5.

ثم بين الدكتور المسدي مناسبة كل تحليل لمدونة، بدءا بالشابي لأنه الشاعر التونسي الذي ينسج للوطن ولأغاني الحياة، ولتناقضات وجدانه. لذلك فأسلوبه الشعري تجربة تستحق القراءة والتمعن والنقد. أما المتنبي، فهو الشاعر الأموي الذي تميز شعره بالتأرجح بين الحكمة والصورة الشعرية الفنية ذات البعد السياسي والثقافي، كأنه يعطي صورة عن امتزاج الشعر العربي بالحياة الاجتماعية.

أما أسلوب ابن خلدون، ففيه تميز فكري، واتساع في خلق النمط الأسلوبي مع الفكر والآراء التي كانت في كتابه؛ فأسلوبه نوع من النثر الفني. أما المدونة الأخيرة من هذه التجربة الأسلوبية، فكانت مع أسلوب الجاحظ، وهي أشبه بالمختبر البلاغي، وهذا هو الفارق بين أسلوب ابن خلدون والجاحظ. وكأن الناقد لهذه المدونات، يعقد فروقا ومقارنات بين الأسلوب العلمي والأدبي، وبين الأسلوب القديم والحديث، وهذا لإعطاء ملامح عامة حول ظاهرة الأسلوب من خلال أكثر من كاتب.

ولئن كان الدكتور دقيقا في اختيار مدوناته للمناسبات العلمية التي أنتج فيها هذا النتاج النقدي، إلا أن نزعته اللسانية وخاصة الأسلوبية كانت اللازمة أو المنوال الذي يكتب به. ولئن كانت مهمته في مدوناته الوقوف على الخصائص الأسلوبية للشابي والمتنبي والجاحظ وابن خلدون، فإن مهمتنا – طبعا – هي استخراج وتتبع السمات الأسلوبية لخطابه العلمي، وسمات نقده، وهذا ضمن ما يعرف بـ "نقد النقد".

ولا شك أنّ اختيار الأستاذ لمدونة كهذه، فإن النقد والكلام يكون معها ذو شجون، والأدب بحر من المعاني التي يستشفها الناقد من استنطاق النص. وكلما كانت النصوص تتنوع، كلما كانت الظواهر الأسلوبية أقرب إلى الكشف عنها، وأيسر في اكتشافها واستجلائها، خاصة أن تنوعها يعطي فرصا أكثر لتطبيق أكثر من جانب أسلوبي، أو ما ترابط معه من مناهج أو

مقاربات أخرى كما هو موجود مع قراءة الشابي أسلوبيا ونفسيا، وكذلك قراءة كتابات ابن خلدون من منظور أسلوبي ونسق آخر ثقافي.

كما أن هذا الأمر لا ينطبق على الأسلوبية فحسب، بل على جميع المناهج خاصة النسقية، وخاصة تلك المنبثقة عن المناهج والنظريات اللسانية العربية، والتي جاءت بفعل الترجمة والتعريب؛ أين تكون فيها معالم النظري والتطبيقي غير واضحة.

فهذا التنوع في المدونات، هو مؤشر لجرأة وكفاءة وتمكن الأستاذ المسدي، وهو أهل لهذا التميز، خاصة أنه متمكن من اللغات الأجنبية مهد الدراسات النقدية الحديثة. كما لا تخفى عليه الكثير من خبايا النقد العربي. لذلك كان اختيارنا لهذا العمل من مجموع أعماله، لتطبيقه للأسلوبية أولا، ولتمكينه ووضوح منهجه ثانيا، ومنه نشرع في نقده، مقسمين ذلك حسب الفصول التي أوردها في كتابه؛ فصل الشابي، فصل المتنبي، فصل الجاحظ، فصل ابن خلدون. وهذا الترتيب ليس على سبيل التزامن أو التاريخ، بل هو ترتيب انتهجه الدكتور دون أن يفصح عن أسبابه.

ثانيا- القراءة الأسلوبية التطبيقية لعبد السلام المسدي في الكتاب:

1- النقد الأسلوبي في فصل: "مع الشابي بين المقول الشعري والملفوظ النفسي":

1-1- شرح عنوان الفصل:

بداية يبدو في قراءتنا لهذه الجزئية أو الفصل من كتاب الدكتور عبد السلام المسدي "مع الشابي بين المقول الشعري والملفوظ النفسي، أن المنهج النفسي منهج سياقي، ونحن ندرج معه المنهج الأسلوبي كنسق أو منهج نسقي مع البنوية والسيميائية والتداولية، وغيرها من المناهج الحديثة كالتفكيكية أو نقد النقد. فصحيح أن الجمع بين الجانب النفسي والنسق الأسلوبي يبدو غير متماثل، لكن حين نتمعن في العنوان جليا، نجد أن إقران الدكتور بين المقول الشعري

والملفوظ النفسي يبين اشتغاله بينهما أمرا متصلا بالجانب الأسلوبي وأساليب الكلام، لذلك كان طرقنا لهذا الجانب أمرا منطقيا ومؤسسا بتبريرات علمية صحيحة ودقيقة.

وإذا كان هذا النقد أو الإجراء النقدي الذي يعمده الدكتور لمدونة الشاعر الشابي يتأسس على القراءة النفسية وكذلك الأسلوبية كما بينا سابقا، فإن سمات ومصطلحات التداولية تطفو على سطح العنوان، فالقول والملفوظ هما من صميم الدرس النقدي التداولي، ومن مجموع المصطلحات المرافقة للسانيات التداولية؛ بل تشير إلى أن قراءة الدكتور المسدي لأدب الشابي، ستكون بين القول، وهو الجانب الظاهر، والملفوظ وهو الجانب الباطني النفسي؛ لأن الملفوظ في التداولية كما هو معلوم ومعروف يشتغل على الوصول إلى المقصود، ومحاولة تفسير قصدية كل منجز كلامي (قول).

على هذا الأساس، يمكننا استنتاج طبيعة القراءة التحليلية من صورة العنوان ومصطلحاته، فقد قدم هنا الدكتور وعدا بأن يغوص في أعماق نفسية الشاعر من خلال منجزه الشعري، ومن خلال نماذج منه، ليصل بنا إلى المقاصد والغايات والوسائل الأدبية والفنية التي تحملها إبداعاته. كما يمكن أن تحدد المعالم بأن الجانب النفسي هو هدف، لكن الأسلوب وتفكيكه وتحليله غاية ووسيلة يصل بها الدكتور إلى ذلك الهدف. ومنه نتبع ونرصد هذا الصنيع الأسلوبي عنده.

1-2- آليات قراءة وتحليل المسدي لشعر الشابي:

على غرار ما يصنعه الدكتور في مؤلفاته ومداخلاته، وعلى غرار ما يأتي به الباحثون في مؤلفاتهم من التمهيد والإحالة النظرية بالموضوع قبل الشروع في الجانب التطبيقي له، وهذا ما أقامه الدكتور مع بداية هذا الفصل، حيث انطلق من شرح علاقة النقد بالأدب، وإن دل هذا على شيء، فإنما يدل على المنطلق النقدي الذي ينطلق منه الأستاذ، ويدل على زاده النقدي

واللغوي الوفير، خاصة بعدما عرفنا عنه الكثير في الفصل الثاني من أطروحتنا، وتخصصه في جانب النقد الأسلوبي، واطلاعه على التنظير اللساني فيه.

يشرح الأستاذ علاقة الأدب بالنقد من خلال مزية الأدب في كونه المدونة التي يجري فيها المختبر النقدي تجاربه، كما تشكل مادته وهدفه الأول. أما مزية النقد، فهي تجمع بين خطورة الكشف أحيانا، وفصل التشريح والشرح والتعليل في أحيان أخرى كثيرة؛ فالنقد طبعا هو ميزان الأدب. يقول الدكتور: "للنقد على الأدب في الخطر أحيانا ماله عليه من الفضل، يأخذ بعضه من بعض، فيتراكم حتى يحتجب القول الأدبي وراء القول النقدي"[1]. وهنا يشير الدكتور إلى تواشج التخصصات والجانب التنظيري والتطبيقي.

ثم يبين المسدي هدف البحث النقدي هذا: "ومطمح البحث أن نقرأ بشعره قراءة تشق سجوف ما تراكم؛ فلا تأخذ من خارج النص إلا بمقدار، وأوله المعطى التاريخي"[2]. ومقصود الدكتور هنا، أنه سيركز على الجانب الداخلي؛ أي المضمر والخفي من معاني الشعر عن الشاعر الشابي. والعلة في ذلك هو الهدف العام من الوقوف على الجوانب النفسية للنص، والجانب النفسي جانب داخلي وليس خارجي، غير أنه متعلق بالخارجي ناتج ناجم عنه، لذلك قال: "فلا نأخذ منه إلا بمقدار".

أما الجانب التاريخي الذي أشار له هنا، فليس يقصد منه النقد النسقي السياقي التاريخي، وإنما نظرة تاريخية عامة. ويقصد به حياة الشاعر أبي القاسم الشابي، وكذلك الظروف التي لازمت أدبه، وهذا بعلاقة الأدب الوطيدة بالحياة السياسية الاجتماعية والثقافية، خاصة الشعر العربي، لذلك قال الدكتور: "فلقد عاش أبو القاسم الشابي في الثلث الأول من حياته بين سنتي

[1]– المصدر، ص13.

[2]– المصدر، ص13.

1909 و1934 في إطار تاريخي تميز بفترة ما بين الحربين والتأزم الاقتصادي العالمي، وقد كان العالم العربي الإسلامي تحت كابوس الاستعمار"[1].

إن في هذا السياق التوضيحي للبيئة علاقة وطيدة بالجانب النقدي والنفسي؛ فقد لازمت الظروف النفسية للشاعر، وصقلت مواهبة ودواعي النظم عنده، وسيبين تحليل المسدي جزء كبيرا من هذا كما عهد به في مقدمة هذا الفصل.

وبعد أن قدم جانبا مهما من حياة الشاعر الشابي، ووصفه بأوصاف تربط بين تكوين شخصيته وتكوين المعالم الشعرية، قائلا: "أزهري التكوين، زيتوني الثقافة، فكان له ثراء في التكوين، غزارة في المعرفة وبداية إنتاج"[2]. وهذا الوصف، هو وصف العالم المبدع للشاعر الفحل، ووصف المقرب له الذي يتقاسم مع الدكتور عبد السلام الأرض والوطن والتاريخ. ولم يكن الأستاذ متكلفا في هذا؛ إذ الشاعر الشابي غني عن التعريف، وما آثاره الشعرية إلا معلم بارزا عما تميز به واتصف، وما أبدع فيه وأجاد.

ومن الطبيعي أن ينساب الدكتور من وصف نموذج دراسة إلى وصف حياته إلى وصف مكامن الشاعرية فيه. ويحسب ذلك من حيث الكم أولا؛ حيث يرى أن موهبة الشابي اتصفت بغزارة النتاج مقارنة بالمدى الزمني الذي كتب فيه شعره ونظم خلاله قصائده[3]. وهذه لفتة دقيقة من الدكتور في مقارنة الشابي بأقرانه؛ بل تؤسس معيارا كميا لقياس فحولة الشعر من حيث مقارنة غزارة الإنتاج بجانب العمر الذي يعيشه الشاعر، أو الذي ينسخ فيه ديوانا أو أعمالا كاملة، بل ربما يكون هذا المعيار جديدا مما أجادت به قريحة الدكتور النقدية.

---

[1]– المصدر، ص14.

[2]– المصدر، ص14.

[3]– المصدر، ص15.

ومن الصفات التي أضافها للشاعر كذلك، رأى الدكتور المسدي أن الشابي ذو إرادة وعزيمة، وربما هذه صفة تبدو نائية وبعيدة عن المجال الفني، لكن ما الموقف الذي اتخذه الشابي على المستوى الشعري حتى يصفه الناقد بهذا؟ ربما سيجيبنا المسدي عن هذا التساؤل الذي يحق لكل قارئ لهذا الفصل من كتابه أن يسأل كيف تكون إرادة الشاعر مقدارا لشاعريته أو معيارا لأدبه ونقده؛ حيث يصرح: "ومن المقومات الشخصية قوة الإرادة وصلابة العزيمة، تجلى ذلك في تكوينه العصامي[1]، فإذا سلمنا بأن التكوين العصامي يستحق من الطبيعي أن يوصف صاحبه بالإرادة بصفة عامة، فإن أغلب الشعراء كانوا على عصامية النشأة الشعرية، لذلك يضيف الدكتور سببا ثانيا يفسر به سبب وصفه للشابي للإرادة، وهو ما سماه بالمغالبة، وقد اختصرها في "مغالبته للمجتمع"[2].

ثم تتضح معالم وصفه أكثر حين بّين الناقد أنّ الشابي كانت حياته مزيجا من السعادة والشقاء، وهما نقيضان متناقضان؛ لذلك "هكذا كانت السمة المميزة لأغاني الحياة الإحساس الشعوري الدقيق والوجدان العاطفي العربي"[3].

وبعد تقديم الدكتور لهذا الملمح الخارجي عن مصدر الإبداع عند الشابي، عمد إلى التوغل في بعض الظواهر النفسية التي تحرّك الشعر عنده؛ بل هي التي جعلت شعره يضطرب كما اضطربت شخصيته مع الوضع النفسي والسياسي والظروف عموما التي تعيشها البلاد. وربما هذا الجانب من النقد من سمات النقد السياحي؛ حيث يتأسس على الجانب الخارجي للشخصية بعيدا عن النص، وربما إذا ما تتبعنا ملامح القراءة الأسلوبية عند الدكتور وأساليبها في الفصل

[1]– المصدر، ص15.

[2]– المصدر، ص15.

[3]– المصدر، ص16.

الأول من دراستنا، لوجدنا أن الدكتور لا يستخدم هذه الآليات التعبيرية الخارجية للأدب ضمن منهج الأسلوبية، وإنما يركز على البناء.

لذلك نجده في هذا الفصل مع الشابي سرعان ما يتجاوز هذا من وصفه الآتي: "انعكست كل هذه الخصائص على شعر الشابي، فجاءت به أدبا خالصا بقلقه، صادقا بحيرته، عنوانه الطبع الأصيل، ووجهته نحت ما في الذات الموجعة، فكان أدب التحدي للأنماط الزالقة بغية إقامة دعائم القيم الحقد، وكان أدب الرفض الخلاق غير أن تفاعل العناصر المكونة مع الحساسية الداخلية ومواجهة المقاومات الخارجية للمقومات الداخلية، قد طبع كل ذلك أدب شاعرنا بالتأزم"[1].

من هنا، ينتقل بنا الناقد بكل سلاسة إلى جانب الأسلوب والبنية موضحا: "وتدور هذه الظاهرة النقدية النفسانية كما تلهم بها أنساق الصياغة اللغوية ضمن نسج البناء الشعري"[2]. وهذه – بلا شك – هي المدخل الذي اختاره الناقد في قراءة أسلوب الشاعر الشابي، ومزجه بالملامح النفسية التي تفصح عنها القصيدة، أو البيت، أو حتى الكلمة الواحدة داخل سياق النظم.

ثم يعرج الدكتور بلفتة خفيفة حول آراء النقاد في تفسير تجربة الشابي من الناحية الوجدانية كما يصف هو. وربما هذا لأن لتحليله بعدا وجدانيا بحكم أن القراءة التي يعمدها قراءة نفسية أسلوبية، لذلك كان الوجدان حاضرا في مواقف النقاد من حيث المنظور الوجداني، وقد رد الدكتور هذا الاختلاف والتضارب في آراء النقاد إلى تجاهل غياب السياق التاريخي لنصوص الشابي. وقد صرح بهذا: "فالموضوع ظل يفتقر إلى شهادات وثائقية، ولا شك أن أبرز ما تبين من مميزات شخصية الشابي، قد جعل الشاعر ضنينا بنفسه على الآخرين"[3].

---

[1]– المصدر، ص17.

[2]– المصدر، ص18.

[3]– المصدر، ص18.

وفي هذه النقطة يثار إشكال المناهج السياقية؛ بل وجوب تكامل الزوايا والرؤى التي ينظر منها للأدب أو العمل الفني؛ فالنظرة النفسية الوجدانية للنقاد في نقد أعمال الشابي، شابها الاختلاف، لذلك احتاج الناقد إلى قرينة التاريخ، ذلك أن "المعطيات التاريخية ما هي إلا سند من الأسانيد يضمحل وقعها ما لم تقم في النص الملفوظ شهادة لها". ثم يرجح الناقد الجانب القولي والإنشائي حتى يتوصل إلى الحكم أو الوصف المطابق لنقد الأدب أو الأسلوب ومؤلفه وسياقاته: "وأقوى الشهادات تناسج المقول الإنشائي بالإفضاء النفسي"[1].

يبادر الناقد إعطاء صورة نفسية أسلوبية للشاعر بقصيدة "مأتم الحب"، وهي قصيدة من ديوان الشابي المشهور "أغاني الحياة"، وهي حسب الناقد صورة للحب الممزوج بالفشل. وهو " يصور لنا بطلا ذاتيا عاش تجربة عاطفية عميقة باءت بالفشل بعد موت الحبيبة في ريعان شبابها"[2]. وإذا كان تصوير الشّاعر الشّابي للأبيات نابعا من معاناة وإحساس، فهل اختيار الناقد المسدي لها لأجل كشف مدى الحزن الذي انتابه بين الحب والموت، هل لأن الحزن أبرز عاطفة يجب أن نستشفها من حروف وكلمات الشاعر، هل للناقد تبرير لهذا الاختيار؟ يجيبنا الأستاذ عبد السلام، أنّ فنية التصوير داخل القصيدة لم تحل دونها عاطفة الحزن، فحتى مع الموت، يبدع الشابي. يقول المسدي: "بعد إيجابي من حيث تفجير شحنات الملكات الشعرية الخلاقة، وبعد سلبي في ذاته لما فيه من قواعد مأساوية"[3].

والانطلاق من الجانب النفسي عند الناقد، ربما مرده إلى الشعور بما يشعر به الشابي، أو ربما لأن القراءة ذات بعد نفسي في منطلقها. وقد ألفنا مع فقدان البسيط النفسي منه أو الأسلوبي أن تنطلق من الأبيات قبل تقديم أيّ حكم مسبق، وذلك حتى تفصح عنه اللغة تلقائيا،

[1]– المصدر، ص18.

[2]– المصدر، ص18.

[3]– المصدر، ص19.

أما مع ناقدنا المسدي، فجاء العكس أولا، فقد قدم لنا صورة عن نفسية الشاعر، غير أنه وإن لم يثر هذا الأمر بالغ الاهتمام ويلفت الانتباه، إلا أنه كسر المتوقع بأن ربط إبداع النص بهدوء أقوال الشاعر النفسية، ثم قدم لنا أبياتا للاستشهاد.

في الدياجي

كم أناجي

مسمع القبر بغصات نحيبي وشجوني

ثم أصغي علني أسمع ترديد أنيني

فأرى صوتي فريد

فأنادي

يا فؤادي[1].

وعين المفارقة كما يرى الناقد، أن لحن القصيدة نابع من التظلم والحرمان، وليس فيه أي عاطفة رومانسية، وليس فيه من أغاني الحياة والطبيعة، والورود والزهور، بل فيه تراكيب أسلوبية من الألم والحزن. وإن لم يشر لهذا الناقد، فقد تقدم منه أو نيابة عنه ألفاظا من الأبيات التي أخذها للاستشهاد بها. وبذلك يحدث التماهي بين النص وصاحبه، فما النص إلا انعكاس لحياة المبدع، وهذا ما تعمق فيه فرويد (freud)، لذا نجد المسدي يربط بين الأسلوب والجانب النفسي لصاحبه، ولكن لم يقتصر فقط على اللاشعور ولا على المبدع قائلا: "وهكذا تتنزل نظرية تحديد الأسلوب منزلة لوحة الإسقاط الكاشفة لمخبآت شخصية الإنسان؛ فالأسلوب جسر

[1]– المصدر، ص19.

إلى مقاصد صاحبه من حيث إنه قناة العبور إلى مقومات شخصيته لا الفنية فحسب، بل الوجودية مطلقا"[1].

ولكن هناك من له رؤية أخرى في ذلك ،لأن "الأسلوب لا يعبر –في بعض الأحيان –تعبيرا دقيقا عن نفسية المنشئ وعقيدته ،إذ قد يلجأ –أي المنشئ–إلى إخفاء مشاعره و أفكاره المذهبية خوفا أو هروبا أو رياء،فلا ينطبق ما يدور في خلده على ما ينطق به"[2]. ويتيح دراسة شخصية الكاتب من خلال الكلام المكتوب، ومن خلال الأسلوب الخاص المتبع في هذه الكتابة فابتكر نوعا من النقد يرتكز على دراسة الطوابع الأسلوبية التي يتسم بها العمل الأدبي و قد تعكس نفسية صاحبه"[3].

وأول الألفاظ من معجم البيتين السابقين، لفظ الدجى، وهي جمع الدجى، وفي الدجى ظلمة ووحشة، وطول حزن وانتظار. وإذا كان الدجى وحده ظلمة، فكيف به جمعا. لذلك فإن عاطفة الشاعر لا شك أنها في خيبة وانكسار. واللفظ الثاني هو القبر، وهل يذكر المحب القبر؟ إلا وقد أردى القبر الذي حبيبه فيه حياته، هو كذلك قبرا ونهاية وحزنا. ومن الألفاظ المرافقة له النحيب، وهل يكون النحيب للمحب؟ بل النحيب لمن فقد عزيزا له. وأضاف لهذا الألفاظ، مات، اللحد، الحزن، قلب، حيد. وكلها من معجم شعري مليء بالحزن والأسى، والأسف والحسرة. وهنا يمكن أن تكون هذه القراءة في أسلوب الشاعر سمة ظاهرة على الحزن عنده، وقراءة نفسيته له.

ولعل هذا من الدلائل كذلك على ضرورة الأسلوبية كمنهج نسقي مع المناهج السياقية. خاصة الاجتماعي منه والنفسي، إذ التاريخي أمره نسبي نوعا ما، فليس من اليسير أن تفضح الكلمات والتراكيب والأساليب عن أي شيء ما من تاريخ صاحبها بقدر ما تفصح عن انتمائه

[1]– عبد السلام المسدي، الأسلوبية والأسلوب، الدار العربية للكتاب، ط3، دس، ص68.

[2]– فتح الله أحمد سليمان، الأسلوبية مدخل نظري ودراسة تطبيقية، مكتبة الآداب القاهرة، ط منقحة، 2004، ص15.

[3]- عبد الجواد، إبراهيم عبد الله أحمد، الاتجاهات الأسلوبية في النقد العربي الحديث، إشراف إبراهيم السعافين، هذه الرسالة استكمالاً متطلبات نيل درجة دكتوراه، عمان، تشرين الثاني، 1994، الجامعة الأردنية.

الاجتماعي أو شعوره النفسي. وهنا كان من الناقد عبد السلام المسدي أن يرافق خاصية النفس شيئا من فك شفرات أسلوب الشابي على مستوى معجمه اللفظي الشعري، وعلى مستوى التراكيب.

ثم يقدم الدكتور مثالا آخرا من نفس الديوان من قصيدة شابهت الأولى في العنوان بين "أيها الحب" و"مأتم إليه. وقد وصف الناقد مأساة الشاعر بأنها مصدرا للشقاء"[1]، وأن تكون العاطفة شقاء، فمعناه قيمة الحزن والكآبة.

وكان استحضار الناقد لأبيات قصيدة "أيها الحب" دقيقا جدا لتعبر له عن تناقضات عجيبة، ومفارقات غريبة سكنت فؤاد الشاعر، وطغت على وجدانه ونفسيته، فحولته إلى صورة من ثنائية متضادة عبر عنها الناقد بقوله مستخلصا: "هكذا تشتد ضغوط المتناقضات، وإيلام المتفارقات على إحساس الشاعر وكيانه الوجودي، فتتفجر نفسيته في الحب تفجرا متأزما ينتهج بها منحى المأساة القائمة على التمزق يغذيه الشعور ... والحرمان"[2].

وإذا كان صنيع الشاعر ونظمه قد أوحى للناقد المسدي التناقض الوجداني النفسي، فإنه بالمقابل يوحي لكل قارئ للأبيات ذلك النسيج الأسلوبي العجيب المتناقض كذلك، وقد انسجم تركيبه مع معناه؛ بل غيرت مفرداته وألفاظه تماما كما عبرت جملة داخل الأبيات؛ حيث ينقل لنا الناقد منها النماذج الآتية:

"أيها الحب أنت سر بلائي وهمومي وروعتي وعنائي
ونحولي أدمعي وعنائي وسقامي لوعتي وشقائي
أيها الحب أنت سر وجودي وحياتي وعزتي وإبائي
وشعاعي ما بين ديجور دهري وأليفي وقرتي ورجائي

[1]– المصدر، ص20.
[2]– المصدر، ص20.

يا سلاف الفؤاد يا سم نفسي في حياتي شدتي يا رخائي"[1].

فلو عمدنا إلى تفكيك هذه الأبيات رغم أنها لم يذكرها المسدي مجتمعة هكذا، لوجدنا فيها معجما شعريا يميزها أسلوبيا عن المألوف؛ بل لا تشير إلى التأزم النفسي فحسب، بل إلى التضاد اللغوي والخروج عن المألوف، بما تشكله من عدول واختراق لكل منتظر بما هو غير منتظر؛ فالحب بلاء وهم، وروعة وعناء، وتحول وأدمع وعذاب؛ بل أشد من ذلك لوعة وشقاء. لكن هل كل هاته الحمولة المعنوية واللفظية ذات الشحنات النفسية السالبة هي الحب؟ أم أنه شيء آخر؟ والصواب طبعا لا، فقط عند الشاعر، غير كونه حياة وعزا، وأكثر من ذلك ألفة وقرة ورجاء. ثم يجمع كل تلك المتناقضات في البيت الأخير:

يا سلاف الفؤاد يا سم نفسي في حياتي يا شدتي يا رخائي

وإذا كان من البداهة ومن المعلوم أن يكون للنقد الأسلوبي مداخلا تركيبية بنيوية ينفذ منها، ويلجأ إليها الناقد الفاحص أو القارئ المتبصر، فإن التحليل النفسي يتخذ من تلك المنافذ ركيزة يستند إليها في الولوج إلى عوالم الشاعر الداخلية، واستنطاق نفسية وخوالج نفسه، وكل ما تمليه يكون في بنية الإبداع ومعانيه. ومن هذه المداخل، بل من أوضحها المستوى المعجمي، أو الكلمات، لذلك شابه الناقد الشاعر الشابي بأهل التصوف، والتصوف يشتغل على مثل هذه المفارقة، ويعزفون على وتر الكلمات ذات التأثير النفسي العالي، وقد وصف المسدي انطلاقا مما سبق شرحه بأنه: " مأساة ازدواجه والحب تصويرا انتحاريا فيه كثير من مظاهر التحطيم الذاتي لنفس تمزقت حتى تصدعت ثم انصهرت في الألم فروضت عليه حتى بلغت بصاحبها روحا من التجلد هو إلى الحالات الصوفية أقرب منه إلى نوبات الرومانسيين"[2].

[1]- ينظر: المصدر، ص20.

[2]- المصدر، ص20.

ولم تكن هذه السمة الفنية الفكرية مقتصرة على قصيدة واحدة لنقول بأنها نزعة عابرة مع موقف أو شعور مؤقت، بل استشهد الناقد لها وضرب عنها مثالا ونموذجا من قصيدة أخرى، وهي "صلوات في هيكل الحب". غير أنّ عنوان القصيدة أكثر إفصاحا عن النزعة الصوفية من غيرها من مجموع قصائد الديوان. يقول الناقد: "ولعل هذا الانبهار بالغ قمته في قصيدة هيكل في صلوات الحب التي تتألق على دفتي أغاني الحياة معلما من معالم التفرد بالخصوصية من حيث انصهار الصوغ الشعري والتصوير الإيحائي والمضمون النفسي"[1].

ومن هنا ينتهي الدكتور إلى تقديم لمحة عامة عن نفسية الشاعر الشابي في قصائده، لتنتقل إلى الجانب الأسلوبي من خلال تقديم صور أسلوبية لازمت هذا الوجدان الشعري، وقد عبر عنها المتنبي: "وأما ثمرة امتزاج المقوم اللغوي بالمقوم النفسي في هذه الملحمة". فما هي هاته الثمرات النفسية التي استخلصها الشاعر؟

انطلق الدكتور في هذه القراءة الأسلوبية من وصف القالب الخارجي للقصيدة، ولم يكن هذا من دأب الأسلوبية الحديثة التي تركز على النسق ومجموع الأنساق الداخلية، لكن ربما يفيد هذا مع الدكتور في إعطاء ملامح للأسلوب من خلال وصف قالب القصيدة، ومعلوم أن لكل نوع شعري أسلوب يتميز به، وغرض خاص يهتم به، لكن لم يصفها الدكتور في كونها شعر تفعيلة أو عمودية، لأنها واضحة لدى القارئ أنها من الشعر الحديث، وإنما وصف المدرسة التي تنتمي إليها. وهي كما يقول "وهذه القصيدة وجدانية من الشعر الغنائي تتجلى مزيجا من مناجاة الحب واستلهام الطبيعة فتقترب بذلك من الإفضاء الرومنسي، أما مدارها فمراوحة بين الواقع والخيال، لأنها ذات نزوع تجريدي فيها سعي دؤوب إلى التسامي عن الكون المادي نحو المثل المطلق"[2].

[1]– المصدر، ص20.

[2]– المصدر، ص21.

فمن هذه اللمحة الموجزة، يتبين لنا اختيارات المسدي لهذه القصيدة، والغايات التي أراد أن يختبرها ويحققها من خلالها. ومنها الجانب الوجداني، والتحام الجوانب النفسية مع اللغوية، والأسرار التي تجعل الاختيارات الأسلوبية للنص الشعري أو القصيدة متناسبة مع الجوانب والحالات، والانفعالات النفسية والوجدانية. وربما هذا ما يتناسب مع القيمة النقدية المشهورة، "أعذب الشعر أصدقه" ولا شك أن ما يشعر به الشابي خارج سياق الشعر والقصيدة هو الذي أسس هذا التميز الفني الأسلوبي.

وإذا كان الشاعر ينظم الإبداع، والناقد يجب أن يكون معيدا لهذا الإبداع في إطار "النتائج" والمعروف ضمن إبداعية النقد، فإن الناقد المسدي نحا هذا النحو حين وصف قالب القصيدة بأسلوب لا يقل إبداعيته عن مضمونها، وقد قال:"على هذا النحو من الاستلهام كتقاسيم شاعر على أوتار شاعريته الموحية، منها فنه، وبها نشوته،وبين الإبداع والغمرة ابتهالات من اتخذ الحب إلاها، والغناء معبدا والشعر دعاء وتسبيحا"[1]. فاللغة النقدية عند الدكتور كأنها تحاكي وتماثل نسج الأبيات، وهي بهذا، تعيد قراءة الأبيات.

أما الخاصية الأسلوبية الثانية، فتتأسس عند المسدي من خلال تناوله لجانب اللغة الشعرية؛ من حيث تناوب الأسماء والأفعال، وهذا ليتحقق للشاعر قيمة الوصف. وقد استشهد الناقد لهذه الظاهرة للبيتين الآتيين من قصيدة الشابي قائلا:

عذبة أنت كالطفولة كالأحلام

كاللحن كالصباح الجديد

كالسماء الضحوك كالليلة القمراء

[1]– المصدر، ص21.

كالورد كابتسام الوليد[1].

وقد شرح الناقد السمة الأسلوبية البارزة هنا في كون المقطع: "يعتمد على الوصف المطلق، فكان خطابا وجدانيا ذا مهجة غنائية. فأما المتوجه إليه بالخطاب، فهو ضمير المخاطبة (أنت)"[2]. وهنا يكون وصف الشاعر مباشرا، ويعطي سمة خاصة للأسلوبية، تفطن لها الناقد، وهي استخدامات التقدير في جانب الزمان والمكان، ومنها كما قدم الناقد الأمثلة (الطفولة، الأحلام، الليل، السماء)، وكلها فضاءات محسوسة للوصف أراد الناقد المسدي من الاستشهاد لها على قدره الشاعر إضفاء الصورة المناسبة لشعره.

وإذا كان هذا الوصف من خلال فضاءات اللغة الشعرية، فإن بنيتها إلى صعيد تضافر التعبير كما يقول الناقد[3]. وهذه من ملامح النقد البنيوي، ولكنه أرادها في الجانب الأسلوبي، كما أضاف لها سمة تداولية مع إحضاره علاقة المنطوق بالمدلول في القصيدة.

ومن بديهيات التحليل الأسلوبي أن تضيف الجمل الاسمية للوصف وسمة الثبات في النصوص والخطابات، والشاعر لم يتوان في هذا الأمر. وقد استخلصه عبد السلام المسدي مشيرا: "أما تضافر التركيب والتوزيع، فيتمثل في ورود البيتين على أبسط الأنماط النحوية؛ إذ هما جميعا جملة اسمية بسيطة، ولكن توزيع محوريها انعكس، بحيث تقدم الخبر وتوسط المبتدأ"[4].

وثالث السمات الأسلوبية التي نستشفها من تحليل المسدي، هي خاصية التكرار، والتي كثيرا ما ترد في الخطابات الشعرية نتيجة عوامل ومؤثرات كثيرة، منها الجوانب البلاغية المعنوية في تكرار ما هو مهم، وإبراز ما يجب أن يظهر. كذلك الجوانب الإيقاعية، فإيقاع الشعر يفرض

[1]– المصدر، ص22.

[2]– المصدر، ص23.

[3]– المصدر، ص27.

[4]– المصدر، ص24

التكرار. ومن هنا فإن الناقد عبد السلام المسدي يكشف عن هذه الخاصية الأسلوبية في أسلوب الشاعر.

ورغم أن الناقد لم يصرح بهذه السمة الأسلوبية التي عالجها في إطار التكرار، ولم يفصل ويسهب في ذكر مقاصدها البلاغية، إلا أننا حين أمعنا النظر فيما استشهد له من أبيات، أدركنا أن الطاقة اللغوية التي ميزها وشرحها الناقد، هي طاقة أسلوبية التكرار. وقد استشهد بالأبيات الآتية في هذا الموضع:

يا لها من وداعة وجمال وشباب منعم أملود

يا لها من طهارة تبعث التقديس في مهجة الشقي العنيد

يا لها رقة تكاد يرف الورد منها في الصخرة الجلمود[1]

وقد علق الناقد عن هذا وشرحه من خلال رأيه: "إن النص الشعري في هذا المشهد الثاني قد حافظ على نمطية الإيقاع، وذلك بخاصيتين اثنين: أولهما التوارد المقطعي الذي تم بتكرار نداء التعجب (يا لها) في طالع كل بيت، وهو صورة تواخي تواتر كاف التشبيه في المشهد الأول"[2]. غير أن المتمعن في شرح الأستاذ، يلمح توظيف مصطلح التضافر بمعنى التكرار في تحليله لأبيات الشابي. ومن ذلك استشهد بالأبيات الآتية استخدمه بدل التكرار.

أنت ما أنت؟ أنت رسم جميل

أنت من فن هذا الوجود

أنت ما أنت؟ أنت فخر من البحر

تجلى لقلبي المعمود

[1]- المصدر، ص25.

[2]- المصدر، ص26.

يشرح الناقد: "حيث يتضافر التوليد الصوتي – على الأبيات– مفردا فمثنى فمفردا بالتوالي، وهو في تواتره وتوزيعه تجسيد ما أنت؟ (أنت ما أنت؟ أنت)[1].

والسمة الأسلوبية الأخيرة التي أوردها المسدي هي صيغة الاستفهام أو أسلوبية الاستفهام. ومعلوم أن الاستفهام عن خصائص الأسلوب التي تلفت الانتباه، وتشد القارئ، وتشحذ بصره نحو تذوق الخطاب في معانيه، خاصة إذا كان شعرا يجمع بين الحكمة والإيقاع كما في قصائد الشابي. ومن نماذج الاستفهام التي استشهد بها المسدي هنا، قول الشابي في قصيدته:

أي شيء تراك هل أنت فينيس تهادت بين الورى من جديد

لتعيد الشباب والفرح المعسول للعالم التعيس العميد

أم ملاك الفردوس جاء إلى الأرض ليحي روح السلام العهيد[2].

ثم يشرح المسدي تمثلات هذا الاستفهام داخل درج القصيدة وبنيتها بقوله: "تمثل هذه اللوحة على صعيد البنية دائرة استفهامية وعلى مسار الحركة تحولا من أسلوب الإثبات إلى صيغة التساؤل، والظاهرتان كلتاهما واقعتان – كما تبينا– بين مفرقين يؤشرهما ضمير المخاطبة، وبين لحمة البنية وسدى الحركة تتسلل مداليل المضمون الشعري، فإذا هي تحسس لليقين عبر منافذ الشك؛ إذ يدور على تساؤل يبتغي كنه الحقيقية الوجودية التي لهذا الحبيب المخاطب"[3].

والملاحظ أن الناقد لم يستشهد للاستفهام بشواهد كثيرة، وربما لأن استحضار هاته السمات الأسلوبية كان على سبيل القراءة النفسية في منطلقها، لذلك كثيرا ما كان يمازج في شرحه بين الجانب الأسلوبي والنفسي والنقدي عامة، لذلك يقول: "هكذا تكتمل في القصيدة دورة من دورات المد الإنشائي رأينا فيه لوحة الإفراد، فلوحة الاستفسار، فلوحة التذبذب بين هذا وذاك، وكل

[1]– المصدر، ص30.

[2]– المصدر، ص27.

[3]– المصدر، ص28.

الدورة بمفاصلها الثلاثة تتحول ضمن بناء القصيدة ركحا يهتز عليه فيض الشعر – في صوغه اللغوي وإفضائه النفسي– تأهبا لانطلاق حاسم تواق"[1].

هكذا ينتهي بنا الناقد المبدع المسدي إلى قراءة أدب الشاعر التونسي أبي القاسم الشابي. وقد قدم لمحة عن إبداعه الشعري، مستلهما منها جوانب نفسية متباينة عاشها الشاعر خلال مسيرة حياته. وقد أفصحت فيها أبيات قصائده، ومنها قصائد ديوان "أغاني الحياة"، ولم تفصح عنها القصائد لبساطة القراءة النفسية. بل لأن الناقد المحلل استثمر آليات وإجراءات نفسية ولغوية كفيلة بالوصول لتحقيق هدفه، خاصة أن وجدان الشاعر ونفسيته تأرجحت بين روحية الحب وما شعر به فؤاده حبا له، وبين أسى وحزن الحب وتناقضاته حتى بدا الشاعر صوفيا غامض النزعة، متقلبا بين نشوة الحياة والحب والطبيعة، وبين الحزن والفراق والألم والتشتت.

ثم ما كان لهذه القراءة النفسية النقدية أن تكون بمعزل عن بنية اللغة، وتراكيب القصائد والأبيات ومعجمها الشعري، وقد وصف الناقد هذا الامتزاج بين الجانب النفسي واللغوي بأنه من ثمراته ما أبدعه الشابي من قصائد وأبيات وإيقاعات، بدا فيها هذا التلاحم. ولكشف هذا، وبعد قراءة مستعجلة لنفسية الشاعر المتناقضة مع قيمة الحب، انطلق الناقد في كشف أسرار الأسلوب ببعض مظاهره، ومنها توزيع التراكيب وتظافرها، التكرار، الاستفهام، وكلها مظاهر أسلوبية ميزت قصائد الشاعر، وإدراكا من الناقد للحدود الفاصلة بين القراءة الأسلوبية والبنيوية في النقد النفسي الحديث، فقد عمد إلى بعض الملامح البنيوية، ومنها علاقة الحضور والغياب، وهي من صميم النقد البنيوي، وكذلك علاقة الاتباع بالمعنى، منها معنى استحضار الصوت، وقد قدم أمثلة، ومنها صوت السين ودلالته في قصيدة "صلوات في هيكل الحب".

من هنا، نقول بأن الناقد المسدي أفاد أيما إفادة في ولوج نفسية الشاعر من خلال البنية اللغوية لأبيات القصيدة. وقد استمر التحليل الأسلوبي في سبيل ذلك من خلال أسلوبية التكرار

[1]– المصدر، ص31.

والاستفهام والتوزيع وغيرها. ليخلص في الأخير: "فلئن بدا التمزق ظاهرة باطنة انعكاسية، فإن الصراع قد جسد التدفق الخارجي القائم على الذات، وكلاهما يستمد النبض الشعري من إلهام الشاعر الذي جاء تصويره ملحميا وصوغه إبداعيا"[1].

2- النقد الأسلوبي في فصل: "مع المتنبي بين الأبنية اللغوية والمقومات الشخصانية":

2-1- شرح عنوان الفصل:

يبدو من خلال العنوان، أن الأبنية اللغوية والمقومات الشخصانية ستكون الدراسة في هذا الفصل مناصفة بينهما. ولا نعني المناصفة أن تكون واحدة بمعزل عن الأخرى، بل يكونا معا. وقد عنونه الدكتور بـ "بين الأبنية اللغوية والمقومات الشخصانية". وقبل شرح مضمون العنوان وما يشير له، يبدو الحصر المصطلحي للدكتور واضحا في حفاظه على اختيار مصطلح أو صيغة "الشخصانية"، بدل الشخصية، وربما هذا قياسا على "النفسانية" بمقابل "النفسية". والفرق بينهما أن الشخصانية تفيد التفاعل أكثر، والنفس والشخص يتأسس على ذلك التفاعل الداخلي في بناء التميز والذات.

أما عن موضوع الفصل وما يشير إليه العنوان، وقبل الولوج إلى عالمه، فالظاهر منه حضور الدرس الأسلوبي بصريح عبارة "الأبنية اللغوية"، خاصة أن أحوال البناء تتعلق بشكل ما يدخل في تركيب الأسلوب، وتميزه وخصوصياته على مستوى التركيب والاستبدال. وقد أشرنا إلى هذا سابقا في الفصل الأول والثاني في الأطروحة، وما يتعلق بمفهوم الأسلوب في كونه السمة الغالبة أو البارزة على كلام المؤلف أو المبدع أيّ كان جنس الأدب. وليس هذا فحسب، بل السمة الغالبة على كلام الرجل أيّ كان مجال خطابه، وحتى الحياة اليومية واللهجة؛ فهي لا تقل شأنا في هذا الأمر.

[1]- المصدر، ص63.

من خلال هذا التمهيد، وفي هذا السياق، نتبع هذا الفصل بالتركيز على الاستراتيجيات الأسلوبية التي عالجها الناقد عبد السلام المسدي في شعر وإبداع المتنبي، وكأننا سنرى نموذجا تراثيا بعد نموذج الشابي التي زخر شعره بالغناء وموسيقى الوجدان، فهل ستكون ملامح أسلوبية المتنبي على تلك الشاكلة الوجدانية الأسلوبية؟ وهذا ما سنراه مع صفحات الفصل، خاصة أنه في العنوان أورد عبارة "مع المتنبي"، ونحن نعلم أنّ صيغة وحرف المعية يفيد التقرب أكثر، والتفصيل والشرح والتعريف أكثر.

2-2- آليات قراءة وتحليل المسدي لأسلوب المتنبي:

يحدّد الأستاذ السياق العام الذي تندرج ضمنه هذه المحاولة النقدية الأسلوبية لنص وتراث المتنبي؛ الشاعر الأموي المعروف والمشهور بغزارة شعره، وتميزه بالتنميق الشعري. وقد أدرج الناقد هذه المحاولة في كونها قراءة لنص تراثي، وخاصة أن قضية التراث أخذت جدلا واسعا، وحيزا بحثيا غير يسير، لذلك مهد المسدي لهذه القراءة بالحديث عن هذه الجدلية، وقد اعتبرها الشغل الشاغل عند العرب المعاصرين، وهم يختلفون في النظر لهذا التراث رغم اجتماعهم في وعييهم الباطن أنه مفتك منهم، ويجب أن يستردوه، يقول المسدي: "وهذا الاقتضاء مداره قضية التراث من حيث هو يدعو العرب اليوم إلى قراءته على حد عبارة المنهجية النقدية الراهنة، معنى ذلك أن العرب يواجهون تراثهم لا على أنه ملك حضوري لديهم ولكن على أنه ملك افتراضي يظل بالقوة ما لم يستردوه"[1].

وكأن الدكتور بهذا يشير إلى مبرر اختيار المتنبي للدراسة ومدونته الشعرية للاختيار الأسلوبي، وهذا مكمن تمهيده بالكلام عن التراث وضرورة استعادته رغم إيمانه بقضية الحداثة، وليس بقضية ميوله واختياره وعاطفته تجاه هذا الإرث الزاخر الذي يستهوي كل باحث عربي أنه يخوض فيه ويتأمله، وينظر إليه بالتحليل وإعادة القراءة.

[1]- المصدر، ص67.

وقبل أن ينطلق المسدي في قراءته، يستلهم فكرة موضوعية كأنه أخذها من اللسانيات وما يجب أن تكون عليه القراءة اللسانية والأسلوبية من حياد، لذلك قال: "وقد نقرأ المتنبي قراءة لا ننسبها إلى أحد من أعلام التراث ولا أحد من أعلام الحاضر، وإنما تنتسب إلى منظور قد يكون نفسانيا أو اجتماعيا أو بنيويا أو أسلوبيا"[1]. وهذا يدل على النهج الحداثي الذي سيسلكه بعيدا عن الذوقية والذاتية التي عليها النقد القديم في سلطته على النص، وفي آلياته وإجراءاته بين الحداثة وما بعدها كما يصطلح النقاد.

وقبل أن نلج عالم النظرة الأسلوبية عند المسدي في قراءة أدب المتنبي، كان علينا أن نشير إلى السياق النفسي ومكمن التحليل الذي أشار إليه، وربما لأن هذا ضروري في توجيه وتبرير كلمته شخصانية؛ فهي تتعلق بالجانب النفسي منها، والشخص هو كل ما بالنفس من جوانب عامة، غير أن المسدي يدرس هذا بربط هذه الأسس بالعالم الأسلوبي والمشهد اللغوي للبناء، وذاك هو هدفنا ومأرب المسدي من الفصل، ومقصدنا من هذه الصفحات.

ثم يتوغل الناقد في كشف ملامح الأسلوبية في تحليلاته هذه، محاولة ربطها بالمبررات والمصادر الفلسفية والنفسية لشعر المتنبي، خاصة أن جميع الأسرار اللغوية بين الخفية والمعلنة هي من قبيل الأسلوبية: "وأن صراع القوى الشخصانية عند الشاعر قد تفجر في علاقات تقابلية على الصعيد اللغوي مما أدى إلى بروز شبكة من الروابط الثنائية دلاليا ونفسيا في نفس الوقت"[2].

وبعد تقديم الناقد لملامح عامة من نفسية الشاعر المتنبي، اتجه نحو الجانب اللغوي، مستنكرا لمعالجة الأسلوب جوانب ومستويات أخرى، ومنها التركيب الثنائي على المستوى اللغوي، بل مصطلحات جديدة، ومنها مصطلح "التفاعل المزدوج". وقد وصفه بأن يحمل البيت في بعضه

[1]- المصدر، ص69.

[2]- المصدر، ص70.

أو كله عناصر تزدوج ثنائيا"[1]. وربما أتى بهذه الفكرة من المنظور البنيوي؛ لأن البنيوية تقوم في أساسها على مبدأ الثنائية، أو الثنائيات المتضادة والمتجاورة. وقد عرض المسدي من هذه الظاهرة نماذج وأساليب مختلفة من شعر المتنبي، وبداية بازدواج التطابق، ومنه المثال الآتي:

جزاء كل قريب منكم ملل

وحظ كل محب منكم ضغن[2].

ويشرح الناقد هذا بأن الازدواج الحاصل غير تميزي[3]. وربما كان يقصد هنا، جانب الترادف أو العطف، لأنه لم يلمح أي تمايز كبير في المعنى. والعكس كذلك، غير أن بلاغة الشعر العربي القديم "تتخذ من هذا الأسلوب الذي يكون وسطا بين التكرار والازدواج الذي قصده الناقد"، وبهذا اشتماله على جوانب إيقاعية وغنائية في الشعر، لأن الشعر يكون أحيانا بالوزن والإيقاع والغناء والنغم أكثر من رصد المعنى. وقد شرح المسدي هذا. وكذلك على مستوى الصفات لأن السابق كان على مستوى حروف المعاني. ومنها الصفات الآن جزاء/الحظ، قريب/ محب[4]. وهذا أشبه بالترادف اللغوي أو المشتركات اللفظية. ولو نتأمل هذا الملمح الأسلوبي لوجدنا أنه أقرب إلى المحور العمودي والاستبدالي الذي جاءت به اللسانيات الوصفية.

كما أن الجانب الملفت للانتباه، ليس فقط قضية الناقد في استخراج هذه السمة الأسلوبية، وإنما في الجانب الذي جعل قصيدة المتنبي تتصف به، وتظهر من خلاله، وهنا يحق التساؤل: هل هذا الأمر له علاقة بالجانب الوجداني والنفسي الذي قصده الناقد بالتحليل؟ والذي ساق على منواله الشاعر هذه القوالب والقصائد.

---

[1]- المصدر، ص80.

[2]- المصدر، ص81.

[3]- المصدر، ص81.

[4]- المصدر، ص82.

ثم على غرار ما يصنع الناقد مع كل جزئية من شرحه، فقد قدم خلاصة أو شرحا عاما لهذه الظاهرة. وهذه ظاهرة التضافر، ومنها "سيكون تظافر العبارتين على نمط التداخل المقلوب، بعض الأول في بعض الثاني، وآخر الثاني في طرف الأول، وبين العبارتين محور وسط، يوزع التناظر فضلا عن تقابل الشحنات الدلالية وتكاملها إيجابا وسلبا كما سيأتي"[1].

فمنها يمكن من حال وأمر، فإن تضيف الناقد لهذه الظواهر يعد تمكينا له، وقوة ونشاطا أسلوبيا، فهو بهذا مختص في إعادة قراءة المدونات الأدبية بأسلوب نقدي يتجاوز الطرح الذوقي البسيط والسطحي إلى عمق القراءة الأسلوبية في مضامين النصوص، خاصة إذا كان مع هذه القراءة قرائن نفسية تشير إلى علل ارتباط الشعر بهذه القوالب الأسلوبية، مع أن هذه الخلاصة الموجزة لا تعني أن الناقد اكتفى بهذا النوع، بل أضاف له ثنائيات أخرى من التوازي وغير ذلك.

وبخصوص ظاهرة التوازي، فقد نتساءل أولا عن الفروق التي تفصلها عن الظاهرة السابقة من الازدواج. وحين نعود إلى الانطلاقة الأولى التحليلية، نجد مفهوم المجاورة والتقاطع، وهذا مفهوم في حقيقة يحمل سمة رياضية، وقد يكون أقرب إلى الأسلوبية الإحصائية؛ أي ربما لو أراد الناقد أن يحصي هذه الظواهر، لاتضحت له سمات أخرى، أو تفسيرات أخرى، وربما هذه مزية المنهج الرياضي في علوم اللغة خاصة، وفي علم الأسلوبية على وجه الخصوص.

وأما التوازي، فقد ربطه الشاعر بأن صدره مواز لعجزه، فكأن التوازي هنا لا يتعلق بتركيب جزئي داخل البيت أو حرفا من حروف المعنى كما كان مع الظاهرة الأولى من الثنائيات. لذلك قال: "وبموجب هذه الظاهرة، يرد البيت الشعري على أحد نمطين، إما صدره مواز لعجزه من حيث إنهما يحملان دلالتين متوافقتين أومتكاملتين، وإما يرد البيت متجمعة فيه عناصر متراصفة متلاحقة يردد بعضها الآخر أو ينوعه خدمة لحقل دلالي معين مبسوط"[2].

---

[1]– المصدر، ص83.

[2]– المصدر، ص84.

قدم المسدي أمثلة على هذه الظاهرة. ومنها قول المتنبي:

ولا أقيم على مال أذل به

ولا ألذ بما عرضي به درن

حيث تتوارى العناصر:

أقيم// ألذُ (دلاليا)

ألذَ//أذل (نغميا)

أذل//درن (إيحائيا)

ويتوارى بالمغايرة العنصران

مال//عرض

ويتوازى أخيرا بالتطابق

ولا... به / ولا...به[1]

وبعد التفصيل في هذا الأمر، يتسنى القول أن المتنبي يتميز بهذا النمط في قوته التعبيرية، ومنه يكون متعمدا له في إضفاء الجانب التأثيرى لشعره. وهذا التوازي يبدو توازي أشكال وتوازي مضامين. وقد أضاف المسدي مثالا آخر عن البيت المشهور للشاعر، وهو قوله:

على قدر أهل العزم تأتي العزائم

وتأتي على قدر الكرام المكارم[2].

وهذا نموذج طبعا يشتمل على التوازي من حيث المضمون والشكل. وفيه تواز معنوي، وتواز صوتي، وحتى التوازي اللفظي في كلمة قدر– العزم، العزائم– الكرام، مكارم.

[1]– المصدر، ص84.

[2]– المصدر، ص85.

ومن الظواهر الأسلوبية التي أضافها المسدي لنقده، والمتعلقة بالجانب الأسلوبي في شعر المتنبي، هي ظاهرة التجميع، والتي سماها هو بهذا المصطلح، والذي يبدو جديدا في حقيقته. وقد وصف الناقد توارده في هذا الشعر على أنه: "يخص تجميع العناصر اللغوية، والملاحظ أن هذا التجميع سيتقطبه عنصر مولد فاعل متحكم في بنية البيت عموما وقدم الناقد عن هذا الشعر بعض النماذج التجديدية، ومنها:

بم التعلل لا أهل ولا وطن

ولا نديم ولا كأس ولا سكن

أمينا وإخلافا وغدرا وخسة

وجبنا أشخصا لحت لي أم مخازيا

يـ وَكذلك:

الخيل والليل والبيداء تعرفني

والسيف والرمح والقرطاس والقلم

ويختم المسدي هذه القراءة النقدية: "تلك نماذج من التركيب الثنائي في بناء شعر المتنبي ولدها – حسب صادرنا عليه– التركيب التقابلي في المضامين المجسدة خارج الشعر والمضمنة إياه، وما سقناه إلا مقارنة، وحدّ أن يعتمد منهج علمي لا شك في صلاحه ذاتيا، ولكن لا يجزم يخص نتائجه سلفا بتطبيقه في الظرف المعني للممارسة، على أننا قد نتجرأ على تقرير أن التركيبات البنائية في شعر المتنبي لا يمكن أن يحكم سر شعريتها إلا من موقع إن لم يكن لسانيا محضا، فلا أقل من أن يحتكم إلى المنظور اللغوي بعناصره الموضوعية وتشكيلاته العقلانية"[1].

[1]– المصدر، ص86.

3- النقد الأسلوبي في فصل: "مع الجاحظ "البيان والتبيين" بين منهج التأليف ومقاييس الأسلوب:

3-1- شرح عنوان الفصل:

غير بعيد عن القراءة الأسلوبية للفصلين السابقين من هذا الكتاب، وهما قراءة الناقد عبد السلام المسدي لنص الشاعر الشابي الشعري، ثم نص المتنبي، ينتقل بنا الناقد إلى قراءة أسلوبية أخرى في مدونة غير شعرية خلاف التحليل السابق، وهي مدونة الأسلوب العلمي أو النثر المتخصص، وهي قراءة في أشهر كتاب للجاحظ "البيان والتبيين". وقد جاء عنوان هذه القراءة كالآتي "مع الجاحظ "البيان والتبيين" بين منهج التأليف ومقاييس الأسلوب. وهذه الدراسة لا شك أنها تحتمل أكثر من وجه، ولا شك أن هذا العنوان يحتاج إلى شيء من التأويل والتخمين في كشف مقاصد الناقد المسدي منه.

كان لنا السبق في معرفة مقاصد وضع العلامة مع العنوان، وهي أشبه بالتعبير أن القراءة الأسلوبية للناقد عبد السلام بمثابة محطات أسلوبية تضاف إلى المحطتين الأولى والثانية مع الشابي والمتنبي، خاصة أن الأولى للشعر المعاصر وبيان أسلوبه، والثانية للشعر القديم وبيان أسلوبه، وكأن الناقد يقول لنا: أريد أن أعمد إلى الإحاطة بالأسلوب العربي من خلال عامل التاريخ لأسلوب الشعر، ثم اشتغل في هذه المحطة الثانية على الأسلوب العلمي من تراث الأسلوبية عند الجاحظ في كتاب البيان والتبيين. ولا شك أن الكتاب فعلا يستحق هذه الدراسة والنظر والتحليل، خاصة أن البلاغة العربية هي أقرب العلوم إلى الأسلوبية الحديثة.

وتجمع دراسة المسدي هذه في أسلوبية الجاحظ بين الجانب النظري والتطبيقي المتمثل في قراءة الناقد لأسلوب الجاحظ، وبين تحليل خصائصه وفق الإجراءات الأسلوبية المألوفة. لكن من جانب آخر، نصف الجانب النظري، أي وبين الجانب النظري المتمثل في كون الجاحظ من

مؤسسي البلاغة العربية التراثية، لذلك أدرج الناقد في عنوان دراسته "مقاييس الأسلوب". ومعلوم أن هذه المقاييس هي الجانب المعياري أو القواعد المعروفة والمحددة للأسلوب.

3-2- آليات قراءة وتحليل المسدي لأسلوب الجاحظ:

يبدو أنّ الناقد عبد السلام المسدي على منهجية ورؤية تنظيمية ثابتة في منهجه العلمي هذا، فقد بسط شرحا وافيا لمنهج الكتاب والتعريف به. وهذا على غرار شروحه السابقة لكل مدونة أسس بها تحليله، وبنى عليها قراءته الأسلوبية، غير أنه تعامل مع شرح مدونة الجاحظ بقدر أكبر من الشرح والمكانة. وقد انطلق من وصف عام ثّم تمجيد لهذه الشخصية العلمية بامتياز.

وإذا أردنا أن نقدّم خلاصة ما وصف به المسدي الجاحظ وقيمته ما كتب وترك من آثار، فإننا ننطلق من أول ما جاء به على خلاف أن تكون خلاصتنا بعد آخر ما كتب، لكن ما وُصفت به هذه المقدمة الممهدة عن الجاحظ أجدر أن تكون خلاصة قبل الخلاصة: "يتبوأ الجاحظ في تاريخ الحضارة العربية الإسلامية منزلة مزدوجة: هي منزلة تاريخية شهد له بها معاصروه ومن تبعهم من أعلام الفكر العربي الإسلامي، ثم هي منزلة حضارية وثائقية، إذ ما فتئت كتبه تمد الدراسيين المعاصرين بمعين من الاستقراءات والتحليلات والاستنباطات، قد يعسر علينا اليوم إدراجها ضمن مسالك الاختصاص في المعرفة البشرية حسب متصوراتنا الذهنية المعاصرة، ففي مؤلفات الجاحظ مادة لمن يؤرخ للفرق الدينية والمذاهب الفلسفية، وفيها كذلك مادة تخص الباحث في خصائص التفكير العربي منذ ازدهار حضارته العباسية، فضلا عما في تلك المؤلفات من مادة غزيرة لمؤرخي الأدب والنقد، وسائر العلوم اللسانية والجمالية. ولعل هذه الغزارة مع التنوع والشمول، هي التي دفعت بعض الباحثين المحدثين إلى اعتبار الجاحظ رائد مدرسة أطلقوا عليها اسم المدرسة الإنسانية"[1].

[1]- المصدر، ص97.

فهذا الوصف وذكر مكانة الجاحظ، يدل على أن اختيار المسدي لمدوناته ليس من باب العفوية أو المصادفة، وأكيد أن اختياره لكتاب البيان والتبيين فيه كذلك جانبا كبيرا من الدقة والتمييز، والاختيار لصفة التحليل الأسلوبي.

وإذا كان وصف الناقد المسدي لمؤلف (الجاحظ) من الضروري تقديرا لمكانته العلمية، فإن وصفه لكتابه كذلك، كونه المدونة التي اختارها من مؤلفات الجاحظ، وقد وصفها: "فإذا سلمنا بأن "البيان والتبيين" هو من آخر ما ألف الجاحظ، أدركنا ماله من قيمة نوعية يتميز بها عن سائر مؤلفاته، فهو خلاصة عمر طويل انقضى في البحث والتصنيف، وهو تجربة فكرية. أما موضوع الكتاب، فهو كما تمليه مبدئيا عبارة "البيان والتبيين"، بحث في خصائص التعبير البين؛ أي في صناعة الكلام، وما تمتاز به اللغة من طاقات الإبلاغ والإفصاح، والكتاب قد صنعته إلى جانب النوازع الفنية الأدبية، دوافع علمية مذهبية؛ والجاحظ أحد أعلامهم، قد كانوا أشد الناس عناية بخصائص الكلام البليغ لاعتمادهم على صياغة اللفظ وأفانين تصريفه في مناظراتهم ومساجلاتهم، وللكتاب غاية لعلها هي التي حركت الجاحظ إلى تأليفه وتتمثل في الرد على الشعوبية في أغلب الأحيان، فقصد بذلك إبراز للطابع الذي انفردت به حضارة العرب؛ فتميزوا به عن غيرهم من ذوي الحضارات الأخرى، ولاسيما الفارسية منها. وما هذه السمة المميزة إلا "البلاغة والفصاحة"[1].

وليس غاية المسدي من وصف كتاب الجاحظ كونه كتابا بلاغيا أو تراثيا، ففي غيره من الكتب هذا الوصف أو ربما أكثر، لكن السر في تناول هذا الموضوع أو الجانب من كتاب الجاحظ، هو طريقة نظمه والتأليف الذي اعتمده صاحبه، وهو ما يتناسب مع طرح الأسلوب، أو نظم الإنتاج العلمي كخطاب متخصص من خطابات الحياة اليومية، فالتأليف للعلم ربما تتشابه فيه المعلومات والمعارف خاصة في تخصصات العلوم الإنسانية. أما الأساليب، فهي ذات طابع

[1]– المصدر، ص101.

خصوصي يكون البحث والنظر فيها من سمات الأسلوبي الذي يمتنع وصف طبيعة ومميزات وخصائص كل نمط أو أسلوب، أو لغة تنبع من فكر معين أو مجال كتابه محدد.

وباعتبار التحليل الأسلوبي ينظر في الجوانب الشكلية أيضا للخطابات، بل وحتى المنهجية، ذلك أن من سمات الأسلوب كما رأينا سلفا مع الفصل الأول أنه النظم والانتظام والتأليف، لذلك فإن ما تطرق له الدكتور المسدي من حديث عن منهج وغرض التأليف في كتابات الجاحظ، هو من صميم الأسلوبية، ومن مواضيع وجزئيات التحليل وإجراءات الأسلوبي. بالإضافة إلى أن اختصاص المؤلف بهذا النمط وتميزه عن غيره في جزئيات كثيرة، هو مما يمكن لكل نقد أسلوبي أن يعالجه، ومما على كل ناقد فاحص أن ينتبه إليه. وقد أشار لهذا عدد من النقاد بأن على المحلل أن يدرك بعض السمات المميزة للنص.

في هذا السياق، يرى إبراهيم عبد العزيز أنه: "ومن مظاهر التحليل الأسلوبي البحث عن ما يسمى بـ (الكلمة المفتاح) في النص[1]، غير أن هذا المنطق لا يتوفر في جميع النصوص، فأحيانا نجد نصا لا تظهر فيه الكلمات المفتاحية. و"ولكن من النقاد من خالفوا هذا الرأي القائل أن هنا كلمة مفتاح في العمل الأدبي، ومن بينهم محمد عباد في مؤلفه "اللغة والإبداع"، إن بعض الأسلوبيين يقترحون ما يسمونه (الكلمة المفتاح)، ولكننا يجب أن نبدأ من الاعتماد على إحصاء الكلمات، فقد تكون غائبة عن النص، وقد لا تكون هناك كلمة مفتاح واحدة، بل أكثر من كلمة، بحيث نجد أنفسنا مضطرين إلى أن نضع كلمة من عندنا"[2]. ومهما يكن من أمر، ستظل الفكرة الأولى هي الأقرب للصواب؛ لأن كل نص يأخذ سمة أسلوبية بارزة تحملها الكلمات المفتاحية، ويحمل وظيفة علمية أوضح تحملها المصطلحات المرافقة والمعبرة عنه.

[1]– إبراهيم عبد العزيز السمري، اتجاهات النقد الأدبي الغربي، دار الآفاق، القاهرة، 2011، ص263.

[2]– شكري عياد، اللغة والإبداع، مبادئ علم الأسلوب العربي، 1988، ط1، ص131.

من هذا المنطلق، نظر الدكتور المسدي في منهج كتاب البيان والتبيين، معتبرا أن "لصاحبه إحساس واضح بضرورة إدراك منهج محكم إحكاما نهائيا"[1]. ومن ذلك أن الجاحظ قسم كتابه إلى أجزاء وفصول وأبواب لها مواضيع وحدود. مع إدراج العناوين بكل دقة وضبط وإحكام. وهذا من سمات أسلوب التأليف التي تفصح عن تميز الجاحظ ودقته العلمية. وربما قد نتساءل: لماذا يمكن أن تكون هذه من الأسلوبية؟ فلو نتأمل في الأدب الحاضر من الروايات والقصص والقصائد، لوجدنا أنها من خصوصية وعناية أسلوبية النقد الحديث، بل هي من معايير الحكم على شعرية وفنية الأدب والأديب.

كما أنّ منهج التصنيف يحسب للمؤلف من حيث تنظيم كتابه. يقول المسدي: "على أن الجاحظ لا يبدو فحسب واعيا بتقسيم أبوابه كما في قوله: "وإنما نقول في كل باب بالجملة من ذلك المذهب، وإذا عرفتم أول كل باب كنتم خلقاء أن تعرفوا الأواخر بالأوائل والمصادر بالموارد"، وإنّما هو واع بدوافع هذا التصنيف مما يبرز صريحا في بعض المَواطن[2].

ومن دلائل أن هذا المنهج لازم الجاحظ وفهمه منه الناقد، أن التصنيف كان عاما، ولازمة لجميع المؤلف حسب المسدي، وهذا يثبت خاصية الثبات والاستقرار في الأسلوب، بل يثبت أنه ليس سطحيا ومجرد اختيارات ظاهرة، وإنما هو وليد صفات وخصائص نفسية ومعرفية ومقاصد ورؤية خاصة. وهو بالأحرى انعكاس لشخصية المؤلف، ومنه كان أسلوب الجاحظ في التصنيف ثابتا ومتقاربا، ومتماثلا مع كل إنتاج علمي له. يقول الناقد: "ويطفو هذا الوعي المنهجي على سطح التأليف، فيتجاوز مادة الكتاب الواحد، مما كان الجاحظ بصدد تأليفه ليصبح وعي المقارنة بمادة بعض كتبه الأخرى"[3].

---

[1]– المصدر، ص103.

[2]– المصدر، ص104.

[3]– المصدر، ص104.

ومن سمات تميز أسلوب الجاحظ ما كان يعمده ويقصده من إشراك القارئ كما يرى الناقد المسدي في جانب التبويب والتفصيل، والتصنيف. وحاجته في ذلك ومقصده، هو الوصول إلى درجة من الإقناع بما كان يصنف به كتابه. ومن ذلك ما شرحه الناقد "تلك بعض أبعاد إدراك الجاحظ لضرورة بناء كتابه على منهج عقلاني إلى حد بعيد، وهو ما يثبت لنا سعيه إلى إحكام التصنيف بما يرتضيه أولا، وبما يمكنه من تشريك القارئ في تمثله إلى حد الإقناع ثانيا، غير أن لهذا الوعي حدودا تجعله إلى الإدراك الغامض أقرب منه إلى الإحكام التفصيلي فذاك الجاحظ نفسه"[1].

تلك إذن سمات الأسلوب القويم من الإقناع به والارتضاء أولا، ثم اعتبار نظرة القارئ نحوه أقرب إلى القناعة ثانيا. ومن ميزاته، كذلك أنه يربط الأبواب بما سبق وبما سيلحق من تأليف غير أن الدكتور المسدي عاب على الجاحظ كثرة التكرار للغير ومثله في أكثر من موضع في مؤلفه. وقد أورد لذلك نماذج وأمثلة كثيرة لا يكاد فيها الأسلوب مختلفا مع تشابه وتشابه؛ بل هو نفسه، وهذه من الثغرات والعيوب المنهجية في التأليف ولم يجب يجد لهذا الناقد أي مبرر علمي أو فكري أو أسلوبي عند الجاحظ، وليس هذا في الكتابين فحسب، وإنما داخل الكتاب الواحد. ويرد مع هذا إلى أن الجاحظ اعتمد على الذاكرة: "ثم يعاود الجاحظ الخبر من الجزء نفسه بما لا يختلف إلا في بعض جزئيات الصياغة مما يدل على أنه لم يكن يحتكم إلى جذاذات مكتوبة أو قصاصات مبوبة، وإنما سنده الرئيس ذاكرته"[2].

ثم يبحث المسدي للجاحظ عن أعذار هذا الخلل المنهجي؛ فيلتمس له العذر من كلامه قائلا: "ولبعض تلك الأسباب، نرى الجاحظ يستدرك من حين إلى آخر على نفسه، فيحاول أن يرجع مسالك القول إلى الانتظام. وهذه الاستدراكات مطردة في الكتاب إلى حد التواتر، ومن مواطنها

[1]- المصدر، ص104-105.

[2]- المصدر، ص106.

للشاهد لا للحصر، أن التكرار كان لحاجة التأكيد على وجود الظاهرة على فئات من الناس، وفي جهات من قبائل العرب ليس واحدة[1].

وإذا كانت الأسلوبية تعنى في جوانب منها بالمصطلح اللساني، فقد وضع الناقد المسدي لهذا الجانب عنوانا صريحا من كتابه حول المفاهيم التي اشتغل عليها الجاحظ أو التي أسس عليها موضوع كتابه، وقد عنونها صراحة بـ المفاهيم الأولية ومصطلحاتها.

انطلق من تبرير يشرح هذه الجزئية بأن المصطلحات في الحقول الإنسانية عامة جاءت لغاية حصر المفاهيم وضبطها، وتأطير التطورات وما يميزها من فوارق دقيقة. كما أنها كانت بجلاء في جانب تقييمها، وهي مرجعها الأول والأساس كما يرى الجاحظ، ثم يجدد أن في العلوم النقدية أكد على ضرورة ضبط المصطلحات: "ولئن كان هذا الالتزام المنهجي عاما في جميع العلوم الإنسانية؛ فهو في العلوم النقدية أوكد؛ إذ كل استقراء لساني يرضخ لمضايقات مبدئية قد لا تعترض سبيل علم إنساني آخر، وتلك الأمور سببها أن العلوم اللسانية تتخذ اللغة أداة وموضوعا في نفس الوقت"[2].

وتتناسب مع موضوع التأليف وهدفه، وسياقه العلمي الخاص بالأسلوبية، اتبع الناقد المسدي كتاب الجاحظ باحثا عن ملامح استقدامه للمصطلح بهذا التصريح والصياغة. وربما فائدة هذا المبحث عنده، هو البحث تاريخا في البلاغة العربية، بل وحدود إطلاقه في مجاله العلمي الخاص والعام، ولكن الناقد بعد فحصه للكتاب أجزم القول: "غير أن هذه المادة أسلوب أضفت كلمة الأسلوب في صيغتها الاسمية لم ترد في كتاب "البيان والتبيين"[3]. وأضاف في الهامش قائلا: "لا شك أنه من المفيد البحث في تاريخ هذه المادة من خلال استقراء المعاجم العربية

[1]– المصدر، ص109.

[2]– المصدر، ص120.

[3]– المصدر، ص122.

والكتب الأدبية السابقة لابن منظور لتحديد الفترة الزمنية التي استعملت فيها هذه المادة بمعانيها المحددة"[1].

وإن هذا الحكم بالرأي إلى أن الأسلوبية في البلاغة والتراث العربي القديم موجودة في كثير من جزئياتها– وهذا مما لا شك فيه–غير أن وجود المصطلح واستخدامه لم يكن كما يرى المسدي إلا في كتاب ابن منظور بمعنى"متضمن القول"، وليس بمعناه الدقيق.

وهذا طبعا لم يمنع حسب المسدي من العثور على مصطلحات في كتاب الجاحظ من هذا الاستخدام، ومنها مصطلح البلاغة والإبلاغ والفصاحة، وكذلك إفصاح قد بينها الناقد محددا علاقتها بالأسلوبية الحديثة، مصرحا: "إلا أن مجموعة أخرى من المصطلحات قد استعملت في الكتاب استعمالا تلقائيا يكاد يكون "خاما"، وهي التي يتبلور شيئا فشيئا مع تبلور علم البلاغة عموما، ومن تلقائية استعمال الجاحظ لها، سنحاول تحسس دقائقها الفنية، وهذه مجموعة من المصطلحات ذات الطاقة المولدة تستقطب لفظة بلاغة وتلحق بها عبارة إبلاغ"[2].

وإن دل هذا على شيء، فإنما يدل على اهتمام الناقد بالمصطلح من جهة، ومن تمكنه في مجاله، خاصة أن له مؤلفا مشهورا في هذا، وهو كتاب المصطلح والمصطلحية. وإضافة إلى هذا، يدل المبحث على إحاطته بالأسلوبية وعلاقتها بالعلوم الأخرى ومنها البلاغة. وقد عرضنا هذا في الفصل الأول من الأطروحة، أن البلاغة تعنى بالجوانب الفنية الجمالية أكثر من الأسلوبية. ويبدو أن مع مصطلحات هذا المبحث الأسلوبية أشمل منها في معالجة الإبلاغ والإفصاح على عموم المصطلحين.

أما البلاغة والفصاحة، فلا شك أنهما ذات أبعاد فنية جمالية في الخطاب، فهل سيتوافق تمهيدنا هذا وتخميننا مع ما سيعمده الأستاذ في شرح المصطلحات ومقارنتها بالأسلوب

[1]– المصدر، ص122.

[2]– المصدر، ص122..

والأسلوبية من حيث الكل والجزء؟ ومهما يكن من أمر، فإن تقارب المصطلح يدل على تقارب مواضيع تلك العلوم، ودقة المصطلح تدل على دقة المصطلحين عليها. وهذا ينم على سعة كتاب الجاحظ، وجودة نقد المسدي، وكيف عالج هذه الجزئية وغيرها من أقسام وفصول البيان والتبيين، وتضمنه من أبعاد لغوية وفكرية، وفنية تجمع بين الجوانب اللغوية والجوانب الإنسانية.

أما المصطلحين الأولين اللذين عرضها المسدي واستخرجهما من كتاب الجاحظ، هما مصطلح البلاغة والإبلاغ، وهما اشتقاق صرفي للاسم ولاسم الفعل منه، وقد انطلق من جانب إحصائي لعدد ورودها في المؤلف (البيان والتبيين)، وهي 16 مرة. ولو نقارن هذا الرقم بما جاء بعد الجاحظ من مؤلفات في علم البلاغة، لقلنا أنه توظيف مُقل "مخل"، ولكن الأكيد أن الجاحظ كتب الكتاب قبل أن تتضح معالم المصطلح مع الجرجاني بعده، ثم من جاء بعدهم في تأليف ما يتعلق بالبلاغة.

وحسب الناقد المسدي أن هذا المصطلح ورد على معان متباينة، تارة عن الحديث اللغوي، وتارة عن وصف الطلاقة، وتارة عن الإقناع، يقول المسدي: "ومما يدور عليه مصطلح البلاغة محور منطقي، لساني تكون فيه العبارة محملة شحنة عقلانية تتمخض بها إلى معنى الإقناع عامة بواسطة الأداء اللغوي[1]، وأخيرا استخدمت اللفظية المصطلح للدلالة على الجوانب الفنية والجمالية في الخطاب وهذا هو الفرق الجوهري بين كونها إبلاغا راقيا وبين الإبلاغ العادي، يقول المسدي: "أما المحور الخامس لدلالة عبارة البلاغة في سياق البيان والتبيين، فهو محور فني تطبيقي يدور إجمالا حول تضمن الكلام لخصائص تمييزية يتحول بها من مجرد إبلاغ رسالة لسانية إلى مادة من الخلق الفني نثرا كان أو شعرا"[2].

[1]– المصدر، ص123.

[2]– المصدر، ص124.

وما يدل على هذا مصطلح إبلاغ، وذلك حسب الناقد، فقد تم توظيفه في أربعة مواضع فقط، وذلك على جانب لغوي معجمي لا يتجاوز نقل الحديث أو الخبر، وآخر فني لساني يقصد به عملية إيصال الرسالة. وقد استعان الناقد في بيان هذه المعاني والاستعمالات بالأسلوبية الإحصائية. هذا الاستخدام بين اللساني والفيزيولوجي واللغوي المنطقي، والأسلوبي وحتى غير اللغوي، كأن نقول "والإشارة أبلغ من اللفظ"، وهذا من كلام الجاحظ، والإشارة هنا ليست من اللسانيات، بل هي من عموم السماء والعلامات.

أما المصطلحين المواليين، فهما مصطلحي الفصاحة، وكذلك الإفصاح. وقد انطلق الدكتور في نقده وغرضه المصطلحين في كتاب البيان والتبيين من المنهج الإحصائي، فأحصى ورود مصطلح "الفصاحة" من 15 مرة، اختلفت معانيها باختلاف توظيفها. وقد صنفها الناقد حسب مجالاتها وليس حسب معانيها مباشرة، ومنها اللسانيات، الصوتيات، النفسانيات، الأسلوبيات، ومن معانيها التابعة لمجالات الكلام، التصويت، الخطابة، الحجاج، وقد أضاف لكل صنف ومعنى غاية وهدفا، ومنها: البث ،السمعية ،الجمالية، التأثير، الاقناع، الخلق الفني، إن دل هذا على شيء، فإنما يدل على دقة المسدي في الجانب الاصطلاحي والمعرفي الذي تلتقي فيه الأسلوبية مع غيرها من الحقول المعرفية اللغوية، وخاصة التراثية منها[1].

أما بخصوص اسم الفعل من مصطلح الفصاحة؛ فهو نفس ما كان عليه الإبلاغ من البلاغة. وبعد إحصاء المسدي لها في الكتاب، وهو رقم متواضع جدا بالنظر إلى موضوع الكتاب أنه يتناسب مع الإبلاغ والبيان والتبيين، وقد أدرجها الدكتور في ثلاثة محاور، وقد سماها الفصاحة، ثم عنونها معاني، فالأول معجمي، ويتطابق مع البلاغة والإبلاغ والفصاحة،

[1]– المصدر، ص126.

والثاني الأسلوبي، وهو يتطابق مع البلاغة والفصاحة، وأما المعنى الثالث، فهو الإفصاح، وقد رد هذا المسدي إلى جوانب فنية تفيد التحويل على الطاقات الدلالية في اللغة[1].

هكذا يظل المصطلح جسرا معرفيا رابطا بين المفاهيم العلمية، ومنها اللسانية أو الأدبية والنقدية. وقد قدم المسدي عن هذا صورة نقدية للسلامة المنهجية، وتأسيسا بالمعرفة والدراية الواسعة بالفروق الطفيفة بين المصطلحات التي عالجها وعناها بالفحص والدراسة، خاصة مع استخدامه الإحصاء الذي أبان عن تاريخ كل مصطلح حينما اعتمد الناقد كتاب البيان والتبيين مرجعا تاريخيا لها.

وبعد عرض منهج التأليف والتصنيف الذي تميز به الجاحظ، وذكر مرتبته الفكرية والعلمية في الحضارة العربية والإنسانية عامة من جهة، وبعد عرض الناقد بعض المصطلحات الموازية لمصطلح الأسلوب في كتاب البيان والتبيين من جهة ثانية، عمد إلى مبحث دقيق من المنهج الأسلوبي أسماه بـ "نوعية المقاييس في نقد الأسلوب". وكان مقصد الدكتور من هذا، أن النقد عموما تجاوز الانطباعية والأحكام الذاتية إلى مرحلة بناء مقاييس ومعايير أكثر دقة وعلمية، ومتانة في بناء النتاج النقدي. وهذا التأسيس كان نتاج فكري بين مستخلصات اللسانيات من جهة، واستقراءات النقد الأدبي من جهة ثانية، كما يرى المسدي[2]، فحاجتنا إليه في حقول الأدب والنقد، هي الحاجة للقاعدة الثانية المجهزة للقياس كما في الفيزياء والرياضيات وغيرها.

وغاية الأستاذ من هذا ليس عبثا بقدر ما هي تأسيس للنظر في أسلوب الجاحظ بمنهج معياري بعد أن عرض منهج التصنيف والمصطلحات خارج أسوار هذا المنهج الذي اعتمده– وفي رأينا – أنه أولى بإدراجه ضمنه لما فيه من إفادة لمن يريد أن يدرس كتابا بعده، فينطلق في وصف منزلة صاحبه بين أقرانه من مؤلفي زمانه، مع عرض وشرح موضوع الكتاب، ثم

[1]– المصدر، ص126.

[2]– المصدر، ص130.

يعمد إلى الجانب الاصطلاحي فيه، وأخيرا يجعل مقاييس تقييم ونقد وهي ما سنراه مع المسدي: "حيث حاولنا حصر المفاهيم الأدبية الأساسية في القسم الأول من بحثنا والمفاهيم اللغوية النقدية في القسم الثاني منه[1].

أول قاعدة انطلق منها المسدي هي نظرة منهجية لسانية بامتياز، وهي أن الأسلوب هو بث المدلول الواحد بدوال مختلفة، وهذا من جانب التعدد والتحويل والتوزيع والتوليد في اللغة في الآن نفسه، وبها يمكن للغة وللإنسان حين يستخدمها أن يعبر على معاني كثيرة، وينتج خطابات وأساليب عديدة من خلال قالب واحد، وهذا الأمر أو القاعدة هي محل إجماع حسب المسدي: "إن كل نظرية في الأسلوب تنطلق أساسا من فرضية منهجية قوامها أن المدلول الواحد يمكن بثه بواسطة دوال مختلفة، وهو ما يؤول إلى القول بتعدد الأشكال التعبيرية رغم وحدانية الصورة"[2].

غير أن هذه الأساليب حسب المسدي تنقسم إلى مستويين، أحدهما استعمال عادي مألوف يخلو من كل سمة أسلوبية نوعية، وهو المستوى الذي يقرنه بطبقة معينة من المجتمع يسميها العامة حينا والناس حينا آخر، والثاني هو الاستعمال المطبوع بسمة فنية خاصة، وينص الجاحظ على أن هذا المستوى الثاني لتصريف الظاهرة اللغوية يقتضي السياسة والترتيب والرياضة وغيرها"[3].

وحين ندقق في هذين المستويين، أمكننا تصنيفها حسب مخرجات اللسانيات الاجتماعية إلى ظاهرة الازدواج اللغوي في اللغة العربية بين المستوى الفصيح والمستوى العامي الدارج، ولكل مستوى مجالات محددة، وأنماط تركيبية خاصة تميزه، فالعفوية والسلاسة والبساطة مع المستوى

[1]– المصدر، ص130.

[2]– المصدر، ص130.

[3]– المصدر، ص131.

العامي، بينما التعقيد والتكليف والانتقاء والاختيار سمة النمط الفصيح، وما يميزه ضمن مجالات استخدامه مهما كان نوع الخطاب. لذلك كانت شواهد الجاحظ من خطباء المساجد والحروب، وخطباء الأدب وبلغاء القبائل.

ثم يقدم أساسا ثانيا له صلة بالنظرية التوليدية التحويلية، وهي البنية العميقة والبنية السطحية، ويشترط بذلك للأسلوب أنه يحصل التطابق بينهما، "ومن مقتضيات مبدأ الاختيار – فضلا عن البنية الداخلية للكلمة– أن يحصل التطابق الآلي بين البنية الخارجية للفظ وهي البنية اللسانية الصوتية وبنية داخلية؛ أي اللسانية الدلالية؛ بحيث يكون اقتران الدال بمدلوله اقترانا آنيا لا يفضي إلى أي مجال انزياح وليس مجال زمني أو قطيعة دلالية"[1]. وهذا يوافق ما ذهبت اللسانيات إليه من دراسة اللغة دراسة آنية. فكذلك الأسلوب والخطاب إذا ما انزاح إلى سياق زمني محدد، خرجت مدلولات كلماته عن الراهن والحاضر الذي تكتسب فيه معانيها الجديدة، أو ربما حتى مدلولاتها الجديدة؛ لأن التوليد يكون على مستوى المعنى، أو على مستوى اللفظ (الدال).

وإذا ما تأملنا بدقة تلك الأسس التي اعتمدها المسدي في نقد أسلوب الجاحظ، نجدها تتأسس من فهمه الدقيق لمادة اللسانيات؛ فقد رد البيان والتبيين، ومدار كل نص وأسلوب وخطاب إلى مبدأ من مبادئها، أو بالأحرى إلى ثنائية من ثنائيات اللسانيات، وهي الدال والمدلول، واعتباطية العلاقة بينهم، وكذلك ثنائية المحور التركيبي والمحور الاستبدالي. وهذا النقد ليس الحكم في أسلوب الجاحظ الحكم الأدبي الفني من حيث أجاد وأصاب، أم جانب الدقة والصواب، بل هو حكم علمي يصدر من التساؤل الدقيق، ما الأسس العلمية التي اعتمدها الجاحظ في تصنيف الأساليب والخطابات بين البيان والتبيين وخلاف ذلك من مبتذل القول وأمراض اللغة والكلام؟

[1]– المصدر، ص132.

يجيب الدكتور عن هذا التساؤل الذي يحدد دقة الجاحظ حسب فهم الأستاذ بأنه اعتمد على ثوابت وأسس علمية لسانية، ساردا ذلك يقوله: "وكل هذه المقاييس الفرعية إنما تهدف كما أسلفنا إلى المادة اللغوية المختارة على الجدول العمودي في بوتقة التوزيع على الجدول الأفقي، مما يجعل الصياغة اللسانية كلا لا يتجزأ (متلاحم الأجزاء سهل المخارج، فتعلم بذلك أنه قد أفرغ منه إفراغا واحدا، وسبك سبكا واحدا؛ فهو يجري على اللسان كما يجري الدهان)"[1].

ثم أضاف الأستاذ خاتمة لهذه المقاييس التي اشتمل عليها المبحث، واشتغل عليها في الحكم على الجاحظ في تقدير نظريته اللسانية الأسلوبية العامة في مجملها بالطابع النظري، و"البيان والتبيين" لا يخلو من تطبيقها بالمعنى الدقيق، فهي على الأقل تكشف بعض المحاولات العلمية التي تمد الدارس بمقاييس أكثر إحكاما، وبالتالي أقرب إلى الموضوعية"[2]. ولا شك أن هذا أكثر ما يحتاجه النقد من دقة موضوعية ومنهجية، وسلامة منطقية من حيث التصور، والهدف والنتائج.

من خلاصة ما أفاد به المسدي من قراءة كتاب الجاحظ "البيان والتبيين" ما يتعلق بالأسلوبية وبنقد الأسلوب في كثير من زوايا نقده والنظر إليه، وما يميزه عن غيره من كتابات عصره، أن قراءة أسلوب المفكر أو العالم، تتجاوز قراءة الجوانب اللغوية والفنية والجمالية كما رأينا مع الشابي والمتنبي، إلى قراءة أسلوب التفكير، ونمط التأليف والنسيج والتحليل والتفسير، ومنه فإن هذا يدعو إلى انتهاج الجرأة سبيلا وغاية لقراءة وتحليل كثير من المدونات، لنستشف منها منهج التأمل وأسلوب الوصف، ودقة الملاحظة، كما رأينا مع المسدي حين عالج كتاب البيان والتبيين.

[1]– المصدر، ص137.

[2]– المصدر، ص138.

وإذا كان الناقد قد أتى على الجاحظ تميز منهج التأليف والتصنيف، فإن بالمقابل المسدي يحق ثناء تميزه في وضع الأسس التي اعتمدها في القراءة الأسلوبية لهذا الجنس من الخطابات العلمية المتخصصة، ومنها شرح أسلوب الجاحظ باعتباره منظومة فكرية بامتياز وحسن اختياره موضوع الكتاب، وكيف يعالج مواضيعه انطلاقا من الملاحظة والوصف الدقيق، خاصة أن مواضيع الكتاب مختلفة ومتشبعة ومتشعبة بين أدوات البيان وأخبار الخطباء أمراض الكلام وغيرها، وثانيا شرح أسلوب كذلك من خلال تفرده في منهج التأليف، وتقسيم المواضيع، ثم جانب المصطلح وعلاقة ذلك بالأسلوبية كعلم حديث، وما يقاربها كالبلاغة والفصاحة، والإبلاغ والإفصاح.

كما أفاد هذا الجهد الثمين من الناقد بيان الأسس والمقاييس التي يكون عليها نقد الأساليب. وهذا خلاصة بين ما جاء في البيان والتبيين، وبين ما أضافه وشرحه المسدي وأضاف عليه. والخلاصة أن كتاب الجاحظ بيان في النقد، وكتاب المسدي في نقد أسلوبه بيان في الأسلوبية، رغم أننا نكتفي بجهدنا هذا المتواضع وفهمنا القاصر بقراءة وصفية، وحسبنا في ذلك الاجتهاد، وما التوفيق إلا بالله.

4- النقد الأسلوبي في فصل: "مع ابن خلدون: الأسس الاختيارية في نظرية المعرفة من خلال المقدمة"

4-1- شرح عنوان الفصل:

قدم الأستاذ عبد السلام المسدي في هذا الفصل تحليلا في أسلوب ونمطية ابن خلدون في المقدمة. وابن خلدون: "هو ولي الدين عبد الرحمن بن محمد بن الحسن ابن محمد بن جابر بن محمد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن خلدون الحضرمي"[1]. وقد وسم عنوان الدراسة بـ "مع ابن خلدون الأسس الاختيارية في نظرية المعرفة من خلال المقدمة؛ فلم يخالف الناقد ما كان يصيغ به العناوين السابقة للفصول من حيث التلازم والتناسب والتوافق في "مع المتنبي" "مع الشابي"، "مع الجاحظ". وقد شرحنا سابقا المعية هنا دلالة توغل التحليل الأقصى غايات ودرجات التعمق، وسعة النظر والإحاطة، خاصة أن المدونة ليست ذات طابع أدبي؛ إذ لها من الإمكانات والخصائص الأسلوبية خلاف ما عليه غيرها من المدونات ذات السمة الأدبية والجمالية التي يجري فيها التحليل على نسق القراءة الأسلوبية المألوفة.

أما الجزء الثاني من العنوان، فهو لوحده كاف لأن يكون قراءة أسلوبية للأسس الاختيارية في نظرية المعرفة من خلال المقدمة. ويمكن أن نفككها إلى ثلاث تمفصلات، كل لها مدلولها ومقاصدها عند الناقد؛ الأسس الاختبارية، ربما يقصد بذلك الأسس التي نقيس بها أسلوبية لغة ابن خلدون، فابن خلدون ظاهرة في التعليل والاحتجاج اللغوي، لذلك كان على الناقد فعلا البحث في أسس يختبر بهذا هذا النمط المميز على مستوى عباراته، وعلى مستوى التفكير، لأن منشأ هذا التعبير العلمي، حتما هو موسوعية ابن خلدون، وسعة نظرة، لذلك وصف الناقد

[1]- محمد الخضر، حياة ابن خلدون ومثل من فلسفته الاجتماعية، المطبعة السلفية ومكتبتها، القاهرة، ص05..

المسدي العالم ب"نظرية المعرفة". ولا شك أن "ابن خلدون يتبوأ مقاما رفيعا بين منتجات وتراث الفكر العالمي"[1].

فنظرية المعرفة وتواردها في هكذا عنوان، تدل على جانب حقيقي ووصف مطابق وليس هو من قبيل المجاز ولا المدح، أو الغلو والمبالغة، فابن خلدون فيما كتب وترك من أثر صاحب معرفة تتجاوز كونها نظرية، ذلك أن النظرية قد يوصف بها الطرح البسيط ولو كان في صفحات يسيرة، أما ابن خلدون، فقد تجاوز هذا بأضعاف، وذلك بخوضه في فنون كثيرة، إضافة لبراعته فيها وتميزه، خاصة أنه ذو فكر أصولي وليس جمعا ونقلا فحسب، رغم ما يعتري مقدمته من جمع للعلوم ونقلها عن غيره من السابقين.

أما جانب من خلال المقدمة، فالمقصود منه واضح، وهو بيان مدونة الدراسة –خاصة أن المقدمة هي المؤلف الوحيد والمشهور لابن خلدون، والذي تم اختصاره في كلمة المقدمة بدل العنوان المطول الذي كان يفترض أن يذكر "المبتدأ والخبر في تاريخ وأخبار العرب من العجم والبربر". وهذا العنوان ينم ويوحي بسعة المقدمة، وباشتمالها على كثير من الجوانب في حياة العرب واختلاطهم بالعجم، وذكر مآثرهم وتاريخهم وفنونهم وعلومهم.

وبالنسبة لاختيار تطبيق المسدي بالجوانب التاريخية والاجتماعية في المقدمة وفق المنهج الأسلوبي، فهو صريح في أنه يعالج للغة العلمية التي أسست لهذا التنظير المميز. كما أنه يطبق المبدأ الرئيسي في الأسلوبية، في كون الأسلوب هو الرجل، أو هو السمة الخاصة، وكذلك جانب الأسلوبية التعبيرية التي عرفناها مع أنواع وتصنيف الأسلوبيات، لأن التعبيرية التي جاء بها شارل بالي، هي الأقرب لقراءة جميع الخطابات، وتتناسب مع النصوص العلمية، ومنها هذا النموذج الذي عالجه المسدي.

[1]– إسماعيل سراج الدين،بن خلدون، إنجاز فكري متجدد، مكتبة الإسكندرية، 2008، ص05.

على هذا الأساس، ومن خلال ربط الموضوع بالعناوين السابقة، تكتمل النظرية التأملية في اختيارات الناقد المسدي لمدوناته لهذا التجريب والمختبر الأسلوبي؛ فهي شاملة لجميع أنماط الخطابات والكتابات، والأساليب العلمية والنثرية، الأدبية والشعرية على حد سواء. وطبعا هذا ما يحسب للناقد المسدي، ويجعل تنظيره الأسلوبي مميزا ومبنيا على أسس صحيحة ومتينة.

4-2- آليات قراءة وتحليل المسدي لأسلوب الجاحظ:

إذن ننطلق كما عهدنا مع المدونات السابقة في شرح بعض ملامح وتطبيقات الأسلوبية التي جاء بها عبد السلام المسدي لفهم أسلوبية ابن خلدون. وهذا الأمر يختلف عن قراءة مدونة الشابي والمتنبي، وتقترب من أسس قراءة كتاب البيان والتبيين للجاحظ: فهل اعتمد الناقد في هذه الجزئية على نفس المنوال الأسلوبي السابق في التحليل أم ابتكر أسسا جديدة، ومقومات نقدية مغايرة لما كان عليه في الفصول الأولى الثلاث؟

قبل النظر في الجوانب الأسلوبية، حدد المسدي مجال اشتغال المقدمة عند ابن خلدون، وهي التأهيل للعلم، وهي المجال الإبستمولوجي العام الذي يعرف حديثا بفلسفة العلم، لذلك فإن فهم هدف التأليف عند ابن خلدون وفهم المجالات الأخرى، يؤدي إلى فهم الجوانب الأسلوبية من جهة بصفة خاصة، وفهم المقاصد والسياقات العامة للموضوع، فهدف الكتابة معين في فهم طبيعة الاختيارات الأسلوبية. لذلك أوضح المسدي قائلا: "وهذه الحيرة مردها استكشاف أصول المعرفة النوعية يعد استكمال مضمونها، لذلك كانت الحيرة الإبستمولوجية لاحقة دوما لتكامل مقولات العلم الخاص مثلما كان بديهيا أن تكون في مجملها تالية لقواعد الضبط القطاعي، لذلك ترى أن العلم ما إن تحدد أركانه المضمونية وتتضح رؤاه المنهجية، حتى يخلق علما آخرا يحمل اسمه بعد استباقه بلفظ الأصال"[1].

[1]- المصدر، ص148.

وهذا التجديد والشرح الذي عمده الدكتور المسدي لا يتأسس على النظر في مقدمة ابن خلدون فحسب، بل هو عام وشامل، لأن الفترة التي جاءت فيها مقدمة ابن خلدون على هذا النسق، سبقتها مؤلفات فلسفية ولغوية وشرعية كانت جامعة للعلوم، ومنها ما كتبه الإمام السيوطي في علوم القرآن والسكاكي في علوم البلاغة رحمهما الله وغيرهما ممن جمع العلوم وخلاصة الفلسفة العربية، لذلك جاء وصف المسدي لهذا النمط بتعبير "القطاع العام"، أو الضبط القطاعي للعلم".

وفي هذا الإطار والسياق، وفي مجال ضبط العلم بمصطلحه، استبدل المسدي مصطلح الإبستيمولوجيا بالأصولية، مصرحا: "جوزنا لأنفسنا فيما سبق اقتراح مصطلح مشتق من هذه الصياغات العربية ندل به على هذا النمط من المعرفة"[1]. وقد حدد هذا النمط المعرفي أمارات أخرى خاصة، وهذا كله لعدد به المسدي الأمارات الأسلوبية لهذا النوع من الكتابة أو الأساليب التي جاءت خلاصة عبقرية لم يتحرج المسدي من وصفها بالنظرية الخلدونية على غرار النظرية الجاحظية، وله ذلك أن ابن خلدون تحذير بها مع فكرة المميز وحجاجية الدقيقة.

ثم ينطلق المسدي في ربط هذا التميز عند ابن خلدون في ترجمة الجانب الفكري إلى صياغة علمية لغوية، ومن خلال اللغة طبعا، ذلك أن اللغة هي مقوم الإبداع، ولغة العلم، يقول المسدي: "وهكذا لم تنفك تزدوج في المقدمات الأصولية وظفيتان لسانيتان: وظيفة الأداء الإبلاغي ووظيفة الحديث باللغة عن اللغة، وعن الوظيفتين تتولد وظيفة نوعية هي الكلام باللغة عن تفكير العقل في اللغة"[2]. هنا يبدأ الناقد في رد معالم التميز عند ابن خلدون لجانب اللغة.

وتتأسس وظيفة اللغة هنا في منهجية النسج اللغوي للأفكار، وهذا خلاصة المنهج. وقد وافق فيه الناقد بين الوصف والتحليل، وبين مقوم الطابع التوليدي، والتجريد والقياس والتأليف

[1]– المصدر، ص148.

[2]– ينظر: المصدر، ص120.

والاستيعاب. وكلها مصادر للمعرفة وللمنطق. أما التوليد، فهو سمة عامة في اللغة. ربما لاحظ الناقد المسدي هذا الأمر في مقدمة ولغة ابن خلدون أنها تخرج من التقليد إلى التوليد؛ فقدم هذه الميزة في وصفها، إضافة لميزة التجريد، وهذا ربما للمواضيع الفلسفية الكثيرة التي عالجها ابن خلدون، ومنها الفن والفلسفة، وطبائع وصفات بعض الأجناس البشرية.

أما القياس؛ فالجانب المعياري لبعض المواضيع التي عالجها ابن خلدون من خلال أسلوبه، جعل الكثير من الأفكار تستند إلى بعض الأحكام المعيارية، كالرياضيات والهندسة، وعلم أصول الفقه، والنحو والبلاغة وغيرها. وهذه ذات طابع علمي وتقني. أما الاستيعاب والتفسير والمنطق؛ فهي أدوات تتصل بجانب الحجاج والإقناع، وهو ما يحتاجه ابن خلدون في مقدمته، وفي لغته العلمية التي تخاطب العقول، وتبتعد عن الجوانب العواطفية والوجدانية في النظر للأسلوب، ليخلص بذلك المسدي إلى أسلوبية هذا النمط قائلا: "بل إن هذه المقدمات قد اختزلت لنا أرقى درجات التنظير الموضوعي في شأن الظاهرة اللسانية، أصبحت تمدنا بالرؤية الجامعة بين الاختيار والشمول"[1].

ولم يتحدث ابن خلدون عن اللسانيات وأهميتها، بل إن الناقد المسدي من خلال تأمله منهج كتابة المقدمة عنده، استنتج أن اللسانيات اليوم هي بمثابة الطرف أو الجزء الثاني من ثنائية الواقع / المنطقة، أو القياس/ التغيير أو التعليل؛ لذلك فهي مكللة للرياضيات لتصبح الثنائية: الرياضيات / الثنائيات، ومهمته الأولى معرفة المادة والعمران وقياساتها وأنظمة الكون، ومهمة الثانية تغذية هذه الوقائع بما يجب من فكر لغوي وأسلوبي، وفني يلازمها ويرافقها. ومن هذا بني ابن خلدون منطق تفسيره المنطقي لكل شيء محدود ومادي عرضه في المقدمة وعالجه.

قدم الدكتور تبرير هذا الرأي والموقف تجاه أهمية اللسانيات، والذي هو أشبه بالمجازفة الفكرية في استبعاد الفلسفة مثلا من مجاورة الرياضيات، واستبعاد علوم إنسانية أخرى، ومنها

[1]– ينظر: المصدر، ص120.

التاريخ وغيرها، فهل فعلا اللسانيات هي الأكثر قيمة وشمولية منها؟ هنا يجيب المسدي عن سؤالنا الضمني: "فاللسانيات اليوم موكل إليها مقود الحركة التأسيسية في المعرفة الإنسانية لا من حيث تأصيل المناهج وتنظير الطرف فحسب، ولكن أيضا من حيث إنها تعكف على دراسة اللسان؛ فنجد اللغة مادة لها موضوعا، وهذه الخصوصية المطلقة هي التي أضفت على اللسانيات من جهة أخرى صفة الجاذبية والإشعاع في نفس الوقت"[1].

ومعنى كلام الناقد أن اللسانيات هي من تغذي المعارف والتخصصات الأخرى بالجوانب المنهجية، وآليات نقد وتنظيم الأفكار، ومنتجات العلم والفكر بصفة عامة، خاصة التجريدية منها. وقد أفادت هذا من خلال منهج النظر والوصف للغة باعتبارها ظاهرة مجردة. كما أن هذا الأمر يضاف له ما هو أهم، أن اللغة تغذي العلم بلسان وأسلوب النظم والتأليف، ومنه الحجاج والإقناع والتأثير. يقول المسدي في هذا الشأن: "فاللغة عنصر قار في والمعرفة، سواء ما كان منها علما دقيقا أو معرفة نسبة أو تفكيرا مجددا، فاللغة تتحدث عن الأشياء، واللغة نتحدث عن اللغة، وتلك هي وظيفة ما وراء اللغة، بعد هذا وذاك، نتحدث عن علاقة الفكر، إذ نفكر باللغة من حيث تقوب ما تقول فكان طبيعيا أن تكون اللسانيات مولدا حركيا لشتى المعارف، فهي كلما التجأت إلى حقل من المعارف، اقتحمته، فغزت أسسه حتى يصبح ذلك العلم نفسه ساعيا إليها"[2].

وتتأسس علاقة الفكر باللغة من خلال جدلية الأسبق منهما، ليكون بذلك التأليف العلمي، وهذا موضوع الكتاب والدراسة، أي فكر ابن خلدون في تأليف الكتاب، وعلاقة الأسلوب بذلك، وكيف جعل من فكره ملهما، وجعل منه الأب الروحي لعلم الاجتماع بجميع فروعه. من هنا، تتضح أهمية اللسانيات حسب الدكتور في كونها تجيب عن مثل هذه التساؤلات التي تفسر

[1]– المصدر، ص126.

[2]– المصدر، ص127.

الأسلوب أولا وخصوصا، ثم تفسير التأليف العلمي وأساليبه اللغوية والمنطقية، والأصولية ثانيا بصفة أعم وأشمل، تلك إذن مكانة اللسانيات وفضلها على سائر تخصصات وفروع العلوم التي تتعلق بالإنسان وتفسر ما حوله وما تخيط به من ظواهر وخصائص، فاللسانيات الآن هي أم العلوم.

وحين طرق الناقد هذا المجال من بيان أهمية ووظيفة اللسانيات، إنما تعلق الأمر بجانب الأسلوب. فاللسانيات تبحث في تفسير ما يتعلق باللغة ذهنيا. أما الأسلوبية، فهي دراسة المنجز الخطابي، ولا شك أنه لا خلاف في كون البحث في أصول التأليف العلمي وفلسفات التفكير والبرهنة على تساؤلاته، وصياغة نتائج أبحاثه، إنما هو بدقة يعتمد على فهم الأسلوب، وتجتمع خصائص العلم بخصائص الأسلوب. لذلك ختم المسدي كلامه عن اللسانيات بأنها "فاستوعبت علوم الإحصاء، ومبادئ التشكيل البياني، ومبادئ الإخبار، والتحكيم الآلي، وتقنيات الاختزان"، وكل هذه الخصائص تحتاج الأسلوب من استيعاب العلم، وتشكيل الفن، وصياغة الخبر وأعلامها منهجيات النقد والتحكيم، وغيرها.

ومن الموضوعات التي لفتت انتباه المسدي في فصول المقدمة ولها علاقة باللسانيات واللغة، ومنها الأسلوب والأسلوبية، هي موضوع تحديد مفهوم اللغة، وآليات اكتسابها. ومعلوم أن آلية اكتساب اللغة هي بدرجة أوضح، آليات الحصول على الأسلوب منها، ذلك أن تفسير اللغة لسانيا هو معطى عام يختص بالجماعة وعموم الإنسان، ثم يتخصص ويضيف ويؤول إلى تتبع آلية هذا الاكتساب عند الفرد الواحد، وكيف يتفاوت الناس في ذلك، وهذا دون إغفال الجانب الاجتماعي، لذلك انبهر المسدي بتعريف ابن خلدون للغة ذلك التعريف المشهور والدقيق، بأنها عبارة المتكلم عن مقصودة، وهي ملكة متعددة في الذهن.

يشرح الناقد ما ذهب إليه: "ومفتاح التصور العلمي في شأن الظاهرة اللسانية يأتي عند ابن خلدون في مستوى التعريف الذي يحدد به اللغة. ويستند هذا التعريف إلى كل العناصر التفكيك

الاختباري؛ إذ يستجمع جملة من القواعد أهميتها التصويب والتواصل، والعقد الجماعي: "اعلم أن اللغة في المتعارف هي عبارة المتكلم عن مقصوده، وتلك العبارة فعل لساني فلابد أن تصير ملكة في العضو الفاعل لها وهو اللسان. وهو في كل أمة بحسب اصطلاحاتهم"[1].

ثم يضيف متمما للتعريف: "على أن هذا البعد الاجتماعي في تقدير الظاهرة اللغوية يمثل نقطة تقاطع المؤشرات المعرفية التي نهل منها ابن خلدون تصوراته المنهجية، وحتى التعبيرية. ولا شك أن مدونة صاحب العبر تكشف عن تميزه في مستوى المصطلحات، وفي مستوى الصياغة الأسلوبية أيضا. ولكن هذا التفرد ليس توالدا بالطفرة إطلاقا، ولكن له جذور بوسعينا إلى استقصائها لها مراجعها في ميزات الفكر العربي"[2]. ولئن كانت هذه جزئية تتعلق باللغة من كتاب ابن خلدون، فإن الأسلوب هو الظاهرة العامة التي تشرح بها جميع فصول المقدمة.

وثمة خاصية في الأسلوب عناها الناقد بالنظر أكثر من غيرها في تفكيك أسلوبية ابن خلدون، وهي تشير إلى قراءة ما داخل اللغة وما في نفسه؛ حيث تناول المنوال وما يتبع هذه الخاصية من أساليب وتأديات خطابية، وهذه الفكرة موجودة في كتابات المسدي من جهة، وفي كتابات ابن خلدون، والذي نقل له الناقد، أن "مؤلف الكلام هو كالبناء والنساج والصورة الذهنية المنطقية كالقالب الذي يبنى فيه أو المنوال الذي ينسج عليه"[3]. وهذه النظرة توافق نظرية الاكتساب اللغوي؛ أي وجود فطرة وقدرة ذهنية تحفز على صياغة الكلام ونظم اللغة، ومنها الأسلوب.

يقول المسدي في شرح هذا "ويدقق ابن خلدون قضية اللغة عندما يقرنه بفكرة الأسلوب في الصياغة الفنية التي هي أبسط تركيب لنفس الأدوات الكلامية الأولى، وهذا المزج ينتهي إلى

[1]– المصدر، ص184.

[2]– المصدر، ص185.

[3]– المصدر، ص197.

تعميق فكرة الطبقة المولدة اللغة؛ إذ يقرر أن الأسلوب عبارة في المنوال الذي ينسج فيه التراكيب أو القالب الذي يفرغ فيه"[1].

وعن الجانب المصطلحي، فالمصطلح ظهر بصفة صريحة في نص ابن خلدون كما نقل المسدي؛ إذ نقل عنه: "إذا هم الإنسان بالمخاطبة أو المحاورة انتقى التراكيب المناسبة فيرصها في ذلك المنوال حتى يتسع القالب بحصول التراكيب الوافية بمقصود الكلام"[2].

ثم يختم المسدي كلامه عن ابن خلدون: "هكذا نتبين – رغم اقتضاب المعرجات التحليلية ضمن ما أوردناه – كيف يتسنى إثبات عراقة البحث الأصولي في الحضارة العربية الإسلامية، كما يتسنى بيان خصوصية الكامنة في ازدواج فلسفة العلوم بنظرية في المعرفة"[3].

[1]– المصدر، ص198.

[2]– المصدر، ص197.

[3]– المصدر، ص198.

خلاصة الفصل:

في خلاصة هذا الفصل، والذي عالجنا فيه الرؤية التطبيقية لعبد السلام المسدي تجاه أربع أصناف من الأساليب وتحليله لطرق نظمها ونسجها، فمن أسلوب الشعر القديم عند المتنبي، واختيار المتنبي كان لغاية علمية تتمثل في أن أسلوبه تميز بخاصية التجديد الشعري في قوالب القصائد وأشكالها وعروضها، وكذلك في توليد المعاني، ومقابلتها بأضدادها أو ترادفها، وهي سمة أسلوبية تستحق النظر والدراسة، وهذا ما عمده الناقد والأستاذ المسدي.

أما النمط الشعري الثاني، فهو شعر الشابي، وله كذلك من خصائص الأسلوب ما يجعله سمة متميزة شعره وتفكيره، كما يفصح به كثيرا عن سماته الذاتية، فضلا عن سمات المجتمع وما يحمله هذا الشعر من قضايا الأمة وآلامها وأمالها في أسلوب غنائي، وصور نفسية كان الأستاذ محللا لأسلوبيتها النفسية بدقة.

أما النموذج الثاني من الأسلوب، فكان بين نثر الجاحظ، والذي موضوعه أساسا دراسة اختلاف أساليب البيان والتبيين على اختلافها، وكذلك ما يعتري هذه الملكة اللسانية من عيوب أو صعوبات، لذلك فإن الأسلوب يتأسس من بناء هذه الملكة، ويتأثر بها. وقد أقام المسدي الدراسة شارحا أسلوب الجاحظ العلمي المتخصص من جهة، وشارحا لما يميز البحث من أسلوبية، كالفصاحة والإفصاح، والبلاغة والإبلاغ، مستعينا بذلك بالجوانب الإحصائية في قراءة أسلوب المدونة، ثم يختم المسدي الفصل بقراءة أسلوب ابن خلدون، معتبرا إياه مدرسة ومنظومة فكرية أسس لها الأسلوب الذي كتب به، وتميز به العالم سمات وخصائص فريدة من نوعها، من حيث استخدام الأدوات العقلية من تفسير وتحليل ومنطق، وكل هذا يدخل في صناعة الأسلوب؛ بل في صناعة الفكر، خاصة أن مدار الأسلوبية عند المسدي تركز على علاقة اللغة بنمط المفكر، ومنه كانت اللسانيات والأسلوبية هي أكثر ما يغذي تحليل الخطاب من أدوات وإجراءات.

خاتمة

الخاتمة:

في ختام دراستنا، وبعد الإحاطة النظرية بموضوع الأسلوبية خلال الفصل الأول النظري، ثم تتبع الجهود النظرية للأسلوبية عند الناقد التونسي الأستاذ عبد السلام المسدي، وأيضا نقد وشرح الجهود التطبيقية من خلال كتاب "قراءات مع الشابي والمتنبي والجاحظ وابن خلدون، نوجز القول أن الأستاذ ناقد أسلوبي بامتياز، وقد أبان عن تحليلات نظرية دقيقة، وعن منهجيات جديدة في ربط الأسلوب وميزاته بصاحبه وأهداف إنتاجه. لذلك لا غرابة أن يوصف المسدي بالريادة في علم الأسلوبية العربية. وقد جمع بين فهم التراث، واستنطاق اللسانيات، واستثمار ملكتي الفهم والتحليل التي تميز بها وامتاز. ويمكن أن نقدم نتائج تفصيلية لما تفردت به جهوده الأسلوبية من خلال النتائج والنقاط الآتية:

- شغل موضوع الأسلوبية الكثير من الباحثين من علماء اللغة وغيرها، وهذا نتيجة حضور الأسلوب في كل خطاب من خطابات الحياة دون استثناء، ونتيجة إسهام الأسلوب في بناء شخصية صاحبه، وتحديد مدى تأثيره وإقناعه بين أقرانه. وبناء على هذا، ورد في الأسلوبية مباحث كثيرة، ومدونات عربية غير قليلة، وكانت مدونة الدكتور المسدي من أغزرها معرفه لها، ومن أدقها في الإحاطة بها.
- الأسلوبية كمنهج من أوضح المناهج اللسانية، والأكثر استثمارا في التطبيقات النقدية، وذلك لأنها تعنى بالنص، ومعلوم أن النص أو الخطاب هو المحل والمدونة التي يشتغل عليها النقد والنقاد مهما كان منهجهم وعلى اختلاف مقاصدهم وأهدافهم. لهذا كان منظور الدكتور عبد السلام المسدي ومنطلقه في مدونته نقديا.
- بلغت الأسلوبية درجة مقبولة من النضج والتجلي، واتضحت معالمها بالاستقلال عن اللسانيات والبلاغة؛ غير أن هذا الموضوع كان جدلا في نشأتها، وخاصة الأسلوبية

العربية التي اصطدمت بالموروث البلاغي العربي، ولم يكن الأستاذ المسدي بمنأى عن هذه الجدلية، لكن اعتبر الأسلوبية أشمل، والبلاغة تختص بجوانب الفن، رغم أن الأسلوبية عنده وريث شرعي للبلاغة.

- النظر في مدونة المسدي النظرية والتطبيقية يعطينا ملمحا عاما عن الجانب الاصطلاحي للأسلوبية عنده؛ خاصة أنه مختص في هذا المجال من خلال كتابه المشهور المصطلح والمصطلحية؛ فالمصطلح الأسلوبي عند الدكتور تميز بدقة فهمه وشرحه أولا، ثم دقة توظيفه على مستوى التطبيق الأسلوبي أو التنظيري.
- جاء كتاب الأسلوب والأسلوبية عند الناقد المسدي جامعا لمباحث كثيرة تتعلق بهذا المنهج، وكان فارقا بين جدلية الأسلوب كنمط تعبيري والأسلوبية كعلم غربي دخل العالم العربي بمفاهيمه ومصطلحاته وآلياته الإجرائية، وكان للناقد جهودا غزيرة في هذا المجال من التنوير المنهجي.
- مما يحسب للأستاذ من دقة منهجية وعلمية أنه متحكم جدا من حيث استثمار مناهج العلم؛ فكان في تأريخ الأسلوبية غير مكتف بالوصف والسرد؛ بل يدرج مع كل خطوة تأريخية بين البلاغة والنحو والأسلوبية جانبا تحليلا. كما وصف لسانيا وحلل جميع خصائص الأسلوب، ثم أبان ذلك تطبيقا في مدونة التطبيق من كتاب قراءات التي عالجه الفصل الثالث من أطروحتنا.
- مما دعت له جهود مدونة المسدي التطبيقية وأبانت عنه، أن المنهج الأسلوبي كفيل بقراءة أساليب جميع أنماط الخطاب العلمية والأدبية، الشعرية السردية وحتى النثرية، لذلك لا مانع أن يستثمر في تحليل نصوص علمية وغيرها كالنصوص القضائية والسياسية وغيرها.

- من المآخذ المنهجية التي تؤخذ على مدونة الأسلوبية في جهود الدكتور عبد السلام المسدي لم يخصص من كتابه الأول الأسلوب والأسلوبية طريقة وآلية القراءة الأسلوبية لأي نص أدبي أو غيره؛ وذلك لتكون هذه الآليات معيارا ومستندا يجده الناقد والدارس المبتدئ في قراءة أسلوب أي عمل فني ما.
- ومن المآخذ كذلك على مدونة الناقد أنه اختار لتطبيقاته شعرا أدبيا ونثرا علميا، وربما كان الأولى أن تكون المدونات موزعة على سبيل المقارنة بين نص شعري فني ونثر فني، ثم يضيف أسلوبية النثر العلمي المتخصص التي أجاد فيها مع ابن خلدون والجاحظ.
- من المآخذ كذلك، وليست هي بمشكلة واضحة، وإنما من باب تيسير فهم الكتابة العلمية أن أسلوب الدكتور أحيانا يكون عصي الفهم على القارئ، وغاية العلم الوضوح، لذلك كان الأحرى شرح بعض مباحث الأسلوبية عنده بشيء من التبسيط.
- غير أن هذه المآخذ تبقى نسبية على سبيل تقديرنا؛ إذ لا يمكن أن ننقد باحثا بارعا في أسلوبه وأسلوبيته كالمسدي، وقد أفاد البحث في مؤلفاته أفكارا وتوجهات علمية قيمة بصفة عامة وأسلوبية على وجه الخصوص.

عموما يمكن الإقرار أن تجربة المسدي هذه تعدّ ريادة فكرية في شرح وتأسيس أسلوبية عربية، لما فيها من ربط النظري بالتطبيق، والحداثة والتراث، وكذلك الاهتمام بمصطلحات التّخصص والتّحكم فيها تحكما جيدا. وتكمن أهمية مثل هذه المدونات في النقد العربي المعاصر في الخروج من ضيق النظريات الغربية التي قد لا تتناسب مع النص العربي؛ الأدبي منه والعلمي كذلك، لذا تكون الإفادة من رأي المختصين وجهودهم هي المنطلق الأول لهذا الصرح، ومن ذلك ما رأينا في دراستنا لجهود الناقد عبد السلام المسدي، وما توصلت إليه دراسات أخرى لجهود نقاد آخرين.

قائمة المصادر والمراجع

قائمة المصادر والمراجع:

أ- مصادر الدراسة: (المدونة)

1- عبد السلام المسدي، الأسلوب والأسلوبية، الدار العربية للكتاب، ليبيا، تونس، ط3.

2- عبد السلام المسدي، قراءات مع الشابي والمتنبي والجاحظ وابن خلدون، دار سعاد الصباح، الكويت، ط3، 1993.

ب- المصادر والمعاجم:

1- أبو الفضل جمال الدين، محمد بن مكرم بن منظور، لسان العرب، تح: يوسف البقاعي وآخرون، دار المتوسطية للنشر، الجمهورية التونسية، 2005، ط1، ج2.

2- أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، البيان والتبيين، تح: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1998، ط7، ج2.

3- بطرس البستاني، محيط المحيط، دار الكتاب الجديد المتحدة، دار أويا للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 2006.

4- محمد ابن خلدون، مقدمة العلامة ابن خلدون، دار إحياء التراث، بيروت، ط4.

5- محمد أبي بكر بن عبد القادر الرازي، مختار الصّحاح، المؤسسة الحديثة للكتاب، طرابلس، لبنان، د (س، ط).

6- محمود بن عمر جار الله الزمخشري، أساس البلاغة، تح: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، 1998، ط1، ج1.

ج- الكتب العربية:

1- إبراهيم عبد العزيز السمري، اتجاهات النقد الأدبي العربي في القرن العشرين، دار الآفاق العربية، القاهرة،2011.

2- أحمد الشايب، الأسلوب: دراسة بلاغية تحليلية لأصول الأساليب الأدبية، الجزائر، ط6، 1966.

3- أحمد درويش، دراسة الأسلوب بين المعاصرة والتراث، دار غريب، القاهرة. 2006.

4- إسماعيل سراج الدين، بن خلدون إنجاز فكري متجدد، مكتبة الإسكندرية، 2008.

5- إيمان محمد أمين الكيلاني، بدر شاكر السياب، دراسة أسلوبية لشعره، دار وائل للنشر، الأردن، ط1، 2008.

6- بسام قطوس، المدخل إلى مناهج النقد المعاصر، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، مصر، ط1، 2004.

7- جميل حمداوي، اتجاهات الأسلوبية، شبكة الألوكة، 2015، ط1.

8- حمادي صمود، التفكير البلاغي عند العرب أسسه وتطوره إلى القرن السادس، منشورات الجامعية التونسية، تونس، 1981.

9- رابح بوحوش، الأسلوبيات وتحليل الخطاب، منشورات جامعة باجي مختار، عنابة، الجزائر، دط.

10- رامي علي أبو عايشة، اتجاهات الدرس الأسلوبي، دار ابن الجوزي، عمان، 2010، ط1.

11- سعد مصلوح، الأسلوب دراسة لغوية إحصائية، عالم الكتب، بيروت، ط3، 2002.

12- سعد مصلوح، مشكل العلاقة بين البلاغة العربية والأسلوبيات اللسانية، كتاب النادي الثقافي، جدة السعودية، 1990.

13- شكري عياد، اللغة والإبداع، مبادئ علم الأسلوب العربي، أصدقاء الكتاب، مصر، 1988، ط1.

14- شكري محمد عياد، اتجاهات البحث الأسلوبي، أصدقاء الكتاب، مصر، ط2، 1996.

15- صالح عطية، صالح مطر، في التطبيقات الأسلوبية، دار الكتب، لبنان، دط.

16- صلاح فضل علم الأسلوب مبادئه وإجراءاته، دار الشروق، مصر، ط1، 1998.

17- صلاح فضل، مناهج النقد المعاصر أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2002م.

18- عبد الرحمان حاج صالح، السماع اللغوي العلمي عند العرب ومفهوم الفصاحة، دار موفم للنشر، الجزائر، ط1، 2012.

19- عبد السلام المسدي، الأدب وخطاب النقد، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، ط1، 2004.

20- عبد السلام المسدي، التفكير اللساني في الحضارة العربية، الدار العربية للكتاب، تونس، ط2، 1986.

21- عبد السلام المسدي، اللسانيات وأسسها المعرفية، الدار التونسية للنشر، تونس، ط1، 1986.

22- عبد السلام المسدي، في آليات النقد الأدبي، دار الجنوب للنشر، تونس، دط، 1994.

23- عبد السلام المسدي، ما وراء اللغة بحث في الخلفيات المعرفية، مؤسسات عبد الكريم بن عبد الله للنشر والتوزيع، تونس، دط.

24- عبد السلام المسدي، مباحث تأسيسية في اللسانيات، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، ط1، 2010.

25- عبد السلام المسدّي، مساهمة الألسنية في تحديد الأسلوب الأدبي ضمن كتاب قضايا الأدب العربي، مركز الدراسات والأبحاث الاقتصادي، تونس، 1978.

26- عبد العزيز أبو سريع ياسين، دراسة الأسلوب في التراث البلاغي، مطبعة السعادة، ط1،1991.

27- عبد العزيز عتيق، علم المعاني، بيروت، دار النهضة، 1974.

28- عبد الملك مرتاض، الألغاز الشعبية الجزائرية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983.

29- عبد الملك مرتاض، الأمثال الشعبية الجزائرية، تحليل لمجموعة من الأمثال الزراعية والاقتصادية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2007.

30- عبد الملك مرتاض، الكتابة من موقع العدم، دار الغرب للنشر، الجزائر، دط، 2003.

31- عبد الملك مرتاض، في نظرية النقد، دار هومة، الجزائر، 2005، دط.

32- عدنان بن ذريل، اللغة والأسلوب، منشورات اتحاد الكتاب العربي، دمشق، ط1، 1980.

33- عماد علي سليم الخطيب، في الأدب الحديث ونقده، دار المسيرة، الأردن، ط1، 2009.

34- فتح الله أحمد سليمان، الأسلوبية مدخل نظري ودراسة تطبيقية، مكتبة الآداب للنشر، القاهرة، دط، 2004.

35- فتح الله أحمد سليمان، الأسلوبية مدخل نظري ودراسة تطبيقية، مكتبة الآداب القاهرة، 2004، ص15.

36- فضل عبّاس، البلاغة، فنونها وأفنانها (علم البيان والبديع)، دار الفرقان للنشر والتوزيع، 2004.

37- محمد الخضر، حياة ابن خلدون ومثل من فلسفته الاجتماعية، المطبعة السلفية ومكتبتها القاهرة، 2004.

38- محمد بن يحي، السّمات الأسلوبية في الخطاب الشعري، ص16.

39- محمد عبد المطلب، البلاغة والأسلوبية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 1984.

40- محمد عزام، الأسلوبية منهجيا نقديا، منشورات وزارة الثقافة، مصر، ط1، 1989.

41- مختار حبّار، شعر أبي مدين التلمساني، (الرؤيا والتشكيل)، دراسة اتحاد كتاب العرب، دمشق، (د ط)، 2002.

42- منذر عياشي، الأسلوبية وتحليل الخطاب، مركز الإنماء الحضاري، حلب، سوريا، ط1، 2002.

43- موسى ربابعة، الأسلوبية، مفاهيمها وتجلياتها، دار الكندي، 2003، ط1، إٍالأردن.

44- نور الدين السد، الأسلوبية وتحليل الخطاب، دار هومة للطباعة والنشر، دط، 2010.

45- وغليسي يوسف، مناهج النقد الأدبي: مفاهيمها وأسسها، تاريخها وروادها، وتطبيقاتها العربية، جسور للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 2007.

46- يوسف أبو العدوس، الأسلوبية الرؤية والتطبيق، دار المسيرة، ط1، عمان، الأردن، 2007.

47- يوسف أبو العدوس، البلاغة والأسلوبية، مقدمات عامة، دار الأهلية، الأردن، 1999، ط1.

48- يوسف محمد الكوفحي، اللغة الإبداعية؛ دراسة أسلوبية لأعمال جبران خليل جبران العربية، ص15.

49- يوسف وغليسي، إشكالية المصطلح في الخطاب النقدي العربي الجديد، الدار العربية للعلوم ناشرون (منشورات الاختلاف)، بيروت، لبنان، 2008، ط1.

د- الكتب المترجمة:

1- إليزابيت غافو غالو، مناهج النقد الأدبي، تر: يونس لشهب، عالم الكتب الحديث، إربد، ط1، 2013.

2- بيير جيرو، الأسلوبية، تر: منذر عياشي، دار الحاسوب للطباعة، الإسكندرية، مصر، دط، 1994.

3- جورج مولينيه، الأسلوبية، تر: بسام بركة، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط2، 2006.

4- جوزيف ميشال شريم، دليل الدراسات الأسلوبية، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، لبنان، ط2، 1867.

5- فيلي ساندرس، نحو نظرية أسلوبية لسانية، تر: خالد محمود جمعة، دار الفكر، دمشق، ط1، 2003.

6- ميكائيل ريفاتير، معايير تحليل الأسلوب، تر: حميد لحميداني، دار النجاح، دار البيضاء، المغرب، ط1، 1993.

7- هنرش بليت، البلاغة والأسلوبية ـــــ نحو نموذج سيميائي لتحليل النص ــ، تر: محمد العامري، أفريقيا الشرق، بيروت، لبنان، دط، 1999.

ه- المقالات العلمية والمداخلات:

1- أحمد درويش، الأسلوب والأسلوبية، مدخل في المصطلح وحقول البحث ومناهجه، مجلة فصول، مج5، ع1، 1984.

2- دحو مامة الأسلوب الأسلوبية مفاهيم واتجاهات، مجلة النقد والدراسات الأدبية واللغوية، ع2، 2015.

3- رابح بوحوش، الخطاب والخطاب الأدبي وثورته اللغوية على ضوء اللسانيات وعلم النص، مجلة معهد اللغة العربية وآدابها، جامعة الجزائر، 1997.

4- عامر رضا، المناهج النقدية المعاصرة ومشكلاتها، مجلة البحوث والدراسات الإنسانية، جامعة سكيكدة، الجزائر، مج1، ع14.

5- عبد القادر شرشار، النص الأدبي بين الأسلوبية والخطاب النقدي الحديث، الملتقى العلمي الأول لدراسة إشكالية المنهج في النقد الأدبي الجزائري الحديث ديسمبر 1999، المركز الجامعي بسعيدة.

6- محمد أشليم، الملامح التداولية في الدراسات الأسلوبية، مجلة جسور المعرفة، الجزائر، ع12، 2017.

7- محمد الأمين شيخة، الترجمة العربية للمصطلح في النقد الأسلوبي، مشاكل وحلول، مجلة علوم اللغة العربية وآدابها، جامعة الوادي، ع4، 2012.

8- نور الدين صدار، التناص في التراث النقدي العربي: قراءة في ضوء نظرية المتعاليات النصية، مجلة العلوم الإنسانية، الجزائر، ع27.

و- الرسائل والأطروحات:

1- عبد الجواد، إبراهيم عبد الله أحمد، الاتجاهات الأسلوبية في النقد العربي الحديث، أطروحة دكتوراه، إشراف إبراهيم السعافين، عمان، تشرين الثاني، الجامعة الأردنية 1994.

2- رشيد غنّام، شعر أبي حسن الحصري دراسة أسلوبية، أطروحة دكتوراه، جامعة الحاج لخضر، باتنة، الجزائر، 2012.

3- إدريس بن فرحات، المرجعية المحددة للآراء النقدية في القضايا المتعلقة بالنقد عند عبد السلام المسدي في كتاب "الأدب وخطاب النقد"، رسالة ماجستير، 2013، جامعة قاصدي مرباح، ورقلة.

4- برابطي نسيم، مسار النظرية النقدية عند عبد السلام المسدي، ماجستير، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الجزائر، 2010.

فهرس المحتويات

فـــهرس المحتـــويات

المحتوى	العنـــــــــــوان	الصفحة
/	شكـــــر وعرفـــــــــــــان	/
/	إهـــــــــــداء	/
/	ملخص باللغة العربية	/
/	ملخص باللغة الإنجليزية	/
/	مقدمة	أ- ز
الفصل الأول:	**الأسلوب والأسلوبية: مفاهيم وأسس عامة**	
/	تمهيد الفصل	**14**
أولا-	الأسلوب	**15**
1-	تعريف الأسلوب:	**15**
1-1-	الأسلوب لغة	**15**
1-2-	الأسلوب اصطلاحا	**17**
2-	خصائص الأسلوب:	**21**
2-1-	الأسلوب وخاصية النظم والانتظام:	**22**
2-2-	الأسلوب وخاصية المنوال والقالب:	**23**
2-3-	الأسلوب وخاصية الرؤية أو الفكر:	**24**
2-4-	الأسلوب وخاصية الاختيار والانتقاء:	**25**
2-5-	الأسلوب وخاصية التّضمّن والتضمين:	**27**
2-6-	الأسلوب وخاصية الإضافة والتجديد:	**28**
2-7-	الأسلوب وخاصية الفن والبيان:	**28**
ثانيا-	الأسلوبية:	**29**
1-	مفهوم الأسلوبية	**29**
2-	نشأة وميلاد الأسلوبية	**32**
3-	علاقة الأسلوبية ببعض العلوم الأخرى:	**36**
3-1-	علاقة الأسلوبية بالبلاغة القديمة:	**36**
3-2-	علاقة الأسلوبية باللسانيات الحديثة:	**39**
3-3 -	علاقة الأسلوبية بالنقد الأدبي:	**41**
4-	أبرز اتجاهات وأنواع الأسلوبية:	**42**
4-1-	الأسلوبية التعبيرية (أسلوبية بالي):	**42**

4-2-	الأسلوبية: النفسية (الفردية):	44
4-3-	الأسلوبية الإحصائية:	47
5-	آليات وإجراءات المنهج الأسلوبي في الممارسة النقدية:	49
ثالثا:	الأسلوبية في المنجز النقدي العربي المعاصر:	52
1-	الجهود الأسلوبية للناقد نور الدين السد:	53
3-	الجهود الأسلوبية للناقد عبد الملك مرتاض:	57
2-	الجهود الأسلوبية للناقد منذر عياشي:	57
4-	الجهود الأسلوبية للناقد أحمد درويش:	58
/	خلاصة الفصل:	61
الفصل الثاني:	**الجهود التنظيرية للأسلوبية عند عبد السلام المسدي**	
/	تمهيد الفصل	63
أولا:	التعريف بالأستاذ عبد السلام المسدي:	64
1-	التعريف بحياته وسيرته.	64
2-	جهوده العلمية ومؤلفاته.	65
3-	مكونات الرؤية الأسلوبية عند الناقد المسدي	67
3-1-	المرجعية الفكرية بين التراث واللسانيات الحديثة	64
3-2-	الوعي بالمنهج الأسلوبي عند المسدي	70
3-3-	الاشتغال على المصطلح النقدي عند المسدي	72
ثانيا:	الجهود التنظيرية للأسلوبية عند المسدي في كتاب الأسلوب والأسلوبية	74
1-	التعريف بالمدونة والمنهج	74
2-	القضايا الأسلوبية التي عالجها الكتاب	79
2-1-	الإشكال وأسس البناء	79
2-2-	علم الأسلوبية وموضوعه	85
2-3-	مصادرة المخاطب (المتكلم)	90

3-	مصادرة المخاطب (المستمع)	**97**
4-	المخاطب والخطاب (الرسالة)	**106**
5-	الجانب الإجرائي للأسلوبية	**111**
/	خلاصة الفصل	**115**
الفصل الثالث:	**تطبيقات الأسلوبية عند المسدي: "قراءات مع الشابي والمتنبي والجاحظ وابن خلدون"**	
/	تمهيد الفصل:	**118**
أولا-	شرح منهج ومضمون الكتاب:	**119**
ثانيا-	القراءة الأسلوبية التطبيقية لعبد السلام المسدي في الكتاب:	**123**
1-	النقد الأسلوبي في فصل: "مع الشابي بين المقول الشعري والملفوظ النفسي":	**123**
1-1-	شرح عنوان الفصل:	**123**
1-2-	آليات قراءة وتحليل المسدي لشعر الشابي:	**124**
2-	النقد الأسلوبي في فصل: "مع المتنبي الأبنية اللغوية والمقومات الشخصانية":	**140**
2-1-	شرح عنوان الفصل:	**140**
2-2-	آليات قراءة وتحليل المسدي لأسلوب الجاحظ:	**141**
3-	النقد الأسلوبي فصل: "مع الجاحظ "البيان والتبيين" بين منهج التأليف والأسلوب:	**147**
3-1-	شرح عنوان الفصل:	**147**
3-2-	آليات قراءة وتحليل المسدي لأسلوب الجاحظ:	**148**
4-	النقد الأسلوبي في فصل: "مع ابن خلدون: الأسس الاختيارية في نظرية المعرفة	**162**
4-1-	شرح عنوان الفصل:	**162**
4-2-	آليات قراءة وتحليل المسدي لأسلوب الجاحظ:	**164**
/	خلاصة الفصل:	**171**
/	الخاتمة	**172**
/	قائمة المصادر والمراجع	**176**
/	فهرس المحتويات	/

ملــــــحــــــق

عبد الجبار العمدي

مقابلة علمية مع الأستاذ الناقد عبد السلام المسدي

أطروحة دكتوراه في موضوع الأسلوبية

الطالبة نزليخة عالم

جامعة مصطفى اسطمبولي – معسكر – الجزائر

حوارات مع الناقد الدكتور عبد السلام المسدي:

– تحية طيبة أستاذنا الفاضل والسلام عليكم، نريد أن نعرف القارئ بكم أستاذنا من خلال بعض الأسئلة:

س1 – ما الظروف التي رافقت نشأتكم العلمية والأدبية والسياسية؟ وهل كان للاستدمار الفرنسي تأثير في ذلك؟

س2– تطرقت أستاذنا الفاضل إلى مجموعة من المناهج النقدية منها: "الأسلوبية" . ما هي الأسلوبية عند الناقد "عبد السلام المسدي"؟ وما الآليات التي تقوم عليها في ظل الاختلافات الكثيرة في هذا الجانب؟

س3– هل يعدّ مصطلح "الأسلوبية" مرادفا لمصطلح "علم الأسلوب"؟

س4– في مدونتكم "الأسلوبية والأسلوب"، لماذا كان تسبيق الموضوع "الأسلوب" على العلم "الأسلوبية"؟

س5– هل صحيح أن الأسلوبية وصلت إلينا نحن العرب وهي في حال موت كما قال الناقد يوسف وغليسي، ما رأيكم في ذلك؟

س6– ما علاقة الأسلوبية بباقي علوم العربية البلاغة واللسانيات والنحو؟

س7– جاء في مدوناتكم بعض المصطلحات والقضايا، ومنها الأسس الاختبارية، الناموس المعقلن، ناموس التجريد، قانون المطابقة، المغالطة، الغلبة ماذا يقصد بهذه الاصطلاحات؟

س8- ما رأيكم فيما وصلت إليه الأسلوبية من الناحية الإجرائية؟

س9- ما هي ملاحظاتكم على واقع النقد العربي عموما ؟

س10- أكيد أن الناقد "عبد السلام المسدي" يفضل منهجا ويلتزمه في الدراسة النقدية أم أنّ النصوص هي من تلهم بالمنهج؟

س11- هل يمكن للناقد أن يكون مرنا في تعامله مع النص فيستدعيه ذلك مناهج أخرى (المنهج التكاملي) ؟

س12- ما الذي قدمته المناهج النقدية عموما والأسلوبية خصوصا إلى النقد ؟

س13- نحن نعلم أن الدكتور "عبد السلام المسدي" سياسي وناقد ومبدع؛ لكن أين يجد الدكتور نفسه أكثر من تلك المجالات؟

س14- في الأخير نصيحة تقدم لصاحب البحث ولطلبة جامعة مصطفى اسطنمبولي- جامعة معسكر-

السّؤال الأوّل:

حينما كنتُ أتلقى العلم في دار المعلّمين العليا في الجامعة التونسيّة كنت أشعر أن الحظ يُحالفني إذ تتلمذتُ على نخبة من الأساتذة تلقوا تكوينا عربيّا أصيلا كما تلقوا ثقافة أجنبيّة من خلال امتلاكهم المتينِ للغة الفرنسيّة وآدابها، كان المبدأ الجوهريّ في توجيه التكوين الجامعيّ هو منهجَ تحصيل المعرفة أكثرَ ممّا كان حجمَ المعارف التي تَملأ خطة المقرّرات، وكان ذلك المبدأ يُختزلُ في القدرة على ترويض "الفكر النقديّ" بالتّخلّي عن المُسَلّمات القبليّة. وكانت المقرّرات مُوَزّعة على حقول ثلاثة: الأدب واللغة والحضارة، وفي مجال اللغويّات كان السّائد لدى جيل أساتذتنا هو ما كان يُعرف بفقه اللغة؛ ترجمةً لما كان يعرف لدى المستشرقين بالفيلولوجيا، لكن بعض أساتذتنا في ذاك الزمن (العَقد السّابع من القرن العشرين) كانوا مُشرَئبّين إلى الواجهة الجديدة التي اتّخذتها الدّراسات اللغويّة في المسالك الأكاديميّة الأجنبيّة وهو مسلك "اللسانيّات" بوصفها تطوّرًا نوعيّا للبحث اللغويّ العالميّ. يومَها أدركنا بعض خفايا المعرفة: أن العلم موضوعٌ ومنهجٌ، وأن تاريخ العلم هو تاريخ روّاده أوّلا وتاريخ إنجازاته ثانيًا، وعرفنا أيضا أن تغيير منهج العلم كفيل أحيانا بأن يُخرِجَ من رَحِمِ العلم علمًا جديدًا، وهكذا استقامت اللسانيّات حقلا مستقلا عن الدّرس النحويّ والمعجميّ على حدّ ما فعله في تاريخ الثقافة العربيّة عبد الرّحمان ابن خلدون حين استطاع

من خلال نقد علم التاريخ استنباطَ علمٍ جديد هو "علم العمران" الذي سَيُطلَق عليه المصطلح الأجنبيّ "السّوسيولوجيا".

السّؤال الثاني:

للأسلوب مفهومٌ شائع عند أهل النقد الأدبيّ، فهو لذلك تبيعٌ للعمليّة النقديّة يُعرّج فيها ناقدُ النصّ الأدبيّ على ما تميّزت به العبارة اللغويّة من حيث هي أداءٌ إبلاغيّ، وعلى هذا الأساس ترتسمُ في ذاكرة القرّاء تلك العلامات التركيبيّة حتى يُصبحَ القارئ قادرًا على الحدس بأسلوب الأديب أو الناقد حتى ولو قرأ له نصّا لا يعرف أنه منسوبٌ إليه. ومن أوضح الشواهد على ذلك أن المواظب على قراءة ما كتبه طه حسين يُصبح بوسعه أن يعرف أنه هو كاتب النصّ ولو لم يكن متبيّنا في المنطلق أنه هو كاتبه، فالأسلوب إذن هو طريقة خاصّة في استغلال مخزون اللغة لأداء مقاصد الدّلالات.

السّؤال الثالث:

الأسلوب هو جملة خصائص استعمال الإنسان للرّصيد اللغويّ بدلالاته المُعجميّة الأولى أو بدلالاته الطارئةِ عليه بحكم اللجوء إلى المجاز في الاستعمال، فالدّلالة الأصليّة هي التي تذكُرها المعاجمُ والقواميس، أمّا الدّلالات المجازيّة فلا سبيل إلى حصرها أو تقنينها لأنها تمثّل مجال الإبداع الأدبيّ والخلق الإيحائيّ، فالأسلوب هو في سلّم المعارف يُمثّل "موضوعَ العلم" والأسلوبيّة هي طريقة فحص ذاك الموضوع ووسائل ضبطه ليدخل تحت طائلة التنظيم المعرفيّ. ومصطلح الأسلوبيّة هو عبارة عن اختصار لعبارة "علم الأسلوب" على حدّ ما يَكون مصطلح الرّياضيّات اختصارًا لعبارة "علم الحساب"، والجغرافيا اختصارًا لعبارة "علم مَقاسات الأرض"، والتاريخ "علم أخبار الأمم"، و"الطب" علم الأعراض الطارئة على جسم الإنسان.

السّؤال الرّابع:

لكلّ علمٍ موضوع وموضوع العلم سابق للعلم به، فلا يكون علمٌ لأيّ شيء إلاّ بعدَ أن يوجَد ذلك الشيء، فمن البديهيّ أن يكون مفهوم الأسلوب سابقا لمفهوم علم الأسلوب، وهي أسبقيّة زمنيّة وأسبقيّة معرفيّة.

السّؤال الخامس والسّؤال التاسع:

تعود نشأة الأسلوبيّة إلى محاولة تطبيق المكتسبَات التي أنجزتها اللسانيّات في مجال دراسة الظاهرة اللغويّة بأسلوب علميّ ينأى بنفسه عن المكوّنات الوجدانيّة والقناعات العرقيّة والمسَلّمات الغيبيّة، والبحث في خصائص الأسلوب كان مُندرجًا ضمن دائرة المباحث الأدبيّة سواءٌ في النصّ الشعريّ أو في النصّ النثريّ ولا سيّما النثر الفنيّ تخصيصًا، ومن المعلوم

أن النقد الأدبيّ كان يُبرِم عقدًا مع حقول المعرفة الاجتماعيّة والإنسانيّة؛ فعَن تفاعله مع علم التاريخ نشأ المنهج التاريخيّ في النقد، وعن تفاعله مع علم النفس برز النقد النفسيّ، ومع علم الاجتماع ظهرت المدرسة الاجتماعيّة بالمعنى السّوسيولوجيّ، ومع الفلسفة المنهج الفلسفيّ، ومع فقه اللغة المنهجُ اللغويّ، وهكذا كانت الأسلوبيّة ثمرة تلاقح معرفيّ ومنهجيّ بين علم النقد الأدبيّ وعلم اللسانيّات.

ولكن الواقع التاريخيّ يشهد بأن الذين اهتمّوا بالأسلوبيّة في الثقافة العربيّة ابتداءً من أواخر سبعينيّات القرن العشرين كانوا يحترفون النقد الأدبيّ ونكاد لا نعثر على من جاء إلى الأسلوبيّة انطلاقا من التخصّص في مجال اللسانيّات، والغريب أن روّاد الأسلوبيّة العربيّة لم يُعِيروا هذا الملمَحَ أثرَه في تشكيل الواقع المعرفيّ الجديد، بل منهم مَن قد يفاجئه أنّ عدمَ إلمامه بمنطلقات علمِ اللسانيّات (لا بمنطلقات فقه اللغة) يحُول بينه وبين امتلاك أسرار الصّناعة الأسلوبيّة، ولهذه الأسباب الجوهريّة والمتناهية في الدّقّة خَفَتَ صوتُ الأسلوبيّة العلميّة.

السّؤال السّادس:

إن الأسلوبيّة هي الوريث الشرعيّ لعلم البلاغة، والفارق الجوهريّ الذي أتاح للأسلوبيّة أن تتخلّق في رحم المخاض بين الأدب وعلم البلاغة هو أن الأسلوبيّة استبدلت بالمنهج المعياريّ الذي كان سائدًا مع البلاغيّين المنهجَ الموضوعيّ الذي يتولّى الوصف العلميّ ويمسك عن إرسال الأحكام القيميّة. فالمحلّل الأسلوبيّ يُشَرّحُ النصّ مبرزا مقوّماته اللغويّة والتركيبيّة ثمّ يترك للناقد الأدبيّ – بوصفه الناطقَ باسم قارئ النصّ وباسم المستمتع بأدبيّة النصّ وباسم المعجَب بسلطة الإبداع على النفس البشريّة – مهمّة "التثمين" الكاشف لشعريّة القول الأدبيّ.

السّؤال السّابع:

الأسس الاختباريّة تعني الحجَجَ المستندة إلى المكوّنات المحسوسة التي تنطلق من مقوّمات الكتابة وهذا المفهوم يقابل الأسس النظريّة التي هي مجرّدات ذهنيّة، فإذا قال بعضهم عن قصيدةٍ شعريّة إن أشدّ أبياتها بلاغة وحَبْكًا هو البيت العاشر – على سبيل المثال – ويقدّم على ذلك حُجَجَهُ فإن منهجه يكون نقديّا خالصًا، أمّا إذا ألقى الشاعر قصيدته إلقاءً أمام جمهورٍ حاضر وحين ينطق بذاك البيت العاشر ينبري الجمهورُ الحاضر مُصَفّقا ومُهلّلا ومزهوّا وربّما صائحًا مُرحّبًا فيقوم الشاعر عندئذ بإعادة إلقاء ذلك البيت فإن الحكم النقديّ يكون حينئذ قائمًا على أساس "اختباريّ"، وكذلك الأمر حين تجري الأعراف باستلال بيت شعريّ من أيّ قصيدة فتحوّله إلى مَثَلٍ يُضرَبُ لنفاذ دلالته فذاك أيضا من الأسس الاختباريّة.

وهكذا الأمر في الناموس المعَقْلِن إذ هو الاعتماد على تحويل العاطفيّ والوجدانيّ والذوقيّ إلى مقاييس العقل الخالص شأن حديثنا عن "الغزل" في الشعر، فخطاب الناقد يُرْضخ أحاسيس الوجدان إلى الوصف المنطقيّ ويظلّ حديثه منفصلا عمّا يُعانيه "المحِبّ" حين لا يبادله محبوبُه حرارة التجربة العاطفيّة. أمّا التّجريد فهو تحويل التجربة المعيشة إلى خطاب يتعفف عن الانغماس في حرارة المشاعر المتّقِدَة، وقد يجاري السّامعُ المتحدِّثَ إليه بأن يصطنع التّجاوب معه كما لو أنه يعيش مأساته فعليّا معه وما ذلك إلاّ ضربٌ من المصَانعة، ولكنه وهو يصانع صاحب النصّ الأدبيّ "يغالط" قرّاءَه الذين يفحصون خطابه النقديّ.

السّؤال الثامن:

بعد أن تصدّرت الأسلوبيّة المشهدَ النقديّ المستوحَى من الطفرة التي عرفتها اللسانيّات حَصَلت تغيّرات جوهريّة أخرى في مجال العلوم الإنسانيّة من أبرزها انبثاق "علم النصّ" ثمّ ازدهار "علم الخطاب" وهكذا ذهب الباحثون إلى رصد الخصائص التّعبيريّة التي تتنوّع بتنوّع مجال الكلام وهكذا ساد الظن بأن فحص النصّ يتوقف على ضبط حقله المعرفيّ بمقارنته بالحقول الأخرى وجَدّت تصنيفات جديدة: الخطاب السّياسيّ – الخطاب الإيديولوجيّ – الخطاب الرّوائيّ – الخطاب العلميّ، وهكذا اندمجت ثمار الأسلوبيّة في معالجة الخطاب الذي يحمل بصمات الإبداع فسُمّيَ بالخطاب الشعريّ على معنى أنه متضمّن للشعريّة حيث تكون عمليّة تأليف القول على نفس المرتبة التي عليها تأليف دلالات القول ومقاصده.

السّؤال العاشر:

ما انفكّ النقد الأدبيّ في وطننا العربيّ يتقلّص إشعاعُه وربّما تتأزّم حاله، والسّبب الأوّل في ذلك هو انحصار رجالاته في همومهم الأكاديميّة ومشاغلهم المرتبطة بأوضاعهم "المهنيّة" فضلا عن مآزق النشر والتوزيع، أمّا السّبب الثاني – وهو مترتّبٌ على الأوّل – فيتمثّل في عزوف كثير من النقّاد عن توسيع مجال ثقافتهم العامّة بالمثابرة على متابعة العلوم الأخرى فغيابُ هذا الفضول المعرفيّ الدّقيق يَحرمُ الناقدَ من استكناه جوهر الحقول البينيّة؛ تلك التي تتولّد من تمازج الاختصاصات وتجعل مجالات العلم يُفيد بعضها من البعض الآخر.

السّؤال الحادي عشر:

لئن ساهمنا بجَهد متواضع في الحركة النقديّة الرّاهنة فإننا – من حيث المبدأُ – نعتبر جهودنا منخرطة في مجال اللسانيّات قبل كلّ شيء، بمعنى أننا نريد أن نستكشف وظيفة اللغة

عندما تتجاوز حاجة الإنسان إلى التواصل والتحاور لتنتقل إلى وظيفة التأثير في المتلقي؛ سواءٌ أكان ذلك لمزيد ترسيخ دلالة الرّسالة الإبلاغيّة أم لإضفاء السّمة الجماليّة على صياغة تلك الرّسالة.

السّؤال الثاني عشر:

"المنهج التكامليّ" بدعة اصطنعها بعض النقّاد الذين عرفوا تعدّد المناهج ولم يقفوا على أسرارها المتخفّيَة، وسببُ ذلك ضمورُ الوازع المعرفيّ لديهم، ومعلومٌ أن لكلّ علم أصولا محتجبة تغوص عليها فلسفة ذلك العلم، وقد سبق لبعض روّاد التراث العربيّ أن تحدّثوا عن "علم العلم" كما فعل عبد القاهر الجرجانيّ، أو عن أصول العلم كما فعل ابن جنيّ عندما تحدّث عن "أصول النحو"، وسبق لأبي عبد الله الشافعيّ أن أسس علم "أصول الفقه". وسيحقق بعدهم عبد الرحمان ابن خلدون نقلة نوعيّة عندما راح يبحث فلسفة علم التاريخ فابتكر "علم العمران"، كلّ ذلك يُحيلنا على ما سيسمّى "فلسفة العلم" وهذا ما تدلّ عليه اشتقاقيّا عبارة إيبستيمولوجيا المتكوّنة من لفظيْن يدلّ أوّلهما على المعرفة والثاني على العلم: هو إذن علم المعرفة في بُعْده الإيبستيميّ.

السّؤال الرّابع عشر:

في الوطن العربيّ أدباءُ ونقّادٌ وباحثون أكاديميّون يَهَبون أنفسَهم بالكلّيّة للعلم والمعرفة، وهذا حقّ من حقوقهم وقد تكون لهم أعذارهم، وفي الوطن العربيّ أدباءُ ونقّادٌ وباحثون يضطلعون بمجال اختصاصهم ويعتبرون أن عليهم – إلى جانب ذلك – أداءَ مهمّة المثقف، والمثقف في شريعتهم هو الذي يحوّل الشأن الخاصّ إلى شأن عامّ، ويعتبرُ نفسَه معنيّا بالطريقة التي يُديرُ بها أُولُو الأمر حياة الناس. إن الواحد منهم يعتبرُ نفسَه "مثقفا" قبل أن يكون متخصّصا في حقل محدّد من مجالات العلم والمعارف، بل قد يعتبر إعراضه عن الحياة السّياسيّة تخلّيًا عن فريضة حيويّة، ومن هذا كلّه تمّت صياغة المتصوَّرات المتلاحقة: المثقف الملتزم، والمثقف العضويّ، والمثقف النقديّ. ولنا في تاريخ ثقافتنا العربيّة المعاصرة أنموذج لهذا التّصوّر جسّمه طه حسين الذي خاصم السّياسيّين فأزاحوه عن عمادة الجامعة فرَدّت الجماهير الفعل على السّلطة بأن أضفَت عليه لقب "عميد" الأدب العربيّ.

السّؤال الخامسَ عشرَ:

أعلمُ أن الجيل من شبابنا العربيّ أصبح يَنفر من الوصايا التي يتطوّع بها الكهول؛ إذ يرون فيها هيمنة معنويّة غيرَ مبرّرَة لا سيّما والجيل الجديدُ أكثرُ ألفة وأغزرُ استعمالا لفوائض الطفرة التكنولوجيّة الجديدة التي هي الآن المفتاح الذهبيّ لإشفاء غليل الفضول

المعرفيّ. وبَدَلَ سرْد النصائح والوصايا يمكنني أن أرسم مسلكًا منهجيّا انطلاقا من التجربة التي عاينتها فيكون ذلك ضربًا من تدوين السّيرة الفكريّة التي هي جزء من السّيرة الذاتيّة.

علّمتني التجربة أن لا أستصْغِرَ شأن ما يكتبه الآخرون حتى ولو بدا على ظاهره الوهنُ الفكريّ، فلَكَمْ هو نافع أن تتقفى أخطاءَ الناس وأنت تلتمس لهم الأعذار وتشكر لهم صنيعَهم لأنهم أيقظوك وزادوك استبصارًا.

من أجلّ الخصال أن يُروّض طالب العلم نفسَه على أن مجال العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة يختلف جوهريّا عن مجال العلوم "الدّقيقة" المسمّاة "العلوم الصّحيحة" وأعلاها علم الرّياضيّات. والواجب في الحقل الذي يعنينا هو التمسّك بمبدإ "النسبيّة" الذي يتنافى مع الحقائق المطلقة ويتأبّى على الحسم اليقينيّ، والحصيف هو مَن يتمسّك بالثلاثيّة الجدليّة إذ يتشكّل الكون الذهنيّ على مَبدإ "القضايا" تقابلها "النقائض" ومن تفاعل هذه وتلك تنشأ "التركيبات".

من تمام تنشئة "العقل المصقول" عدمُ الاستسلام إلى الأحكام المطلقة رغم إغرائها ومن مستوجَبَات ذلك تحاشي إرسال الأحكام "المعياريّة"؛ تلك التي تقوم على التفضيل الجازم.

وأعظم مبدإ يتعيّن على مُريد المعرفة هو إحكام الأداة اللغويّة؛ لأن التّعبير ليس رداءً خارجيّا نكسو به الأفكار، وإنما هو الفكر ذاته وهو يتشكّل، وبما أننا وَرَثةُ لغة اشتقاقيّة تعتمدُ الإعرابَ الذي يقوم على تغيّر الحركات في أواخر الكلمات، فلا سبيل إلى التفوّق إلا إذ روّض الإنسان نفسَه على أن يرتجلَ الحديث باللغة الفصحى، وأن لا يقف على السّكون في أواخر الكلمات كما يفعل جلّ الناس، فمَن تحدّث بالعربيّة ارتجالا، وتحرّى تدقيق الحركات الإعرابيّة داخل الجملة وفي آخرها، وزادَ على ذلك مراعاة "نغميّة" الجملة صعودًا بالصّوت ثمّ ارتخاءً قبل إتمام معناها، فقد مَلَك على السّامعين ألبابَهم، وتقبّلوا مقاصده بوافر الرّضا، واقتنعوا بما يقول لهم.

الأسلوبية والأسلوب

طبعة منقحة ومشفوعة ببيبليوغرافيا الدراسات الأسلوبية والبنيوية

د. عبد السلام المسدي

الدار العربية للكتاب

دراسات نقدية

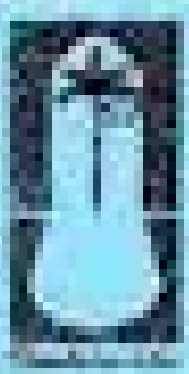

د . عبد السلام المسدي

قراءات

مع الشابي والمتنبي والجاحظ وابن خلدون

مكتبة لسان العرب
www.lisanarb.com